د. عبد الوهاب المسيرى

البروتوكولات واليهودية والصهيونية

دار الشروق

البروتوكولات
واليهودية والصهيونية

الطبعة الأولى
يناير ٢٠٠٣م
الطبعة الثانية
إبريل ٢٠٠٣م
الطبعة الثالثة
مايو ٢٠٠٣م

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى
رابعة العدوية ـ مدينة نصر ـ ص . ب : ٣٣ البانوراما
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk.com

مقدمة

يتصور البعض أن كُره اليهود والتشهير بهم وإظهار شرورهم الحقيقية أو المتخيلة هو أنجع طريقة لمحاربة الصهيونية. وانطلاقاً من هذا فإنهم يتصورون أن ترويج وثيقة مثل **البروتوكولات** هو جزء من التصدي للعدو الصهيوني، ولذا يخلعون عليها هالة من الأهمية ويحيطونها بكثير من الرهبة باعتبار أنها تشكِّل مفتاحاً لفهم الشخصية اليهودية والمشروعات الصهيونية.

وهذه الدراسة تنطلق من عكس هذه المقولات، فهي ترى أن **البروتوكولات** وثيقة مزيَّفة، وأن كُره اليهود يصب في الخندق الصهيوني. والكتاب دراسة فيما أسميه «الفكر البروتوكولي التآمري»، مع التركيز على **البروتوكولات** كحالة محددة، وهو مكوَّن من ثمانية فصول، يتناول أولها ("أصل البروتوكولات والموضوعات الأساسية فيها") النصوص المختلفة التي تحولت في نهاية الأمر إلى نص كتبه مؤلِّف روسي رجعي ثم نسبه إلى حكماء صهيون حتى يشكِّك في أفكار أساسية مثل الحرية والديمقراطية والمساواة والدستور بأن جعل اليهود هم المسئولون عن نشرها وإشاعتها. ويبيِّن هذا الفصل من خلال تحليل النص أن نبرة الكتاب ساذجة للغاية، فهو يتحول من خطاب يُلقيه حكيم حكماء صهيون إلى عريضة اتهام موجَّهة ضد اليهود، وقد لجأ المؤلِّف لذلك حتى يبدو الأمر وكأنه ﴿ **وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا** ﴾ (يوسف: ٢٦).

ويبيِّن الفصل الثاني ("البروتوكولات واليهودية والعنف") أن الطابع الروسي للنص يتضح في عدم معرفة مؤلفه بالتراث الديني اليهودي المتناقض، وأن جذور العنف الصهيوني تعود بالدرجة الأولى إلى التشكيل الاستعماري الغربي. ويبيِّن

الفصل الثالث ("البروتوكولات الصهيونية") أنه لم يأت ذكر للصهيونية في **البروتوكولات**، ومع هذا يكشف التحليل المتعمِّق اتفاق الرؤية البروتوكولية والصهيونية، فكلاهما يرى اليهود كتلة واحدة متماسكة لها شخصيتها المستقلة وتاريخها المستقل. وعادةً ما يقول مروجوا **البروتوكولات** إن النبوءات التي وردت فيها تحققت أو آخذة في التحقُّق. وتبين الدراسة في هذا الفصل وغيره أن هذه شائعة لا أساس لها من الصحة، وأن عدد النبوءات البروتوكولية والصهيونية التي لم تتحقق يفوق بمراحل تلك النبوءات التي تحققت.

ويبيِّن الفصل الرابع ("الصهيونية الاستعمارية الغربية") والفصل الخامس ("الصهيونية ذات الديباجات اليهودية") أن جذور الصهيونية تعود إلى بعض المفكرين الاستعماريين غير اليهود، الذين يكرهون اليهود ولذا فهم يحاولون تخليص العالم الغربي منهم عن طريق تصديرهم خارج أوربا، وأن الصهاينة اليهود لا يختلفون كثيراً عن الصهاينة غير اليهود في كُرههم لليهود وفي رغبتهم في تخليص أوربا منهم.

ويبيِّن الفصل السادس ("سيطرة اليهود على الإعلام ونفوذ اللوبي الصهيوني") أن التفكير البروتوكولي ينسب قوة خارقة للوبي الصهيوني في الولايات المتحدة مع أنه يستمد قوته من أنه نجح في أن يكون أداة طيعة في يد الاستعمار الأمريكي. أما الفصل السابع ("إخفاق الخطاب البروتوكولي من الناحية المعرفية والعملية والأخلاقية") فيتناول المقدرة التفسيرية للخطاب البروتوكولي التآمري ويبيِّن أنها ضعيفة لأقصى حد، وأنه من الناحية العملية لا يفيد من قريب أو بعيد في جهادنا ضد العدو، وأن المفاهيم الكامنة وراءه مناقضة تماماً للرؤية الإسلامية.

ويحتفي الفصل الثامن والأخير ("من البروتوكولات إلى الانتفاضة") بإبداع المتنفضين الذين نفضوا عن أنفسهم غبار الهزيمة وعرفوا حجم العدو الحقيقي فأبدعوا في عمليات الكرّ والفرّ وفي تطوير الأسلحة وفي أشكال الجهاد مما ولَّد في نفس العدو الرعب والإحساس بعدم الأمن، ففَقَدَ الاتجاه وبدأ الحديث عن نهاية إسرائيل.

ولا تتوقف هذه الدراسة عند ما يُثار بين حين وآخر من محاولات الضغط والابتزاز التي تقوم بها دوائر صهيونية أو غربية متّذرعةً بنشر مقال هنا أو عَرض عملٌ فنيٌّ هناك (كما حدث مؤخراً في أكثر من حالة)، فهي - كما أسّلفت - دراسة في الفكر البروتوكولي التآمري بشكلٍ عام. إلا أنه يجدر التأكيد في هذا المقام على أنني أرفض بشدة تدخُّل أي دولة أجنبيّة في شئوننا الداخلية، ولا سيما الولايات المتحدة التي حوّلت عالمنا العربي إلى ساحة حرب مستباحة، كما أنها تخرق كل الأعراف السياسية والأخلاقية، وهي علاوة على هذا تستخدم خطاباً تآمرياً بروتوكولياً في تشويه صورة المسلمين والعرب. إن هذه الدراسة ترفض الفكر البروتوكولي لا على الرغم من رفضنا للصهيونية وللهيمنة الأمريكية وإنما بسبب ذلك.

ونظام الترقيم في هذه الدراسة يدور بين نقطتين متطرفتين: النقطة (.) وتعني الانفصال التام بين جملة وأخرى، والفصلة (،) التي تعني أقل أشكال الفصل بين عنصرين داخل الجملة، بل يمكن اعتبارها شكلاً من أشكال الوصل. وما بينهما تقع أشكال الفصل والوصل الأخرى:

١ - النقطة (.): تُستخدَم للفاصل بين جملتين، كلٌّ منهما تحتوي على فكرة مستقلة عن الأخرى.

٢ - المقطوعة: مجموعة من الجُمل التي تدور حول فكرة رئيسية وينتهي المقطع بانتهائها. وحين تبدأ مقطوعة جديدة يُترك فراغ في أول سطر.

٣ - الفصلة (،): أهم علامات التنقيط في هذه الدراسة وأكثرها شيوعاً، وتُستخدَم على النحو التالي:

(أ) لتقسيم الجملة لعدة عناصر ("في عام ١٩٧٥، قام كيسنجر. . .").

(ب) للفصل بين عناصر مختلفة متوازية مع وجود حرف العطف: "ظهرت مشاكل جديدة لم يألفوها من قبل مثل تزايد معدلات الاندماج، وتصاعُد نسبة الزواج المختلط، وخطر الانصهار الكامل".

(جـ) تأتي الفصلة دائماً قبل كلمة «أي» حينما تدل على أن ما يأتي بعدها يُفسِّر ما قبلها.

(د) الجُمل الاعتراضية التي تربطها بالنص علاقة قوية، وفي هذه الحالة نستخدم فصلتين بدلاً من واحدة: "كان صمويل، باعتباره يهودياً مندمجاً، يرى..." .

٤ ـ النقطتان (:): تعنيان أن ما يأتي بعدهما قائمة بعناصر مختلفة مترابطة.

٥ ـ ثلاث نقاط (...): تعني أنه تم حذف بعض الكلمات أو الجمل من مقطوعة مقتبسة.

٦ ـ علامتا التنصيص المرتفعتان (" "): تُستخدمان في الأحوال التالية:

(أ) عناوين المقالات والأفلام والوثائق.

(ب) الاقتباسات.

(جـ) التحفُّظ. حين نضطر إلى استخدام مصطلح صهيوني ولا نوافق على مدلولاته على النحو التالي: "إن "عبقرية" إسبينوزا اليهودية" .

٧ ـ علامتا التنصيص المنخفضتان (« »): للإشارة إلى الكلمة باعتبارها كلمة: "إن كلمة «صهيونية» لها دلالات كثيرة" .

٨ ـ القوسين ( ): يُستخدمان لفصل جُمل اعتراضية بشكل كامل، علاقتها واهية بالجملة الأصلية.

٩ ـ الأقواس المستطيلة [ ]: تُستخدَم إن أدخلنا عبارات من وضعنا على اقتباس على النحو التالي: "إرتس يسرائيل [في مصطلحنا «فلسطين المحتلة»] هي وطن الشعب اليهودي" .

١٠ ـ الشرطتان (ـ ـ): تُستخدَم الشرطتان للدلالة على وجود جملة اعتراضية، ولكن معنى الجملة لا يكتمل دونها.

١١ ـ علامة الاستفهام (؟): تُستخدَم للاستفهام.

١٢ ـ أداة التعجب (!) : تُستخدَم للتعجب .

١٣ ـ الشرطة المائلة (/) : تُستخدَم لتكوين كلمة مركبة كأن نقول «الطبيعة/ المادة» أو «ديني/ قومي» أو «المدينة/ الدولة» . وهي تعادل الشرطة القصيرة (بالإنجليزية : هايف hyphen) في اللغات الأوربية .

١٤ ـ تُكتب عناوين الكتب والصحف ببنط غـامق ولا ينطبق هذا على الكتب المقدَّسة (الإنجيل ـ العهد القديم) . أما عناوين المقالات والأفلام والوثائق فتوضع بين علامات التنصيص المنخفضة .

وفي الختام أود أن أشكر أستاذنا فضيلة الشيخ الدكتور علي جمعة أستاذ أصول الفقه بكلية الدراسات العربية والإسلامية بجامعة الأزهر لمراجعته الفصل السابع . كما أتوجه بالشكر للصديق العزيز الدكتور محمد هشام (مدرس الأدب الإنجليزي بجامعة حلوان) الذي بذل من وقته وجهده الكثير في محاولتنا إخراج هذه الدراسة بالمستوى اللائق . كما أشكر (زوجتي) الدكتورة هدى حجازي (الأستاذ غير المتفرغ بكلية البنات ـ جامعة عين شمس) لكل ما قدمته من عون وجهد . وكعهدي به ، بذل الأستاذ سيد طه (بوزارة الري) جهداً كبيراً غير عادي فِي كتابة هذه المخطوطة على الحاسوب وفي أسرع وقت . فلهم جميعاً مني الشكر وعند الله الجزاء .

والله من وراء القصد .

عبد الوهاب المسيري

دمنهور ـ القاهرة

ديسمبر ٢٠٠٢

الفصل الأول
أصل البروتوكولات والموضوعات الأساسية فيها

أثيرت مؤخراً ضجة إعلامية حول كتيب **بروتوكولات حكماء صهيون**، بعد أن كانت انتفاضة الأقصى قد هدأت من روعنا قليلاً وفتحت لنا كوة من النور في خندق الهزيمة، وابتعدت بنا عن "الحديث عن أذرع جيش الدفاع الإسرائيلي الطويلة التي بوسعها أن تصل إلى أي مكان"، وعن "قوة الصهيونية العالمية الأخطبوطية" وعن "سيطرة اليهود على الصحافة والإعلام والأموال وعلى العالم الغربي والشرقي والجنوبي والشمالي". وبعد أن بدأنا نتحدث عن التضحية والبذل والبطولات اليومية، ها نحن قد عُدنا مرةً أخرى إلى استخدام خطاب الهزيمة وإلى الحديث عن المؤامرة العالمية ضدنا وعن «الشياطين اليهود العباقرة»، وكأننا لم نحرز الانتصارات المتتالية عليهم منذ أيام حرب الاستنزاف عام ١٩٦٨، ثم حرب عام ١٩٧٣، ثم انتفاضة ١٩٨٧، ثم هزيمتهم في جنوب لبنان، ثم انتفاضة الأقصى. **فما هي هذه البروتوكولات؟**

البروتوكولات وأصولها

كلمة «بروتوكول» كلمة إنجليزية لها عدة معان، ولعل أقربها للمعنى المقصود في السياق الحالي هو «محاضر مؤتمر سياسي». و **بروتوكولات حكماء صهيون** وثيقة يُقال إنها كتبت عام ١٨٩٧ في بازل بسويسرا، أي في نفس العام الذي عُقد فيه المؤتمر الصهيوني الأول. بل ويزعم البعض أن تيودور هرتزل تلاها على هذا المؤتمر، وأنها نوقشت فيه. بل ويذهب هؤلاء إلى التأكيد على أن المؤتمرات الصهيونية المختلفة إن هي إلا مؤتمرات حكماء صهيون، وأن **البروتوكولات** هي

محاضر أحد هذه المؤتمرات، وأن الهدف من المؤتمر السري الأساسي الأول الذي ضم حاخامات اليهود هو وضع خطة محكمة (بالتعاون مع الماسونيين الأحرار والليبراليين والعلمانيين والملحدين والجمهوريين والثوريين) لإقامة إمبراطورية عالمية تخضع لسلطان اليهود وتديرها حكومة عالمية يكون مقرها القدس (وإن جاء في أحد **البروتوكولات** أن مقرها هو أوربا). وتقع **البروتوكولات** البالغ عددها أربعاً وعشرين بروتوكولاً في نحو مائة وخمسين صفحة في الأصل الروسي والإنجليزي وفي ترجمة محمد خليفة التونسي (**الخطر الصهيوني: بروتوكولات حكماء صهيون** "تقدير [وليس تقديم]" الأستاذ عباس محمود العقاد، القاهرة: دار التراث، ١٩٥١؛ وقد اعتمدنا على هذه الترجمة في تحليلنا. وترد المقتطفات من هذا الكتاب وقد أثبت بعدها رقم البروتوكول ثم رقم الصفحة. وإن ورد رقم الصفحة مسبوقاً بحرف ص فهذا يعني أنه اقتباس من المقدمات المختلفة التي يضمها الكتاب).

نُشرت **البروتوكولات** أول ما نُشرت عام ١٩٠٥ ملحقاً لكتاب من تأليف سيرجي نيلوس Sergei Nilus وهو موظف روسي كان يعمل في الكنيسة الروسية الأرثوذكسية، وكانت له اهتمامات صوفية متطرفة، كما كان غارقاً في الدراسات الخاصة بالدلالات الصوفية للأشكال الهندسية وبحساب آخر الأيام! وقد نشر كتيباً غريباً عام ١٩٠١ بعنوان "العظيم في الحقير والمسيح الدجال كإمكانية سياسية وشيكة". ويذهب نيلوس في هذا الكتيب إلى أن الإمبراطورية القيصرية الروسية هي وحدها القادرة على إنقاذ العالم من حكم المسيح الدجال. ثم صدرت طبعة ثانية من هذا الكتاب عام ١٩٠٥ مع إضافة جديدة: **البروتوكولات**. وقد جاء في مقدمة **البروتوكولات** التي كتبها نيلوس ما يلي:

"إن آخر حصن للعالم، وآخر ملجأ من العاصفة المقبلة هو روسيا فإيمانها لا يزال حياً، وإمبراطورها المسيح لا يزال قائماً كحاميها المؤكد.

"إن كل جهود الهدم من جانب أعداء المسيح اليساريين الظاهرين وعماله

الفطناء والأغبياء مركزة على روسيا. والأسباب مفهومة والغايات معلومة، فيجب أن تكون معروفة لروسيا المتدينة المؤمنة.

"إن اللحظة التاريخية المقبلة أعظم وعيداً، والأحداث المقتربة - وهي مقنعة بالغيوم الكثيفة - أشد هولاً، فيجب أن يضرب الروسيون ذوو القلوب الجريئة الباسلة بشجاعة عظيمة وتصميم جبار. وينبغي أن يعقدوا أيديهم بشجاعة حول لواء كنيستهم المقدس، وحول عرش إمبراطورهم". وهذا الاقتباس يبيِّن توجهاته الدينية والسياسية المُغرقة في الرجعية.

وقد ادعى نيلوس أنه تسلَّم مخطوطة **البروتوكولات** عام ١٩٠١ من صديق له حصل عليها من سيدة تُدعى مدام ك. ادعت أنها سرقتها من أحد أقطاب الماسونية في فرنسا. لكن نيلوس نفسه أخبر أحد النبلاء الروس بأن هذه السيدة أخذتها من رئيس البوليس السري الروسي في فرنسا، وأن الأخير هو الذي سرقها من أرشيف المحفل الماسوني.

وقد لاقت **البروتوكولات** رواجاً كبيراً بعد نشوب الثورة البلشفية التي أسماها البعض آنذاك «الثورة اليهودية»، وانتقلت إلى غرب أوربا عام ١٩١٩ حيث حملها بعض المهاجرين الروس. وبلغت **البروتوكولات** قمة رواجها في الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين، حينما حاول كثير من الألمان تبرير هزيمتهم بأنها طعنة نجلاء من الخلف قام بها اليهود المشتركون في «المؤامرة اليهودية الكبرى أو العالمية».

والرأي السائد الآن في الأوساط العلمية التي قامت بدراسة **البروتوكولات** دراسة علمية متعمقة هو أن **البروتوكولات** وثيقة مزورة، استفاد كاتبها من كتيب فرنسي كتبه صحفي يدعى موريس جولي Maurice Joly يسخر فيه من نابليون الثالث بعنوان **حوار في الجحيم بين ماكيافللي ومونتسيكو، أو السياسة في القرن التاسع عشر Dialogue aux Enfers entre Machiavel et Montesquieu, ou la Politique de Machiavel au xix. Siécle. Par un Contemporain**، كتبها مؤلف معاصر، نُشر في بروكسل عام ١٨٦٤. وقد وقع كتاب جولي في يد ألماني يسمى هرمان جودش Hermann Goedsche (كان ينشر كتبه باسم سير

جون رتكليف Sir John Retcliffe)، وأعاد صياغة حوار جولي في قصة أسطورية عن المؤامرة اليهودية كجزء من سلسلة روايات بعنوان بيارتيز Biarritz صدرت عام ١٨٦٨. وفي فصل بعنوان "المقبرة اليهودية في براغ ومجلس ممثلي أسباط إسرائيل الإثنى عشر"، ادَّعى جودش أن ثمة مؤتمراً يُعقد مرة كل مائة عام يحضره الحاخامات بهدف دراسة المائة عام السابقة ووضع خطط للمائة التالية. وقد ذكر الكتاب أن الحاخام أيكهورن ألقى بمحاضرة وضع فيها خطة لتدمير الحضارة الغربية. وقد تُرجمت هذه الدراسة إلى الروسية عام ١٨٧٢، ثم ظهرت طبعة موجزة تحت عنوان "خطبة الحاخام" عام ١٨٩١. وهكذا تحول الحوار بالتدريج إلى خطبة الحاخام ثم إلى مؤتمر سري يعقده حكماء صهيون الشرسون المفترسون. وقد كشفت جريدة **التايمز** اللندنية في ثلاثة أعداد متتالية (١٦/ ١٧/ ١٨ أغسطس ١٩٢١) أوجه الشبه بين الكتيب **والبروتوكولات**، فنشرت مقتطفات منهما جنباً إلى جنب لتبين مواطن الشبه بينهما، وأن **البروتوكولات** تضمنت اقتباسات حرفية من كتاب **حوار في الجحيم** وأحياناً تعبيرات وصوراً مجازية منه.

وقد بيَّنت الجريدة أن **البروتوكولات** (خاصةً من ١ـ١٩) تتبع نفس نظام **حوار في الجحيم** (خاصةً حوارات ١ـ١٧) وتشبهها في كثير من الوجوه. ولنضرب مثلاً على هذا التشابه الذي يبيِّن أن السيد نيلوس قد اقتبس (بمعنى سرق) الكثير من **حوار في الجحيم** وادعى اكتشافه ونسبه لحكماء صهيون. جاء في إحدى الحوارات ما يلي:

"إن غرائز الإنسان الشريرة أقوى من دوافعه الخيِّرة. فالإنسان يتجه نحو الشر أكثر من اتجاهه نحو الخير. وهو لا يُحكِّم عقله لأن الخوف والقوة يتحكمان فيه بمقدار أكبر. وكل إنسان يسعى نحو الهيمنة، ولا يوجد شخص لا يود أن يضطهد غيره لو كان ذلك بوسعه. وجميع البشر (جميعهم تقريباً) على استعداد للتضحية بحقوق الآخرين خدمةً لمصالحهم..." .

وجاء في البرتوكول الأول ما يلي:

"إن ذوي الطبائع الفاسدة من الناس أكثر عدداً من ذوي الطبائع النبيلة...

وإذن فخير النتائج في حكم العالم ما يُنتزع بالعنف والإرهاب . . . كل إنسان يسعى إلى القوة، وكل واحد يريد أن يصير دكتاتوراً، على أن يكون ذلك في استطاعته. وما أندر من لا ينزعون إلى إهدار مصالح غيرهم توصلاً إلى أغراضهم الشخصية". (١/ ١٤٦).

ولنضرب مثلاً آخر على التشابه الذي يدل على السرقة الأدبية. جاء في إحدى الحوارت ما يلي:

"ماذا يكبح جماح هذه الحيوانات المفترسة التي يسمونها بشراً من أن يهاجم الواحد منها الآخر؟ في المراحل الأولى من الحياة الاجتماعية أوقفتهم القوة التي لا حد لها، ثم قام القانون بعد ذلك بهذه المهمة. ولكن القانون ليس سوى القوة بعد أن تم تهذيبها بشكلٍ ما. وإن عُدت إلى المصادر التاريخية: في كل مكان القوة تسبق الحق، والحرية السياسية إن هي إلا فكرة نسبية".

وجاء في البروتوكول الأول:

"ماذا كبح الوحوش المفترسة التي نسميها الناس عن الافتراس؟ وماذا حكمها حتى الآن؟ لقد خضعوا في الطور الأول من الحياة الاجتماعية للقوة الوحشية العمياء، ثم خضعوا للقانون، وما القانون في الحقيقة إلا هذه القوة ذاتها مقنعة فحسب. وهذا يؤدي بنا إلى تقرير أن قانون الطبيعة هو: الحق يكمن في القوة. والحرية السياسية ليست حقيقة، بل فكرة" (١/ ١٤٧).

وجاء في الحوارات ما يلي: "حينما يتم اضطهاد البؤساء فإنهم عادةً ما يقولون: "لو أن الملك يعرف" . . . أو "حينما سيعرف الملك". وجاء في البروتوكول الثامن عشر ما يلي: "لكي تبقى هيبة السلطة يجب أن تبلغ منزلتها من الثقة إلى حد أن يستطيع الناس أن يقولوا فيما بين أنفسهم: "لو أن الملك يعرفه فحسب" أو "حينما يعرفه الملك" (١٨/ ٢٥٦).

التطابق الكامل واضح تماماً. وقد يقول قائل إن هذه الأفكار من العمومية والسطحية والسذاجة بحيث إن التطابق ليس نتيجة سرقة أدبية، وإنما مجرد توارد

خواطر. ونحن نرى أيضاً أن هذه أفكار عامة للغاية وسطحية إلى أقصى حد، ولكن ما يجعلنا نؤكد أنها سرقة هو طريقة ترتيبها، وخاصةً أن طريقة ترتيب **البروتوكولات** و **حوار في الجحيم** متشابهة إلى حدٍّ كبير. (لمزيد من المعلومات يمكن للقارئ أن يعود إلى الموسوعات العالمية المختلفة مثل: **الموسوعة البريطانية Ency-clopedia Britannica** ومواقع مختلفة على الإنترنت)[1]. ومن المعروف أنه لم تقم هيئة علمية بحثية واحدة في العالم العربي بنشر هذا الكتيب، ولا أعرف أحداً من الدارسين الجادين للظواهر اليهودية والصهيونية يعتمد هذا الكتاب مرجعاً لدراسته.

هالة حول الكتاب

حازت **البروتوكولات** على اهتمام بعض المشتغلين بالصحافة والإعلام والكتب الشعبية. وأحاطها بعضهم بهالة من الرهبة. فعلى سبيل المثال ادعى الأستاذ محمد خليفة التونسي في مقدمته الطويلة لترجمته للكُتيب، أنه ما من أحد ترجم **البروتوكولات** أو عمل على إذاعتها بأية وسيلة إلا انتهت حياته بالاغتيال أو الموت الطبيعي ظاهراً، ولكن في ظروف تشكِّك في وسيلته، كما ادعى آخر أن "اليهود" يشترون كل نسخ الكتاب حتى لا تقع في يد أحد. وقد أفزعت هذه

---

(١) يمكن الاطلاع على نص مقالات صحيفة "التايمز اللندنية" كاملاً في الموقع التالي على شبكة الإنترنت:

http://emperors-clothes.com/antisem/graves-tran.htm

وتوجد على شبكة الإنترنت مئات المواقع التي تقدم معلومات تاريخية عن البروتوكولات، من بينها:

The Protocols and Antisemitic conspiracism" " -

http://www.publiceye.org/tooclose/protocol.htm

- "What are "The Protocols of the Elders of Zion"?"

http://holocaust-history.org/short-essays/protocols.shtml

- "Anti-Masonry and Anti-Semitism"

http://www.srmason-si.org/council/journal/jun99/zeldis.html

- "Explanation of This Information"

http://www.iahushua.com.BeWise/evidence/html

الشائعات، كما يقول الأستاذ التونسي، بعض الناس ومنعتهم من ترجمتها، مثل ذلك المترجم الذي قابله عام ١٩٤٧ في جريدة **الأساس** وأخبره أنه يخاف من ترجمتها خشية الموت. وحينما علم أن الأستاذ التونسي سيقوم بترجمتها حذَّره من مغبة فعلته ولقَّبه بالشهيد الحي. ثم يشير الأستاذ التونسي (في ص٥٧) إلى أحد كبار الكُتَّاب المصريين الذي ادعى أن "كل من ترجم الكتاب في إنجلترا وفرنسا وإسبانيا وإيطاليا [نسي أن يذكر السند والهند وبلاد تركب الأفيال] قد قُتلوا جميعاً وأن الصحف التي نشرته قد نُسفت، لأن اليهود حريصون على أن يظل سراً". وفي هامش في صفحة ٣٩٥ يقول الأستاذ التونسي: إنه لقي في نشر ترجمته **للبروتوكولات** من المتاعب ما يطول ذكره. وقد اكتشف "السلطان الواسع الذي يتمتع به اليهود حتى في أبعد المؤسسات الوطنية". كما أنه صرح أنه مُعرَّض "للاغتيال في كل لحظة" وأنه موطد نفسه على ذلك!

والملاحَظ أن هذه الأقوال، التي يرددها كثيرون آخرون من أنصار الفكر البروتوكولي التآمري، هي جميعها أقوال مُرسلة لا سند لها (شأنها شأن عبارات **البروتوكولات** نفسها، كما سنبيِّن فيما بعد). فلم يورد الكاتب مثالاً واحداً موثَّقاً على تلك «الحوادث الجسام» التي يدَّعي وقوعها، وأقوال الأستاذ التونسي تعبِّر عن نموذج متكامل في الرؤية والتفسير، ومن هذا المنظور أوليناها اهتمامنا. وأنا لا أعرف (ولا يعرف أحد من أساتذتي أو أصدقائي أو طلبتي أو طالباتي) واقعة واحدة حدث فيها أن قُتل ناشر أومترجم **للبروتوكولات**، وما أعرفه أن **البروتوكولات** طُبعت مئات الطبعات وتُرجمت إلى معظم لغات العالم، وكانت من أكثر الكتب شيوعاً بعد الإنجيل. وقد بقي الأستاذ التونسي نفسه على قيد الحياة لما يزيد عن عشرين عاما بعد أن تحلى بالشجاعة واستعد للشهادة وترجم **البروتوكولات** ومات ميتة طبيعية لم تثر أي شكوك حولها. أما دار التراث التي غامرت بنشر ترجمته فلم تتعرض للنسف والهلاك والدمار والبوار. وحسب معلوماتي توفي الأستاذ العقاد - رحمه الله - لأسباب طبيعية رغم «التقدير» الذي كتبه لترجمة الأستاذ التونسي. أما الكاتب المصري الكبير الذي حذَّره من مغبة فعلته فقد مدَّ الله في عمره ولا يزال حياً يُرزق (متَّعه الله بطول العُمر والصحة والعافية)، وهو من كبار دعاة التطبيع في

مصر والتشهير باليهود في ذات الوقت، وهي مفارقة ولكنها ظاهري
الصهيونية وكُره اليهود ـ كما سنبيِّن فيما بعد ـ رفيقان لا يفترقان، ووجها
العُملة. **والبروتوكولات** ليست وثيقة سرية، ولم تكن كذلك أبداً، وقد
وشاعت لأسباب سنبينها فيما بعد، وادعاء سريتها هو من قبيل إعطائها من ا
ما لا تستحق، وربما الارتزاق منها، والله أعلم. كما أن ادعاء أن اليهود ية
بشراء كل النسخ حتى لا تقع في يد أحد، كلام صبياني في عصر المطابع، و
ولا شك أكثر سخافة في عصر الإنترنت ووسائل الاتصال المختلفة[1].

وقد يكون من المفيد أن أذكر تجربتي مع كتابة **موسوعة اليهود والي**
والصهيونية: نموذج تفسيري جديد، ثمانية مجلدات (القاهرة: دار الش
١٩٩٩)، فعندما بدأت في كتابتها بشكل جدي عام ١٩٨٤ وصلني ثلاثة
خطاب تهديد بالقتل من منظمة كاخ، ستة منها في الرياض حيث كنت
بالتدريس في جامعة الملك سعود، وستة في القاهرة حيث أقيم، أما الخطاب
عشر فقد وصلني بعد يومين اثنين من وصولي من الرياض إلى القاهرة، وجا
يلي: "نحن نعلم أنك قد عدت لتوك من الرياض، ونحن نعد لك قبراً"
وصل لمساعدي وصديقي الدكتور محمد هشام (مدرس الأدب الإنجليزي ب
حلوان) خطاباً بهذا المعنى. وكان الهدف بطبيعة الحال ألا نستمر في عملنا (و
جاء في أحد الخطابات "إن لم تتوقف عن مهاجمة الصهيونية في أعمالك
سنرديك قتيلاً"). أبلغنا السلطات المصرية التي قامت بحمايتنا. بل إن الص
الإسرائيلية أخبرت مائير كاهانا، رئيس منظمة كاخ، الذي اعترف (في حوار
معه صحيفة **يديعوت أحرونوت**) أنه مُرسل الخطابات، أنه لو بدأ في عم
اغتيال ضد المثقفين المصريين فيمكن أن يكون هناك رد فعل مصري عنيف، و
الأفضل ألا يفعل، فارتدع. وهذا يبيِّن أن قوة "اليهود" ليست مطلقة،

---

(١) في بحث على شبكة الإنترنت، أُجري يوم ١٢ ديسمبر ٢٠٠٢، تبين أن عدد المواقع التي تذ
البروتوكولات أو شروحاً لها أو تعليقات عليها بمختلف لغات العالم يبلغ نحو ٩٨٦٠ موقع
ذلك يستمر البعض في الادعاء بأن البروتوكولات وثيقة سرية يعمل "اليهود" على إخفائها و
من ينشرها أو يترجمها.

يفهمون في موازين القوى. ومدَّ الله في عُمرنا، وبعونه وبفضله انتهينا من كتابتها عام ١٩٩٩. وقد رفض كثير من الناشرين نشر **الموسوعة**، ولكني لا أعتقد أنها كانت مؤامرة يهودية، ثم وافق المهندس إبراهيم المعلم على نشرها بعد مفاوضات دامت خمس دقائق، ولم يفلح "اليهود" في إعاقته عن عمله الاستشهادي. ثم قامت دار الشروق بنشر **الموسوعة**، فلم يقم أحد بتدميرها ـ والحمد لله. ومدَّ الله في عمر المهندس إبراهيم المعلم والفنان حلمي التوني الذي أشرف على إخراج **الموسوعة**. ورغم نفاد الطبعة الأولى من **الموسوعة** فإن "اليهود"، على حد علمنا، لم يقوموا بشراء جميع نسخها. بل إنه من الملحوظ أن الصهاينة قد لزموا الصمت تماماً بخصوصها، حيث فوجئوا بعمل علمي عربي يوضح هوية المشروع الصهيوني الاستعماري وآلياته وأوهامه ونقاط قوته وضعفه دون أن يسقط في أي تعميمات عنصرية. (والطريف أنني حين مرضت في السنوات الأخيرة، قال بعض الظرفاء القاهريين إن الموساد هي التي دست الخلايا السرطانية داخل النخاع في جسدي!!).

ويقول الأستاذ التونسي في مقدمة كتابه (ص٤٤) إنه حين نُشرت **البروتوكولات** لأول مرة "افتضحت نيات اليهود الإجرامية، وجُن جنونهم خوفاً وفزعاً، إذ رأوا العالم يتنبه إلى خططهم الشريرة ضد راحته وسعادته، فقام زعيمهم الكبير الخطير تيودور هرتزل أبو الصهيونية، وموسى اليهود في العصر الحديث، يلطم ويصرخ لهذه الفضيحة. فأصدر عدة نشرات يعلن فيها أنه قد سُرقت من «قدس الأقداس» بعض الوثائق السرية التي قصد إخفاؤها على غير أصحابها، وأن ذيوعها قبل الأوان يعرض اليهود في العالم لشر النكبات، وهب اليهود في كل مكان يعلنون أن **البروتوكولات** ليست من عملهم، مزيفة عليهم، ولكن العالم لم يصدق مزاعم اليهود للاتفاقات الواضحة بين خطة **البروتوكولات** والأحداث الجارية في العالم يومئذ. وهذه الاتفاقات لا يمكن أن تحدث مصادفة لمصلحة اليهود وحدهم، وهي أدلة بيِّنة أو قرائن أكيدة لا سبيل إلى إنكارها أو الشك فيها، فانصرف الناس عن مزاعم اليهود، وآمنوا إيماناً وثيقاً بأن **البروتوكولات** من عملهم، فانتشرت هي، كما انتشرت تراجمها . . . وانتشرت معها المذابح

والاضطهادات ضد اليهود في كل أنحاء روسيا، حتى لقد قُتل منهم في إحدى المذابح عشرة آلاف".

والكاتب هنا "يخرِّف"، ولتلاحظ التناقض: فبعد أن قال إن كل من ترجمها لقي حتفه وكل من نشرها دُمِّر، ها هو ذا يعود فيتحدث عن انتشارها وشيوعها. ثم ما هذه المذابح التي يشير إليها؟ أين وقعت؟ وكيف؟ ومتى؟ ولمَ؟ وحتى لو حدثت مثل هذه المذابح فهل سببها ببساطة محاولة إنكار **البروتوكولات**؟ ولعله يشير إلى بعض المذابح ضد اليهود وغيرهم من أعضاء الشعوب التي كانت تضمها الإمبراطورية الروسية والتي وقعت في نهاية الحكم القيصري. إذا كان الأمر كذلك، فإن لها أسباباً أكثر عمقاً، مثل تعثر التحديث في روسيا وإخفاق الاقتصاد الجديد في استيعاب أعضاء الأقليات، ومن بينهم أعضاء الجماعات اليهودية، الذين كانت تتزايد أعدادهم إذ حدث بينهم انفجار سكاني. ومن المعروف أن تلك المذابح لم تدبَّر ضد اليهود وحسب وإنما دبرت أيضاً، وبالدرجة الأولى، ضد شعوب الخانات التركية الإسلامية (التي تم ضمها إلى روسيا من خلال الغزو والفتح وتوطين الروس البيض). وبالتالي فإن حديث الأستاذ التونسي عن المذابح ضد اليهود، وضد اليهود وحدهم، دون ذكر للأسباب ودون وضعها في سياقها، هو نفس ما يقوم به الصهاينة. وكان الأجدر به أن يضع المذابح في سياقها التاريخي ويذكر ما لحق بالشعوب الإسلامية من مذابح حتى لا يحتكر المأساة لليهود وحسب، كما يفعل الصهاينة حينما يحتكرون المأساة لليهود ثم يستخدمونها لتبرير المشروع الصهيوني ولضرب كل من يتصدى لهم.

نص روسي

يدَّعي مروجو **البروتوكولات** أنها وثيقة سرية تحتوي على مقررات مؤتمر حكماء صهيون. وهو ادعاء لا يحتمل أي دراسة أو تمحيص، فمن الواضح أن **البروتوكولات** نص روسي غير يهودي بمعنى أن من كتبه ينتمي إلى التشكيل الحضاري الروسي وإلى الكنيسة الأرثوذكسية، كما ينتمي سياسياً إلى التشكيل

السياسي الرجعي القيصري، الذي كان قد بدأ في التراجع تحت تصاعد الحركات الديمقراطية والليبرالية والثورية، ويمكن التدليل على كل هذا من خلال تحليل النص ذاته.

ابتداءً كُتب النص الأصلي باللغة الروسية، وهذا الأمر في حد ذاته يثير الشك والريبة في مدى صحة نسبته لحكماء صهيون. لأنه إذا كان حكيم حكماء صهيون قد دوَّن خطبته لمؤتمر حكماء صهيون وأراد أن يحتفظ بها كوثيقة سرية، فلِمَ كتبها بالروسية؟ لماذا لَمْ يكتبها باللغة الأرامية، التي كان يجيدها كثير من الحاَخامات آنذاك، وربما لم يكن يعرفها إلا حفنة من المتخصصين غير اليهود في أوربا بأسرها؟ وإن تعذرت الكتابة بالأرامية، فلماذا لَمْ يكتبها باليديشية، لغة الغالبية الساحقة ليهود شرق أوربا آنذاك؟ واليديشية رطانة ألمانية دخلت عليها كلمات عبرية وسلافية وتُكتب بحروف عبرية. وهي لغة لم تكن معروفة للبيروقراطية الروسية آنذاك، ولمعظم الروس، وكان هذا أحد الأسباب التي أدت إلى تفاقم المسألة اليهودية لأن أغلبية المجتمع الروسي وأجهزته الإدارية المختلفة لم يمكنها أن تفهم مشاكل أعضاء الجماعة اليهودية وكيفية حلها. وبسبب جهل المجتمع الروسي (والبولندي) باليديشية أصبحت لغة الغش التجاري، لأنها كانت تعطي الفرصة لصغار التجار اليهود أن يغشوا زبائنهم، ولذا قامت كثير من الدول الغربية بتحريم استخدامها في المعاملات التجارية. وكان هناك برنامج "للترويس"، أي صبغ أعضاء الجماعة اليهودية بالصبغة الروسية لدمجهم في المجتمع الروسي، وكان هذا البرنامج يتضمن تعليمهم اللغة الروسية، وقد لقي هذا البرنامج مقاومة من قبَل الحاخامات والجماهير اليهودية. فهل يُعقل بعد هذا أن يكتب الحاخامات وثيَقة سرية بالروسية؟

ويلجأ كاتب الوثيقة الروسي إلى تشويه سمعة أعدائه بأن يبين علاقتهم باليهود، فيصور بنجامين درزائيلي، رئيس وزراء بريطانيا، على أنه شخصية يهودية شريرة، وأنه جزء من المخطط اليهودي للهيمنة على العالم، وهذا يعود إلى أنه كان مكروهاً من النخبة الحاكمة في روسيا، لأنه كان يساند الدولة العثمانية حتى تظل

حاجزاً منيعاً ضد توسُّع الإمبراطورية الروسية. كما يهاجم بشراسة الكنيسة الكاثوليكية والحركة اليسوعية مما يشي بنزعته المسيحية الأرثوذكسية السلافية.

و **البروتوكولات** وثيقة مشوشة ساذجة، تفتقر إلى ترابط الأفكار. ومع هذا، فلنحاول التوصل إلى بعض الأفكار الأساسية فيها من خلال عمليتي تفكيك وإعادة تركيب. ويمكننا القول إن هجوم **البروتوكولات** على الماسونية يبيِّن مدى سذاجة النبرة وتشوش الأفكار، كما يشير إلى أصولها الروسية القيصرية. ومن المعروف أن الماسونية حركة متعدِّدة الاتجاهات والتوجهات، فقد كانت محافظة إيمانية في إنجلترا، إنقلابية إلحادية في فرنسا، رجعية عنصرية في ألمانيا، إذ كانت تمنع دخول اليهود في صفوفها. ويوجد محفل ماسوني كونفوشي إسلامي في الصين، وهكذا. وكانت الحركة الماسونية في أواخر القرن التاسع عشر مرتبطة بالحركات الديمقراطية والثورية في روسيا القيصرية. ولذا قام كاتب **البروتوكولات** بربطها بحكماء صهيون، حتى تنفر الجماهير الروسية منها. ولذا تُختتم البروتوكولات بالعبارة المسرحية التالية التي لها أصداء ماسونية: "وقَّعه ممثلو صهيون من الدرجة الثالثة والثلاثين" (ص٢٨٢)، ولكن لا توجد قائمة بأسماء حكماء صهيون من الموقعين على هذه الوثيقة السرية، وهذا أمر مفهوم، فالوثائق السرية لا يوقعها أحد، خاصةً إذا كانوا مائتين. ولكن إذا كان ذلك كذلك، فلماذا هذه العبارة المسرحية الغامضة؟

وتخبرنا **البروتوكولات** أن حكماء صهيون، الدهاة العتاة، والذين لا تعرف قوتهم حدوداً أو سدوداً أو قيوداً، والذي يؤكد كبيرهم أن "الخنازير من الأمميين" لا يفهمون ولا يرتابون في مقاصدهم سيقومون بتوظيف الماسونية، فهي الأخرى تود إقامة حكومة عالمية. ولذا فحكماء صهيون سيستخدمون المحافل الماسونية "كقناع لأغراضنا" (٤/ ١٧٢). هذه المحافل تبدو ماسونية، ولكنها في واقع الأمر جزء من المؤامرة اليهودية العالمية، وقد فعل حكماء صهيون ذلك "ذراً للرماد في العيون" (١١/ ٢٠٩).

وحكماء صهيون الذين يتحكمون في كل شيء ببراعة بالغة سيمنعون تأليف

....

أية جماعة سرية جديدة [كم عدد الجمعيات السرية التي تألفت في العالم بعد ذلك التاريخ؟]، "أما الجماعات السرية الموجودة في الوقت الحاضر (ونحن نعرفها، والتي تخدم، وقد خدمت، أغراضنا) فإننا سنحلها وننفي أعضاءها إلى جهات نائية من العالم [هل تحقَّق ذلك، أم على العكس انتشرت المنظمات السرية بمختلف توجهاتها؟]. وبهذا الأسلوب نفسه ستتصرف مع كل واحد من الماسونيين الأحرار الأمميين (غير اليهود) الذين يعرفون أكثر من الحد المناسب لسلامتنا. أما الماسونيون الذين ربما نعفو عنهم لسبب أو لغيره سنبقيهم في خوف دائم من المنفى. وسنصدر قانوناً يقضي على كل الأعضاء السابقين في الجمعيات السِّرية بالنفي من أوربا حيث سيقوم مركز حكومتنا". [هل هذا يعني أن الحكومة لن تكون في فلسطين؟]. و "ستكون قرارات حكومتنا نهائية، ولن يكون لأحد الحق في المعارضة" (١٥/ ٢٢٧). (وكيف يكون ذلك؟).

ولكن بطش اليهود لا يعرف حدوداً "فيزداد كاتب **البروتوكولات** سخونة ويقول: "سنقدم الماسونيين الأحرار إلى الموت بأسلوب لا يستطيع معه أحد - إلا الأخوة - أن يرتاب" فيه، بل إن الضحايا أنفسهم أيضاً لن يرتابوا فيه، فهم جميعاً "سيموتون - حين يكون ذلك ضرورياً - موتاً طبيعياً في الظاهر. حتى الأخوة - وهم عارفون بكل الحقائق - لن يجرءوا على الاحتجاج عليها" (١٥/ ٢٣٤).

وكاتب **البروتوكولات** جاهل بأمور التاريخ، فهو يؤكد أن حكماء صهيون قد تمكَّنوا من القيام بالثورة الفرنسية من خلال المحافل الماسونية لتخريب فرنسا والعالم، وهو يفعل ذلك ليُنفِّر الجماهير من الحركات الثورية ولينشر الشكوك حول الفكر الثوري والحركات الثورية. ومن الواضح أنه لا يعرف شيئاً عن أثر الثورة الفرنسية على يهود فرنسا والعالم. فمن المعروف أنه بعد اندلاع الثورة الفرنسية مَنحت الثورة أعضاء الجماعات اليهودية كل حقوق المواطنين، وحاولت دمجهم في المجتمع عن طريق فتح المدارس لأبنائهم، وتشجيعهم على التخلي عن تميزهم الوظيفي. ودمج أعضاء الجماعات اليهودية في مجتمعاتهم يقوِّض أساس الصهيونية التي تذهب إلى أن اليهود لا يمكنهم الاندماج في مجتمعاتهم، ومن ثَمَّ يجب نقلهم إلى فلسطين لتأسيس الدولة الصهيونية. كما أنه إن اندمج أعضاء

الجماعات اليهودية في مجتمعاتهم فإنهم سيدينون بالولاء لها مما يعطلهم عن تأسيس الحكومة العالمية إياها.

واستمر نابليون في نفس الاتجاه، فأصدر بعد ذلك قراراته الخاصة بتنظيم علاقة اليهودية بالدولة الفرنسية. ففي عام ١٨٠٨، أصدر مرسومين تم بمقتضى الأول إقامة لجان من الحاخامات والرجال العاديين للإشراف على الشئون اليهودية تحت إشراف مجلس كنسي مركزي. وكان من مهام هذه المجالس أن ترعى معابد اليهود وغيرها من المؤسسات الدينية، وتنفذ قوانين التجنيد وتشجع اليهود على تغيير المهن التي يشتغلون بها. أما المرسوم الثاني، فقد اعترف باليهودية ديناً، كما ألغى (أو أنقص أو أجل) الديون اليهودية المستحقة للمرابين. وأصبح الحاخامات مندوبين للدولة مهمتهم تعليم أعضاء الجماعات اليهودية تعاليم دينهم وتلقينهم الولاء للدولة وأن الخدمة العسكرية واجب مقدّس. وكان على الحاخامات توجيه أعضاء الجماعات اليهودية إلى الوظائف النافعة[1]. وقد اعترفت الحكومة الفرنسية باليهود بوصفهم أقلية، وأصبح لهم كيان رسمي داخل الدولة، فحصلوا على حقوقهم ومُنحوا شرف الجندية ولم يعد يُسمح لهم بدفع بدل نقدي، وشُجعوا على الاشتغال بالزراعة. وحرّم نابليون على اليهود الإشكناز الاشتغال بالتجارة دون الحصول على رخصة بذلك، ولم تكن الرخصة تُجدَّد إلا بعد التأكد من مدى إحساس التاجر اليهودي بالمسئولية الأخلاقية. كما طُلب إلى أعضاء الجماعات اليهودية أن يتخذوا أسماء أعلام وأسماء أسر دائمة على الطريقة الغربية. ورغم أن الأدبيات اليهودية والصهيونية تطلق على هذه القرارات اسم «القرار المشين»، فقد أدت بالفعل إلى دمج اليهود في المجتمع الفرنسي، وفي نهاية الأمر صهرهم تماماً، حتى أن فرنسا كان يُطلق عليها عبارة "البلد الذي يأكل اليهود"[2]. فهل أدخل هذا الغبطة والسرور على قلب حكيم حكماء صهيون فراح يتباهى بأن الثورة الفرنسية ثورة يهودية ماسونية؟

---

(1) Raphael Mahler, **A History of Modern Jews 1780-1815** (London: Valentine, Mitchell, 1971), pp. 65-66.

(2) **Ibid**, pp. 70-72.

يربط كاتب **البروتوكولات** (المُدافع عن القيصرية الروسية المتداعية) بين كل الأفكار التقدمية والثورية والحديثة التي يكرهها من جهة والمؤامرة اليهودية من جهة أخرى، فيشير إلى أن قوة اليهود لا تعرف حداً، فهم لن يهيمنوا على المجتمعات وحسب عن طريق الصحافة والإعلام وقوة المال بل سيسيطرون كذلك على عالم الأفكار. ولهذا السبب اخترع حكماء صهيون، على حد قوله، أفكاراً مثل الحرية والإخاء والمساواة ليألبوا الشعوب على ملوكهم. وهذا القول بالغ السذاجة، فأفكار الحرية والإخاء والمساواة قديمة قدَم البشرية نفسها وبشّرت بها جميع الأديان السماوية، وفي مقدمتها الإسلامَ، قبل كتابة **البروتوكولات** بعشرات القرون.

كما يذكر حكيم حكماء صهيون أنهم ابتكروا أفكاراً مثل الذاتية (أي الفردية) ليدمروا الحياة الأسرية بين غير اليهود. ولكن يبدو أن نجاحهم قد فاق الوصف والحدود ولذا اكتسحت الفردية أعضاء الجماعات اليهودية أنفسهم (فمعدلات الطلاق بينهم في الولايات المتحدة لا تختلف كثيراً عن معدلاتها بين بقية أعضاء المجتمع، وهي تزيد على معدلاتها بين الصينيين والهنود والمسلمين، فيبدو أن الفردية التي اخترعها حكماء صهيون قد ارتدت إلى نحرهم). ومن ضمن فوائد الفردية أيضاً أن "العامة" سينظرون إلى الملوك نظرتهم إلى أبناء الفناء "العاديين"، فالمؤلف الحقيقي **للبروتوكولات** يؤمن إيماناً جازماً بقدسية الملوك وأزليتهم! (١٥/ ١٧٥).

وفي مجال التحكُّم في العقول والأفئدة والأفكار والأسرار يذهب حكماء صهيون إلى أنهم هم الذين أسسوا العلوم الجديدة مثل الاقتصاد السياسي. "إن علم الاقتصاد السياسي قد محصه علماؤنا" (٥/ ١٧٧)، وهو علم يبرهن على أن قوة رأس المال أعظم من مكانة التاج [مع أن علم الاقتصادَ السياسي لدى الاشتراكيين يبيِّن أنْ رأس المال هو أكبر قوة مدمِّرَة للمجتمعات]. وعلم الاقتصاد هو الموضوع الرئيسي الذي يمتلك اليهود ناصيته. كما طوَّر حكماء صَهيون علم الأحوال الاجتماعية [لعله يقصد علِم الاجتماع] ولن يسلموا أسراره للأميين. (هل

ثمة أسرار لعلم الاجتماع؟ وهل أسَّسه بالفعل اليهود؟). وتصل هذه الادعاءات إلى قمة (أو هوة) السخافة في الادعاء التالي: "نجاح داروين وماركس ونيتشه رتبناه من قبل والأثر الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي غير اليهودي سيكون واضحاً لنا على التأكيد" (٢/ ١٦٧). ولكن داروين ونيتشه (ومنْ قبلهما ماكيافللي) لم يكونوا يهوداً، أما ماركس فكان ابناً ليهودي متنصرٍ، وكان هو ملحداً لا يؤمن بأي دين.

وقد نُشرت **البروتوكولات** عام ١٩٠٥، وهو العام الذي شهد هزيمة روسيا على يد اليابان، وقد سبق هذا تصاعد الحركات الثورية المطالبة بتحديث اقتصاد روسيا ونظامها السياسي، فكانت المطالبة بالاقتصاد الحر والدستور والانتخابات الديمقراطية تتزايد مما أدى إلى زعزعة النظام الإقطاعي والقيصري بأسره. وقد اضطرت الدولة القيصرية إلى الخضوع للضغوط المتزايدة، فأُعلن الدستور. هذه الاتجاهات الديمقراطية لم ترق لكاتب **البروتوكولات** بطبيعة الحال وهو المدافع عن النظام القيصري المستبد وعن الأرستقراطية الطبيعية الوراثية وعن الكنيسة الأرثوذكسية التي كانت تساند هذا الاستبداد، ولذا بيَّن العلاقة الواضحة (له على الأقل) بين الليبرالية والديمقراطية والدستور والاقتصاد الحر من جهة وحكماء صهيون من جهة أخرى.

وحكماء صهيون يدركون بطبيعة الحال مزايا النظام الملكي المطلق بالنسبة لعامة الناس، فهو نظام الحكم الأمثل الذي يؤدي إلى إصلاح المجتمع: "إن الناس حينما كانوا ينظرون إلى ملوكهم نظرتهم إلى إرادة الإله كانوا يخضعون في هدوء لاستبدادهم" (٥/ ١٧٥). وبذلك ساد السلام الاجتماعي "وبغير الاستبداد المطلق لا يمكن أن تقوم حضارة، لأن الحضارة لا يمكن أن تروج وتزدهر إلا تحت رعاية الحاكم كائناً مَنْ كان"، لا من أيدي الجماهير (١/ ١٥٤).

وهناك نوعان من الحرية - حسب رؤية حكيم حكماء صهيون - الأولى "مؤسسة على العقيدة وخشية الإله، حرية نقية من أفكار المساواة التي هي مناقضة مباشرة لقوانين الخلق.. فالناس المحكومون بمثل هذا الإيمان [وبمثل هذا النوع] من الحرية

سيكونون موضوعين تحت حماية كنائسهم وسيعيشون في هدوء واطمئنان وثقة تحت إرشاد أئمتهم الروحيين، وسيخضعون لمشيئة الإله على الأرض" (٤/ ١٧٢). لكل هذا سيحاول حكماء صهيون أن ينتزعوا فكرة الإله ذاتها من عقول الناس (٤/ ١٧٣) حتى تنتشر مفاهيم الحرية والمساواة فلا يخضع الناس للملك القدسي أو للأرستقراطية الطبيعية أو الكنيسة التي تساند استبدادهما.

ولنفس السبب سيقوم حكماء صهيون المخرِّبون المدمِّرون بنشر الأفكار الديمقراطية "فأوحينا للعامة بفكرة حقوقهم الذاتية، لأنه إن أعطي الشعب الحكم الذاتي فترة ولو وجيزة، فإن مثل هذا الشعب يصير رعاعاً غير قادرين على التمييز" (١/ ١٧٤). وسيدافع حكماء صهيون عن "فكرة الحرية المرتبطة بالمساواة" لأنها تزج بالمجتمع في نزاع مع كل القوى حتى قوة الطبيعة وقوة الإله (٣/ ١٧١). وهذا يعود إلى "إنه لا مساواة في الطبيعة، وأن الطبيعة قد خلقت أنماطاً غير متساوية في العقل والشخصية والأخلاق والطاقة وكذلك في مطاوعة قوانين الطبيعة" (١/ ١٥٧). ولذا فـفكرة المساواة لا يمكن أن تتحقق "وما منْ أحد يستطيع أن يستعمل فكرة الحرية استعمالاً سديداً" (٤/ ١٧٤). كما أنهم سينشرون فكرة الحرية "التي ستمنح التجار قوة سياسية"، بحيث يمكنهم "ظلم الجماهير بانتهاز الفرص" (٥/ ١٧٨).

وقد تسبَّبت أفكار الحرية والمساواة والإخاء التي أشاعها حكماء صهيون في إسقاط "المسحة المقدسة" عن الملوك (٥/ ١٧٥). كما أن هذه الأفكار قد دفعت إلى صفوفنا فرقاً كاملة من زوايا العالم الأربع عن طريق وكلائنا المغفلين، وقد حملت هذه الفرق ألويتنا في نشوة، بينما كانت هذه الكلمات مثل كثير من الديدان تلتهم سعادة المسيحيين، وتحطم سلامهم واستقرارهم ووحدتهم، مدمرة بذلك أسس الدول" (١/ ١٥١).

"فالجمهور بربري، وتصرفاته في كل مناسبة على هذا النحو. فما أن يضمن الرعاع الحرية، حتى يمسخوها سريعاً فوضى، والفوضى في ذاتها قمة البربرية" (١/ ١٥٤). والحرية المرتبطة بالمساواة هي "رمز القوة الوحشية الذي يمسخ الشعب

حيـوانات متـعطشـة إلى الدمـاء. ولـكن يجب أن نركّز في عقـولنا على أن هذه الحيوانات تستغرق في النوم حينما تشبع من الدم . . . وهذه الحيوانات إن لم تُعطَ الدم فلن تنام، بل سيقاتل بعضها بعضاً" (٣/ ١٧١).

كما "أن الجمهور الغرير الغبي، ومن ارتفعوا من بينه، ينغمسون في خلافات حزبية تعوق كل إمكان للاتفاق" (١/ ١٥٠). ويتساءل حكيم حكماء صهيون: "ماذا كبح الوحوش المفترسة التي نسميها الناس عن الافتراس؟ وماذا حكمها حتى الآن؟". وهنا يقرِّر حكيم الحكماء أن يعطينا فلسفته في التاريخ. لقد خضع الناس (الرعاع ـ الوحوش) في الطور الأول من الحياة الاجتماعية للقوة الوحشية العمياء، ثم خضعوا للقانون، ولكن "ما القانون في الحقيقة إلا هذه القوة ذاتها مقنعة وحسب. وهذا يتأدى بنا إلى تقرير أن قانون الطبيعة هو: الحق يكمن في القوة" (١/ ١٤٧). "وخيـر النتـائج في حكم العـالم مـا يُنتـزع بالعنف والإرهاب" (١/ ١٤٦).

ولأن الشعوب بربرية وحشية حيوانية نشر حكماء صهيون فكرة الحرية المرتبطة بالمساواة، فتغيَّرت نُظُم الحكم وسقط المستبد العادل. ولكن بعد نشر الحرية بين الرعاع كيف سيمكن قمعهم، وكيف سيمكن تسخير الحيوانات التي لا تنتشي إلا بالدم؟ (١/ ١٤٧). حكيم الحكماء عنده الحل، في عبارات تنم عن بلاهة كاتب **البروتوكولات** وعن إخفاقه في التحكُّم في نبرة خطابه:

"بعد أن نستحوذ على السلطة سنمحق كلمة الحرية من معجم الإنسانية" (٣/ ١٧١). كما سيلجأ حكماء صهيون لمؤامرة أخرى؛ فحكيم حكمائهم يؤمن بأن "الحرية السياسية ليست حقيقة بل فكرة، ويجب أن يعرف الإنسان كيف يسخرِّ هذه الفكرة عندما تكون ضرورية" (١/ ١٤٧). "فكلمة الحرية ـ كما يقول ـ يمكن أن تُفسَّر بوجوه شتى سنحدِّدها هكذا: "الحرية هي حق كل ما يسمح به القانون" ـ "ولكن تعريف الكلمة على هذا النحو سينفعنا" لأن "حكماء صهيون هم الذين يتحكمون في القانون" ولذا "لن يسمح القانون إلا بما نرغب نحن فيه" (١٢/ ٢١٠). (وكيف سيكون ذلك؟).

وهنا لابد من التساؤل إن كان هناك أي دور لليهود في الثورات التحررية التي شهدها العالم، فهل كان لهم ضلع مثلاً في ثورة العبيد بزعامة سبارتاكوس في روما القديمة أو ثورة الزنج في البصرة؟ ثم ماذا عن الثورات التي قامت في بلدان لا يوجد فيها يهود على الإطلاق أو لا يوجد عددٌ يُذكر منهم، مثل الثورة الصينيّة والثورة الكوبية والثورة الجزائرية وغيرها؟ وهل تم فعلاً "مَحْق كلمة الحرية من مُعجم الإنسانية"، أم تصاعد تطلع الشعوب إلى نيل حريتها حتى أصبح يُطلق على القرن العشرين اسم «عصر تحرّر الشعوب»؟ وهل كان نضال شعوب العالم في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية من أجل الاستقلال والتحرُّر، ومن بينها بالطبع شعبنا العربي، عملاً من أعمال "الحيوانات المتعطشة للدماء" دبَّره "المتآمرون اليهود"؟

والنظام الإقطاعي ذاته لابد أن يسقط وفقاً لرؤية **البروتوكولات**، فالأرستقرطيون الإقطاعيون "قد عضدوا الناس وحموهم لأجل منفعتهم" (٣/ ١٦٦)، وهم "من حيث أنهم مُلاك أراضٍ لا يزالون خطراً علينا (أي اليهود)، لأن معيشتهم المستقلة مضمونة لهم بمواردهم. ولذلك يجب علينا وجوباً أن نجرد الأرستقراطيين من أراضيهم بكل الأثمان (٥/ ٨٢). وأفضل الطرق لبلوغ هذا الغرض هو تسليط الرعاع عليهم (٣/ ١٦٦)، ثم "فرض الأجور والضرائب. إن هذه الطرق ستبقى منافع الأرض في أحط مستوى ممكن. وسرعان ما سينهار الأرستقراطيون من الأمميين" (٥/ ١٨٢)، وستتمكن من "سحق الأرستقراطية غير اليهودية التي كانت الحماية الوحيدة للبلاد ضدنا" (١/ ١٥٩).

وبعد تحطيم النظام الملكي والإقطاعي سيقيم حكماء صهيون على "أطلال الأرستقراطية الطبيعة والوراثية، أرستقراطية جديدة على أساس الثروة وعلى أساس العلم الذي يروجه علماء اليهود" (١/ ١٥٩). "وفي الوقت نفسه يجب أن نفرض كل سيطرة ممكنة على الصناعة والتجارة وعلى المضاربة بخاصة فإن الدور الرئيسي لها أن تعملَ كمعادل للصناعة. وبدون المضاربة ستزيد الصناعة رؤوس الأموال الخاصة. وستتجه إلى إنهاض الزراعة بتحرير الأرض من الديون والرهون العقارية التي تقدمها البنوك الزراعية. وضروري أن تستنزف الصناعة من الأرض

كل خيراتها وأن تحول المضاربات كل ثروة العالم المستفادة على هذا النحو إلى أيدينا " (٦/ ١٨٢).

وحكماء صهيون يحدّثون الاقتصاد لأن المجتمع الصناعي الرأسمالي يتسم بالصراع من أجل التفوق. والمضاربة في عالم الأعمال ستخلق "مجتمعاً أنانياً غليظ القلب منحل الأخلاق. وستكون شهوة الذهب رائده الوحيد. وسيكافح هذا المجتمع من أجل الذهب متخذاً اللذات المادية التي يستطيع أن يمده بها " (٤/ ١٧٣).

والاقتصاد العالمي بكل أشكاله، اشتراكياً كان أم رأسمالياً، إنما هو لعبة في يد اليهود. فبعد أن ظهر أن اليهود يتحكمون في رؤوس الأموال والذهب والمضاربات، اتضح أنهم أيضاً دعاة الاشتراكية ومخربو النظام الرأسمالي. فقد جاء في البروتوكول الثالث: "إننا نقصد أن نظهر كما لو كنا المحررين للعمال، جئنا لنحررهم من هذا الظلم، حينما ننصحهم بأن يلتحقوا بطبقات جيوشنا من الاشتراكيين والفوضويين والشيوعيين. ونحن على الدوام نتبنى الشيوعية ونحتضنها متظاهرين بأننا نساعد العمال طوعاً لمبدأ الأخوة والمصلحة العامة للإنسانية، وهذا ما تبشّر به الماسونية الاجتماعية " (٣/ ١٦٦). ويستمر حكماء صهيون في استغلال الاشتراكية، ولذا يقول كبيرهم: "كي نخرب صناعة الأغيار، سنزيد من أجور العمال ونعرض الصناعة للخراب والعمال للفوضى " (٦/ ١٨٣). كما سيلجأون إلى خليط من الرأسمالية الاحتكارية والفوضوية: "سنبدأ سريعاً بتنظيم احتكارات عظيمة - هي صهاريج للثروة الضخمة - لتستغرق خلالها دائماً الثروات الواسعة للأمميين (غير اليهود) إلى حد أنها ستهبط جميعها وتهبط معها الثقة بحكومتها يوم تقع الأزمة السياسية. وعلى الاقتصاديين الحاضرين بينكم اليوم هنا أن يقدّروا أهمية هذه الخطة " (٦/ ١٨١).

وسيواكب التحديث الاقتصادي تحديثٌ سياسيٌّ، ولذا سيحرّض اليهود الجمهور على المطالبة بإعلان الدستور لأن "الدستور كما تعلمون ليس أكثر من مدرسة للفتن والاختلافات والمشاحنات والهيجانات الحزبية العقيمة، وهو بإيجاز

مدرسة كل شيء يضعف نفوذ الحكومة (الملكية)". وهكذا يتم "قيام نظام جمهوري". ولكن هذه ليست نهاية المطاف، إذ سيقوم اليهود بوضع شخص مكان الملك المقدس هو مجرد «ضحكة» شخص من "الدهماء" من بين "مخلوقات اليهود وعبيدهم" (١٠/ ٢٠٠-٢٠١). (في أي سوق للنخاسة يشتري اليهود هؤلاء العبيد؟ ولماذا لم تنجح هذه القوى الخارقة في القضاء على نُظُم الحُكم المَلكية التي لا تزال قائمة إلى يومنا هذا؟).

والمحصلة النهائية لعملية التحديث هذه هي الهيمنة الكاملة على جميع حكومات الأرض، بما في ذلك الحكومات التي تقف (ظاهرياً) ضد المؤامرة اليهودية الكونية. "وحينئذ نكون قد دمرنا في حقيقة الأمر كل القوى الحاكمة إلا قوتنا، وإن تكن هذه القوى الحاكمة نظرياً ما تزال قائمة. وحين تقف حكومة من الحكومات نفسها موقف المعارضة لنا في الوقت الحاضر فإنما ذلك أمر صوري، متخذ بكامل معرفتنا ورضانا" (٩/ ١٩٠). وهكذا يتحكم اليهود فيمن يقف معهم وفيمن يقف ضدهم. فمَنْ يعارضهم، يفعل ذلك كجزء من مسرحية كتبوها هم بأيديهم. والمطلوب من القرّاء تصديق كل ذلك دون تساؤل ودون أن تُكلّف **البروتوكولات** خاطرها بتزويدنا ببعض القرائن والأدلة والبراهين! وكأن **البروتوكولات** هي كلام الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

البروتوكولات كعريضة اتهام

تُروِّج **بروتوكولات حكماء صهيون** باعتبارها المخطط الذي وضعه حكماء صهيون لإفساد العباد والهيمنة على العالم. وهذه أول أكذوبة. **فالبروتوكولات** ليست مخططاً أو قرارات وإنما هي خطاب حكيم حكماء صهيون الموجه إلى بقية الحكماء. وقد لجأ كاتب **البروتوكولات** لهذه الحيلة حتى يعطي وثيقته درجة من المصداقية، لذا جعل حكيم حكماء صهيون (لا أحد سواه) يتحدث عن الخطر اليهودي وعن قوة اليهود المطلقة ومقدرتهم على التحكم في كل شيء، حتى يبدو الأمر كله وكأنه "شهد شاهد من أهلها"، غير أنه لم يكن على درجة كبيرة من

الذكاء في عملية تزييفه هذه. وكما بيّنا في الجزء السابق أن عملية الترقيع التي كان يقوم بها مضحكة، فهو يود أن يبيِّن مزايا الملكية الاستبدادية، فيعدد مناقبها، ثم يجعل حكماء صهيون يدمرونها ويبينون مثالب الحرية المبنية على المساواة، ثم يقلب الأمور مرةً أخرى ويجعلهم قادرين على محق الحرية من المعجم أو إعادة تعريفها بطريقة تخدم مصالحهم.

إن **البروتوكولات** من اللحظة الأولى تتحول من خطاب إلى عريضة اتهام، ففي الصفحة الأولى من البروتوكول الأول ينطق حكيم حكماء صهيون بالكلمات التالية: "لقد بذرنا الخلاف. . . بنشر التعصبات الدينية والقبلية خلال عشرين قرناً" (٥/ ١٧٦). ثم ينسب كاتب **البروتوكولات** إلى حكيم حكماء صهيون الكلمات التالية:

"إن الأمميين (غير اليهود) كقطيع من الغنم، وأننا الذئاب. فهل تعلمون ما تفعل الغنم حينما تنفذ الذئاب إلى الحظيرة؟ إنها لتغمض عيونها عن كل شيء. وإلى هذا المصير سيُدفعون، فسنعدهم بأننا سنعيد إليهم حرياتهم بعد التخلص من أعداء العالم، واضطرار كل الطوائف إلى الخضوع. ولست في حاجة ملحة إلى أن أخبركم إلى متى سيطول بهم الانتظار حتى ترجع إليهم حرياتهم الضائعة" (١١/ ٢٠٩).

كل من درس فن تحليل الخطاب والنصوص عادةً ما يَطرح السؤال التالي: مَنْ المخاطِب ومَنْ المخاطَب؟ وهو أمر يصعب تحديده في حالة **البروتوكولات**. فهي تسوَّق باعتبارها مخططاً عاماً يشرحه حكيم حكماء صهيون لبقية الحكماء، ولكنها في ذات الوقت عريضة اتهام موجهة للذات، مما يجعلنا نتساءل: إذا كان المخاطبون حقاً هم حكماء صهيون، فلماذا يُصر كبيرهم على أن يُخبرهم عما أنجزوه بالفعل وهو معروف لديهم؟ ولماذا يخبرهم أن "أسرار تنظيم الثورة الفرنسية معروفة لنا جيداً لأنها من صنع أيدينا، ونحن من ذلك الحين نقود الأمم قدماً من فشل إلى فشل، حتى أنهم سوف يتبرأون منا" (٣/ ١٦٩). مَنْ يمكن أن يصف حركته بأنها حركة لقيادة الأمم من "فشل إلى فشل"، ويصر على أن هذه الحركة ستودي بهم؟

وإن كان يعرف ذلك، فلماذا لا يضع مخططاً رهيباً آخر لا يودي بهم؟ أليس اليهود هم المتحكمون في كل الأمور؟ ومَنْ يمكنه أن يقول: "إن لنا طموحاً لا يُحدّ، وشرّهاً لا يُشبع، ونقمة لا تَرحم، وبغضاء لا تُحس. إننا مصدر إرهاب بعيد المدى. وإننا نُسخّر في خدمتنا أناساً من جميع المذاهب والأحزاب" (٩/ ١٩١)، ثم يتطوع بالتأكيد على ما يلي: "لقد خدعنا الجيل الناشيء من الأمميّين، وجعلناه فاسداً متعفناً بما علمناه من مبادئ" (٩/ ١٩٤). من الواضح أن نبرة الخطاب قد أفلتت من الكاتب الأبله، فأخذ يكيل الشتائم لليهود على لسان حكيم حكماء صهيون، ثم أضاف في لحظة سخونة أنسته من المخاطب ومن المخاطَب كلماته البلهاء عن النبوءة الخاصة بأن العالم سيتبرأ "منا"، أي منَ اليهود!

ولماذا يُصر حكيم حكماء صهيون أن يبيِّن لحكماء صهيون أن السياسة لا تخضع للأخلاق، وأن اليهود سينفذون مخططهم الإرهابي عن طريق الغش والخداع. "إن الغاية تبرِّر الوسيلة، وعلينا (ونحن نضع خططنا) ألا نلتفت إلى ما هو خيِّر وأخلاقي بقدر ما نلتفت إلى ما هو ضروري ومفيد" (١/ ١٥٢)؟ ولماذا يخبرهم في خطابه السري أنهم سيقومون بتقويض النظام الإقطاعي والملكي ودعائم الأسرة وصلات القرابة، وبإشاعة الإباحية، واستغلال الحريات العامة، وتخريب المؤسسات المسيحية، وإفساد أخلاق العالم المسيحي الأوربي، وسيسعون إلى تقويض كيان الدول عن طريق الإيقاع بينها بحيث تندلع الحروب، على ألا تؤدي هذه الحروب إلى تعديلات في حدود الدول أو إلى مكاسب إقليمية، ليتمكن رأس المال فقط من الخروج بالغنائم؟ لماذا يصر على أن يذكِّرهُم بأنهم سيركزون على المنافسة في المجتمع، وعلى تصعيد الصراع الطبقي، ليجري الجميع نحو الذهب الذي يحتكره اليهود، وبذلك يسود رأس المال كل شيء؟ لماذا يصر حكيم حكماء صهيون على نقل كل هذه الآراء لحكماء صهيون وعلى تلخيص بعض المنطلقات البدهية المتداولة بين الأشرار (خاصةً اليهود منهم) في كل زمان ومكان؟ أليس كل حكماء صهيون من الأشرار الذين لا شُبهة في شرهم؟ أم أن كبيرهم لاحظ أن بعض علامات الخير قد بدأت تظهر عليهم فانزعج وسارع بتحذيرهم وتذكيرهم بالشر المتأصل في أرواحهم والمفطور في نفوسهم؟ إن كاتب **البروتوكولات** مزيف

غبي، لم يتمكن من السيطرة على نبرة خطابه فجاءت ساذجة غير محددة المعالم، ومن السهل أن نخمِّن أن كاتبها روسي معادٍ للثورة ينسج الأفكار والأقوال ثم ينسبها لليهود.

ولكن كاتب **البروتوكولات** لم يدرك أنه بالغ في تضخيم شر اليهود، ومن ثَمَّ بالغ في تضخيم قوتهم حتى أصبحوا كأنهم آلهة. فلنستمع لبعض كلماته:

"وإنني أستطيع في ثقة أن أصرح اليوم بأننا أصحاب التشريع، وأننا المتسلطون في الحكم، والمقرون للعقوبات، وأننا نقضي بإعدام من نشاء ونعفو عمن نشاء، ونحن ـ كما هو واقع ـ أولو الأمر الأعلون في كل الجيوش، الراكبون رؤوسها، ونحن نحكم بالقوة القاهرة، لأنه لا تزال في أيدينا الفلول التي كانت الحزب القوي من قبل، وهي الآن خاضعة لسلطاننا" (٩/ ١٩). كما يقول: "نحن أقوياء جداً، فعلى العالم أن يعتمد علينا وينيب إلينا والحكومات لا يمكنها أن تبرم أية معاهدة ولو صغيرة دون أن نتدخل فيها سراً" (٥/ ١٧٦ ـ ١٧٧).

ويُلاحَظ هنا أن هذه العبارات تُضفي على اليهود صفات الإله المتحكِّم في كل شيء القادر على كل شيء، الذي يعزُّ من يشاء ويُذلُّ من يشاء. فهل يُعقل أن نصدِّق أن هناك من البشر العاديين من يتسمون بصفات الله عز وجل حتى لو ادَّعى حكيم حكماء صهيون ذلك؟ ألا يتناقض هذا مع فكرة الإيمان بالله نفسها؟

ويشير حكيم حكماء صهيون إلى "وكلائنا الدوليين ذوي ملايين العيون الذين يملكون وسائل غير محددة على الإطلاق" (٢/ ١٦٠). والصورة المجازية هنا لا تختلف عن صورة الإله فشنو المجازية ذي الأذرع المائة، والتي وردت في **البروتوكولات** (والتي سنناقشها فيما بعد). وتصل قمة التحكم والسطوة (وبلاهة النبرة) في العبارات التالية: "وسنختار من بين العامة رؤساء إداريين ممن لهم ميول العبيد، ولن يكونوا مدربين على فن الحكم، ولذلك سيكون من اليسير أن يمسخوا قطع شطرنج ضمن لعبتنا في أيدي مستشارينا العلماء الحكماء الذين دربوا خصيصاً على حكم العالم منذ الطفولة الباكرة" (٢/ ١٦٠ ـ ١٦١).

ويمكن أن يعهد حكماء صهيون بأمور الدولة لا للعبيد وحسب، وإنما للمجرمين إذ يمكن تسييرهم والهيمنة عليهم هم أيضاً. جاء في البروتوكول الثامن: "وما دام ملء المناصب الحكومية بإخواننا اليهود في أثناء ذلك غير مأمون بعد - فسوف نعهد بهذه المناصب الخطيرة إلى القوم الذين ساءت صحائفهم وأخلاقهم كي تقف مخازيهم فاصلاً بين الأمة وبينهم. وكذلك سوف نعهد بهذه المناصب الخطيرة إلى القوم الذين إذا عصوا أوامرنا توقعوا المحاكمة والسجن. والغرض من كل هذا أنهم سيدافعون عن مصالحنا حتى النَفَس الأخير الذي تنفث صدورهم به" (٨/ ١٨٨ - ١٨٩).

أما الموظفون اليهود الذين سيعينهم حكماء صهيون فلن يكونوا مثل الموظفين غير اليهود "الذين اعتادوا أن يتحملوا أعباء أعمالهم الإدارية دون أن يتدبروا بعقولهم النتائج التي يجب أن ينجزوها، ودون أن يعرفوا الهدف من وراء هذه النتائج. إن الإداريين من غير اليهود يؤشرون على الأوراق من غير أن يقرءوها، ويعملون لمصلحة المال أو الرفعة لا للمصلحة الواجبة" (٨/ ١٨٨). وهكذا أطبق الفك اليهودي المفترس على كل النظم الإدارية في العالم! وإن قابلت موظفاً (في أية وزارة في أي مكان في العالم) يؤشر على الأوراق دون أن يقرءها، فاعلم أن اليهود هم المسئولون عن ذلك. وإن طلب منك موظف "إكرامية" أو "سبوبة" فلتدرك أن هذا جزء لا يتجزأ من المخطط اليهودي المستمر لتأسيس الحكومة العالمية!

واليهود، حسب رؤية **البروتوكولات**، يسيطرون على الصحافة وعلى دور النشر وعلى سائر وسائل الإعلام، "لقد سقطت الصحافة في أيدينا ومن خلالها أحرزنا نفوذاً وبقينا نحن وراء الستار" (٢/ ١٦٢) حتى لا يتسرب إلى الرأي العام العالمي إلا ما يريدونه. كما يسيطرون على الدول الاستعمارية حتى يمكن تسخيرها لصالحهم وحسب أهوائهم. وهم يسيطرون، بطبيعة الحال، على الدول الاشتراكية المعادية للاستعمار. باختصار **البروتوكولات** تجعل اليهود مسئولين عن كل شيء؛ عن الخير والشر، وعن الثورة والثورة المضادة، وعن الاشتراكية والرأسمالية، أي أنها ترفعهم إلى مصاف الآلهة (أو الشياطين) القادرة على أي شيء وكل شيء.

ويواصل الكاتب ببلاهة عرض مخططه في مجال النشر وينسبه لحكيم صهيون فيقول: "سنفرض على الكُتب التي تقل عن ثلاثمائة صفحة مضاعفة في ثقلها ضعفين. وإن الكُتب القصيرة سنعتبرها نشرات لكي نق الدوريات التي تكون أعظم سموم النشر فتكاً" (١٢/ ٢١٣). فهل سمع أ بلد في كوكبنا، أو الكواكب الأخرى، فُرضت فيه هذه الضريبة المضحكة؟ و عدد الدوريات فعلاً، أم تزايد وتوسعت وتنوعت صنوف المطبوعات؟

وينتقل الكاتب في موضع آخر إلى الحديث عما ينوي حكماء صهيون في مجال التعليم، فيقول مثلاً إنهم سيحذفون من مناهج الدراسة "كل القانون المدني، مثله في ذلك مثل أي موضوع سياسي آخر، ولن يُختار لتع العلوم إلا رجال قليل من بين المدرَّبين لمواهبهم الممتازة. ولن يُسمح للجامع تُخرِّج للعالم فتياناً خضر الشباب ذوي أفكار عن الإصلاحات الدستورية ا (١٦/ ٢٤٣). وبالإضافة إلى ذلك "ستتقدم بدراسة مشكلات المستقبل ب الكلاسيكيات" (١٦/ ٢٤٤)، كما "سنمحو كل أنواع التعليم الخ (١٦/ ٢٤٥). فهل نجحت «المؤامرة اليهودية» المزعومة في تنفيذ أيٍّ المخططات؟ هل اختفت مثلاً أقسام وكليات القانون من جامعات العالم تلاشت الجامعات والمدارس الخاصة؟ وهل كفَّ الطلاب عن دراسة الكلاسي وكيف تخدم دراسة مشكلات المستقبل مصلحة اليهود دون سواهم؟

ومن أكبر الأدلة على تفاهة **البروتوكولات** واختلاط نبرتها أن حكيم صهيون فصَّل عريضة الاتهامات وأفشى سر خطته ومقاصدها ولكنه لم خاطره أن يبلِّغ بقية الحكماء بآليات تحويل المؤامرة إلى حقيقة، فهو لم يخ على سبيل المثال، كيف تم ترتيب نجاح ماركس (المرتد عن اليهودية) ونيتشه و (وهما غير يهوديين)؟ وكيف تم اتخاذ الترتيبات اللازمة للقيام بالثورة الف والثورات الأخرى؟ لماذا يركز حكيم الحكماء على شرور الطبيعة البشرية ا لدى بقية حكماء صهيون، ولا يذكر لهم شيئاً عن آليات إفسادها؟ أليس الم هو تدريبهم على ارتكاب الجرائم؟ وإذا كان حكماء صهيون يتحكمون

العلوم والعمليات والآليات الاجتماعية، فكيف حدث التآكل الذي أصاب الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة حيث وصلت نسبة الزواج المختلط أكثر من ٥٠٪، وتراجع عدد المواليد، وأحجم الشباب عن الزواج بحيث يتنبأ علماء الديموجرافيا اليهودية أنه مع عام ٢٠٢٠ لن يزيد عدد يهود الولايات المتحدة على مليونين؟. ورغم كل هذه البلاهات، لا يزال البعض يروِّج **للبروتوكولات** باعتبارها وثيقة عظيمة الشأن عميقة المغزى خطيرة الفحوى والهدف.

أسباب شيوع البروتوكولات

إذا كانت **البروتوكولات** بهذه البلاهة فلماذا أحرزت هذا الشيوع في الغرب ثم مؤخراً في عالمنا العربي؟ يجب أن نشير ابتداءً إلى أن رؤية الكون المسيحية تجعل من اليهودي قاتل الرب، وبالتالي فهو رمز للشر. ولكن مثل هذه الرؤية لا تتسبب في حد ذاتها في شيوع مثل هذه الوثيقة. وفي تصوري أن إحساس الإنسان الأوربي في أواخر القرن التاسع عشر بأزمته، وإدراكه السطحي المباشر لها بعد تزايد معدلات العلمنة والتصنيع في الغرب، ومع هيمنة القيم الداروينية والرأسمالية الجشعة، وبعد تفكك المجتمع التقليدي الذي كان يوفر له قدراً كبيراً من الطمأنينة، حتى وإن سلبه حريته وفرصه في الحراك الاقتصادي، أقول إن هذا الإدراك السطحي هو الذي جعل الجماهير في الغرب تتبنى نموذجاً تفسيرياً بسيطاً اختزالياً يفسِّر كل ما يدور حولها ببساطة شديدة. فالمجتمع الذي يحاول اليهود فرضه على العالم، والذي تصوره **البروتوكولات**، ليس عالماً شريراً بشكل شيطاني ميتافيزيقي، وإنما هو في الواقع العالم الغربي الصناعي في القرن التاسع عشر، عالم سادت فيه القيم العلمانية الشاملة بتأكيدها على قيم مثل المنفعة واللذة، وبدأت تحل فيه علاقات التعاقد محل علاقات التراحم، ومن هنا كان الجمع بين الرأسمالية والاشتراكية باعتبارهما نظامين يبشر بهما اليهود، فكلاهما ثورة على المجتمع التقليدي بكل ما فيه من خير وشر. ومن هنا أيضاً الجمع بين نتيشه وماركس فكلاهما فيلسوف مادي يرفض المجتمعات التقليدية. فبرغم الاختلافات العميقة بين الرأسمالية والاشتراكية وبين نيتشه وماركس وداروين، فإن العامل المشترك الأعظم (أو نقطة البدء أو

التلاقي) بين هذه الأفكار والنُّظُم المتناقضة. إنها كلها تعبير عن زحف المجتمع الحديث على المجتمع التقليدي الذي بدأ بالثورة الفرنسية ووصل قمته في الثورة البلشفية.

شعر الإنسان الغربي باغترابه عما حوله وإخفاقه في السيطرة عليه، وكان الريف يقذف بالملايين في المدن الصناعية الجديدة التي كانت تُبنى بسرعة ولا يتوافر فيها الحد الأدنى من الشروط اللازمة للحياة الإنسانية الكريمة، وكانت مدناً ملوثة، لا توجد فيها أية مؤسسات تساعد الإنسان على تحمُّل ما يواجهه من مشقة وبؤس. ولم تكن أوربا قد عرفت بعد دولة الرفاه التي خفَّفت قليلاً من بؤس الإنسان الغربي ووفَّرت له بعض المؤسسات التي تعوِّضه عما فَقَده من إحساس بالأمن في أحضان المجتمع التقليدي.

وجد الإنسان الغربي العادي نفسه في وسط هذا الزلزال، ولم يجد له تفسيراً، ولكنه لاحظ وجود اليهود في مختلف القطاعات والاتجاهات، فكانت هناك أعداد كبيرة من كبار المموِّلين الرأسماليين اليهود، كما كان كثير من أعضاء الجماعات اليهودية يشتغلون بالتجارة الصغيرة والربا، وكان من بينهم عدد كبير من المفكرين الليبراليين بل والرجعيين الذين يدافعون عن حرية التجارة وعن أكثر الأفكار الداروينية الاجتماعية تطرفاً. بل ونجد أن بعض اليهود ارتبطوا بالتجارب الاستعمارية الغربية غير الصهيونية كما حدث في جنوب أفريقيا (في صناعة التعدين)، أو في شركة الهند الشرقية الهولندية، أو في شركة قناة بنما. كما تركز أعضاء الجماعات اليهودية بأعداد كبيرة في قطاعات اقتصادية مشينة مثل البغاء (قوادين وعاهرات) ونشر المجلات والمطبوعات الإباحية. فربط الوجدان الشعبي بين اليهود من جهة و«اليمين» و«الجشع الرأسمالي» و«الانحلال الأخلاقي الليبرالي» من جهةٍ أخرى.

ولكن، إلى جانب ذلك، كانت هناك أعداد كبيرة من أعضاء الجماعات اليهودية في حركة اليسار أيضاً: فقد كان حزب البوند اليهودي من أكبر الأحزاب الاشتراكية في أوربا. وقد انخرط الشباب اليهودي بأعداد كبيرة في الحركات

الثورية، حتى أن ٣٠٪ من أعضاء الحركات الثورية في روسيا القيصرية كانوا من الشباب اليهودي. وحينما قامت جمهورية بلشفية في المجر عام ١٩١٩، كان رئيس الدولة يهوديًا، وكان عدد اليهود من الوزراء كبيراً لدرجة مدهشة، وكانت هناك أعداد كبيرة من المفكرين الاشتراكيين والشيوعيين من أصل يهودي. كما كان لليهود حضور واضح في الفكر الفوضوي. فربط الوجدان الشعبي بين اليهود من جهة، و«اليسار» و«الثورة الاشتراكية» من جهة أخرى. وفي نهاية الأمر، كان هناك روتشيلد رمزاً للارتباط العضوي بين اليهود والرأسمالية، وكان هناك ماركس رمزاً للارتباط العضوي أيضاً بين اليهود والاشتراكية.

وقد شهدت نهاية القرن التاسع عشر عصر الهجرة اليهودية الكبرى، ولذا كان هناك يهود في كل مكان، يهود لا جذور لهم في طريقهم من شرق أوربا إلى الولايات المتحدة. وكما هو معروف، فإن الإنسان المهاجر المتنقل لا يلتزم بكثير من القيم. فصورة اليهودي لم تكن متألقة أو إيجابية. (وعلى كلٍّ فإن الصورة النمطية لليهودي في العقل الغربي صورة سلبية للغاية، فهو تارةً اليهودي التائه وتارةً أخرى شيلوك، ويصبح أحياناً مثل دراكيولا مصاص الدماء).

وبإدراكه السطحي للأمور بدأ الإنسان الغربي يبحث عن سبب واضح مباشر، وحيث أنه تصوَّر أن اليهود كتلة واحدة متماسكة، وحيث إن اليهودي هو قاتل الرب وهو الشحاذ الذي يتسول والثري الذي يحتكر الأسواق والثوري الذي يقلب نظام الحكم والحاخام الذي يتمسك بشعائر دينه والقواد الذي يصطاد الفتيات ويقودهن للدعارة وهو شيلوك ودراكيولا كان من الطبيعي أن يصبح رمزاً متعيناً لعملية انقلابية بنيوية ضخمة سببت البؤس والشقاء له، ولكنه لم يدرك أسبابها أو عمقها أو شمولها أو تركيبيتها. وجاءت **البروتوكولات** وزودته بهذا النموذج التفسيري البسيط، فأراحته وهدأت من روعه وضللته وأخفت عنه الأسباب الحقيقية المؤدية لاغترابه وشقائه.

ولكن هل يمكن أن يكون اليهود وراء كل هذه التحولات؟ وهل يمكن أن يكونوا هم المسئولين عنها، أم أنها تحولات بنيوية مركبة تمت لعدة أسباب؟ هل يمكن

تفسير ظهور الرأسمالية والاشتراكية والليبرالية والثورة الفرنسية والبلشفية بأنها من فعل اليهود، وكأنها ليست ظواهر اجتماعية استغرق ظهور بعضها مئات السنين وأدى مركب من الأسباب المتداخلة إلى تشكلها على هذا النحو؟ ثم يمكننا أن نسأل: ألم تظهر الرأسمالية والاشتراكية والليبرالية في بلاد لا يوجد فيها يهود مثل الصين واليابان وإندونيسيا وكوريا وغيرها؟ ألم تظهر الإباحية في تايلاند (حيث يقال إن أهم القطاعات الاقتصادية هو قطاع البغاء) دون وجود لليهود؟

أما في العالم العربي فإن انتشار **البروتوكولات** يعود للأسباب التالية:

١ ـ ظهر «اليهودي» في العصر الحديث على شاشة الوعي العربي والإسلامي داخل التشكيل الإمبريالي الغربي، وجاء إلى بلادنا ممثلاً له حاملاً لواءه وعميلاً له. وقد قامت هذه الإمبريالية بغرسه غرساً وسطنا داخل إطار الدولة الوظيفية ليقوم على خدمة مصالحها بعد أن اقتطعت جزءاً من الوطن العربي الإسلامي، يقع في وسطه تماماً ومن ثَمَّ يقسمه قسمين، وهي منطقة لها دلالة دينية خاصة، إذ تضم القدس والمسجد الأقصى.

٢ ـ حينما دخل المستعمر بلادنا عام ١٨٨٢ ووصل المستوطنون الصهاينة إلى فلسطين وكنا نسميهم «العصابات الصهيونية» و«إسرائيل المزعومة» و«شذاذ الآفاق». وإذا بهذه العصابات والشراذم تؤسِّس دولة على أرض فلسطين الطاهرة وتأخذ في التوسُّع وتلحق بنا الهزائم. وقد فشلنا في تفسير هذه الهزائم.

٣ ـ قامت الدولة الصهيونية باعتبارها تعبيراً عن مشروع استيطاني إحلالي فعليه أن يلجأ إلى الحد الأقصى من العنف ليتخلص من السكان الأصليين، بما في ذلك الإبادة والطرد والعزل. وقد سمت هذه الدولة نفسها «الدولة اليهودية» فربطت بين اليهودي والعنف والإرهاب.

٤ ـ الأسوأ من ذلك أن هذه الدولة ادَّعت أنها تتحدث باسم كل يهود العالم أينما كانوا، ومن ثَمَّ فهي تتحدث باسم يهود البلاد العربية، بل تطالب بالتعويضات

باسمهم، فكأن الدولة الصهيونية تنكر أن أعضاء الجماعات اليهودية مواطنين في بلادهم، وتدعم الصورة الإدراكية العرْقية أن اليهودي لا انتماء له وأنه يدافع عن مصالحه اليهودية وحسب وأن كل اليهود صهاينة. وحيث إن العرب لا يعرفون سوى الصهاينة فإنهم يقبلون هذا الترادف الذي تدعيه إسرائيل بين اليهودية والصهيونية وبين اليهود والصهاينة فيتحدثون عن "عدائهم لليهود واليهودية"، وهم في واقع الأمر يتحدثون عن "عدائهم للصهاينة والصهيونية".

٥ - قامت الإمبريالية الغربية بتحويل يهود البلاد العربية إلى عنصر وظيفي استيطاني يدين لها بالولاء. وشهدت الجماهير العربية أعضاء الجماعات اليهودية وهم ينسلخون تدريجياً من التشكيل الحضاري العربي والإسلامي. فعلى سبيل المثال أصبح كل يهود الجزائر مواطنين فرنسيين، واستفاد يهود مصر من الامتيازات الأجنبية وحصلت نسبة كبيرة منهم على الجنسيات الأجنبية. وقد دعَّم هذا من صورة اليهودي كأجنبي وغريب ومغتصب ومتآمر وعميل، وشخص لا انتماء له يبحث عن مصلحته اليهودية.

٦ - من الملاحَظ أن أعضاء الجماعات اليهودية في العالم العربي يوجدون بشكل واضح في الحركات الشيوعية العربية (شأنهم في هذا شأن أعضاء الأقليات في كثير من المجتمعات). كما لوحظ أن عدداً كبيراً من الرأسماليين ممن راكموا ثروات ضخمة هم أيضاً من أعضاء الجماعات اليهودية. ولعل وجود أعضاء الجماعات اليهودية في كل من الحركات الشيوعية والطبقة الرأسمالية قد دعَّم صورة اليهودي اللامنتمي أو المنتمي لمصالحه اليهودية، ودعَّم فكرة المؤامرة اليهودية.

٧ - من الأمور التي رسَّخت فكرة المؤامرة والهيمنة اليهودية على العالم في الوجدان العربي، الدعم الغربي للتجمّع الصهيوني بغير تحفُّظ أو شروط أو حدود أو قيود. وهو دعم سياسي واقتصادي وعسكري. وكثير من العرب يفترضون أن العالم الغربي عالم عقلاني، تُتخذ فيه القرارات بشكل رشيد يخدم مصالح

الدولة، وأنه عالم ديمقراطي تنتشر فيه مُثُل العدل والمساواة وحقوق الإنسان، ولذا حين يقوم الغرب العقلاني الديمقراطي بتأييد ودعم مشروع غير عقلاني، غير ديمقراطي يستند إلى ديباجات غير عقلانية، غير ديمقراطية، استبعادية عنصرية، ويتسم بضيق الأفق وينكر على الفلسطينيين أبسط حقوقهم، فإن هذا أمر غير مفهوم ويصعب تفسيره.

٨ ـ تقوم الولايات المتحدة بالتهديد بضرب العراق لأنه لم ينفذ قراراً واحداً من قرارات هيئة الأمم، وتقرر حشد قواتها والهجوم عليه حتى تمنعه من تطوير أسلحة الدمار الشامل. ولكنها في الوقت ذاته تساند الدولة الصهيونية التي ترفض تنفيذ عشرات القرارات التي أصدرتها هيئة الأمم، وتمتلك حوالي مائتي قنبلة نووية وتهدِّد باستخدامها. وهذا موقف متناقض إلى حد الشيزوفرنيا ويستحيل تفسيره.

٩ ـ يتحدث العالم الغربي عن فصل الدين عن الدولة ولكنه في ذات الوقت يدعم الدولة اليهودية بأساطيرها التوراتية والتلمودية. ويتحدث عن دعمه لها انطلاقاً من التراث اليهودي ـ المسيحي وعن مشروعية عودة اليهود إلى فلسطين باعتبارها أرض أجدادهم بعد غياب عدة آلاف السنين (وذلك في الوقت الذي ينكر هذا الحق على الفلسطينيين) استناداً إلى الوعد الإلهي الذي مُنح لليهود أو الذاكرة التاريخية اليهودية أو ما شابه من أسباب ذاتية ما أنزل الله بها من سلطان.

١٠ ـ اهتمام الغرب المحموم بالإبادة النازية لليهود (التي مضى عليها ما يزيد على خمسين عاماً) والإصرار على الاستمرار في تعويض الضحايا وتقديم الاعتذار لهم والتعبير عن الندم عما بَدَر من الألمان وغيرهم قد يكون أمراً محموداً في حد ذاته (فهو في نهاية الأمر تعويض لفئة من ضحايا الحضارة الغربية) إلا أن هذه الظاهرة المحمودة في حد ذاتها تثير الشك حين يلاحظ المواطن العربي والمسلم أن سلسلة كاملة من المذابح قد ارتكبت منذ الخمسينيات حتى منتصف التسعينيات (الجزائر ـ ڤيتنام ـ البوسنة ـ الشيشان) معظمها في العالم الإسلامي وتم التزام الصمت تجاهها ولم يتحدث أحد عن تعويض أو اعتذار أو توبة أو ندم! هذا في

الوقت الذي تستمر الآلة الإعلامية الغربية في التركيز على الهولوكوست دون غيرها.

١١ - الزعم الغربي بأن فلسطين في الشرق العربي قُدِّمت لليهود تعويضاً لهم عما حدث لهم في ألمانيا، في العالم الغربي، هو أمر يصعُب فهمه.

كل هذه الظواهر تثير التساؤلات في نفوس الناس ويعجزون عن تفسيرها، وبما أنه لا وقت عندهم للبحث والاستقصاء، تظهر الإجابات الاختزالية السهلة، وصيغة المؤامرة اليهودية، صيغة تملك مقدرة هائلة على سد الهوة التي تفصل عقلانية الرؤية الغربية عن لاعقلانية الممارسة الغربية. وما لم يخطر ببال هؤلاء أن عقلانية الغرب ودفاعه عن حقوق الإنسان ليسا مطلقين وأنهما لا ينصرفان لحقوق الإنسان العربي أو المسلم على سبيل المثال. وأن العقلانية تدور في إطار المصالح الإستراتيجية الغربية، التي تم تحديدها بطريقة ليست بالضرورة عقلانية وإنما من خلال مقولات قَبْلية متمركزة حول الغرب، معظمها عنصري.

هذه هي بعض الأسباب التي أدَّت إلى هيمنة الرؤية التآمرية على إدراكنا لليهود في العالم العربي وإلى ذيوع **البروتوكولات** وغير ذلك من كتابات عنصرية تهدف إلى تفسير الواقع بشكل سريع سهل وإلى تفريغ شحنة الغضب عند كثير من العرب وإلى تبرير هزيمتنا أمام أنفسنا بأن ننسب لعدونا قوة خارقة وسيطرة لا حدود لها. ولكن التفسيرات الاختزالية السهلة وتفريغ شحنة الغضب أمور مختلفة عن التفسير العقلاني المركَّب، والمطلوب هو أن نفهم أسباب الغضب وأن نفسِّر الظاهرة الصهيونية ونحاول استثمار فهمنا وإدراكنا في إطار مشروع نضالي إنساني يهدف إلى تصفية الجيب الاستيطاني الصهيوني ولا يسقط في العنصرية العمياء.

المخطط الاستراتيجي والمؤامرة

رغم كل التحفظات السابقة، لا يمكن أن ننكر وجود مؤامرات، ولكن مثل هذه المؤامرات لا يمكن فهمها إلا في إطار مخطط، والمخطط هو جزء من توجه

استراتيجي عام يمكن فهمه وتحليله وإدراك أبعاده، فهو يعبِّر عن نفسه من خلال أنماط متكررة، ولهذا يمكن التصدي له. أما المؤامرة فهي خطة سرية يحيكها بعض الأفراد في غرفة مغلقة ثم يضعون نصوصها في كتاب سري صغير يقومون على تنفيذه. ولنضرب مثلاً بالمخطط الاستراتيجي العام للاستعمار الغربي منذ منتصف القرن التاسع عشر وهو تحويل العالم إلى مادة استعمالية توظَّف لصالح العالم الغربي. وقد عبَّر هذا المخطط الاستراتيجي العام عن نفسه في العالمين العربي والإسلامي من خلال خطة تقسيمه لإضعافه، فهو ككتلة متماسكة أو شبه متماسكة من الصعب استغلاله وتسخيره لصالح الغرب طالما ظل متماسكاً. وفي إطار هذا المخطط تم ضرب تجربة محمد علي التحديثية وإن تمت الضربة بشكل علني، وانطلاقاً من نفس المخطط تم توقيع اتفاقية سايكس بيكو لتقسيم العالم العربي بشكل سري. وفي نفس الإطار يمكن أن نصنِّف حرب ١٩٤٨ باعتبارها جزءاً من الاستراتيجية الصهيونية العامة، ولكنها تمت بشكل علني، بينما نجد أن حرب عام ١٩٥٦ تمت بشكل تآمري، فقد تم الترتيب لها سراً بين دول العدوان الثلاثي فادعوا أن الحرب كانت للدفاع عن قناة السويس.

وفي المقابل يمكن التساؤل: هل كانت حرب ١٩٧٣ مؤامرة من جانبنا، أم مفاجأة عسكرية يمكن فهمها تماماً في إطار نمط متكرر ومخطط معروف وهو أن الشعوب التي تُحتل أراضيها تتحين الفرص فتهب ضد المستعمرين الغزاة؟ وقل نفس الشيء عن علاقة الولايات المتحدة بأمريكا اللاتينية، فهي علاقة هيمنة صريحة تعبِّر عن نفسها في العقيدة الأمنية الأمريكية ويتم ترجمتها إلى واقع من خلال فرض حصار اقتصادي على كوبا ممتد عشرات السنين بشكل علني، وإسقاط نظام الليندي المُنتخَب ديمقراطياً في شيلي وإحلال الجزار بينوشيه محله بشكل تآمري. والجيب الصهيوني لا يشكل استثناء، فهو يقوم بالعدوان الصريح الواضح ويحيك المذابح الصريحة الواضحة، ولكنه يلجأ أيضاً إلى التآمر داخل المخطط الاستراتيجي العام. فالكل والغاية هو المخطط الواضح الصريح، والمؤامرة هي الجزء والوسيلة.

ولعل من أهم المؤامرات الصهيونية ما يسمّى «المستعربين» أو «المستعرفيم» (بالعبرية)، وهي وحدات عسكرية سرية صهيونية كانت تعمل في فلسطين والبلاد العربية المجاورة منذ عام ١٩٤٢، وكان هدف هذه الوحدات، التي كانت آنئذ جزءاً من البالماخ، الحصول على معلومات وأخبار، والقيام بعمليات اغتيال للعرب من خلال تسلُّل أفرادها إلى المدن والقرى العربية متخفين كعرب محليين. وكانت وحدات «المستعرفيم» تجنِّد في المقام الأول، من أجل عملياتها السرية، اليهود الذين كانوا في الأصل من البلاد العربية. واعترف شيمون سوميخ، الذي كان قائداً في المستعرفيم خلال السنوات ١٩٤٢-١٩٤٩، بأن الاغتيال كان جزءاً من عمل الوحدات السرية المبكرة.

وقد تم بعث فرق المستعرفيم عام ١٩٨٨ لمواجهة الانتفاضة وكانت تنقسم إلى قسمين: «الدُّفْدُفان» (الكراز) وقد أسسها إيهود باراك (رئيس حزب العمل ورئيس الأركان الأسبق، ورئيس الوزراء الأسبق)، والأخرى تعمل في غزة واسمها السري «شمشون». وهدف فرق المستعرفيم هو التسلُّل إلى الأوساط الفلسطينية النشيطة في الضفة والقطاع، والعمل على إبطال نشاطها أو تصفيتها. وعادةً ما يستقل أعضاء هذه الفرق سيارات غير عسكرية تحمل اللوحات الخاصة بالضفة الغربية أو قطاع غزة ويرتدون ملابس مدنية صنعت محلياً أو ألبسة عربية تقليدية. وقد يرتدي الجنود الشعر الاصطناعي والعكازات المزيفة والثياب الفضفاضة لإخفاء الأسلحة (كانت الأزياء التنكرية في بداية الأمر تشمل التنكر كصحافيين أجانب إلى أن قدَّمت جمعية الصحافة الأجنبية احتجاجاً رسمياً). وعادةً ما يجيد أحد أعضاء الوحدة الخاصة اللغة العربية. وتقوم وحدات المستعرفيم بالتنسيق والتخطيط مع وحدات أخرى من الجيش ومع جهاز الشين بيت الذي يوفر المعلومات والخلفيات في شأن الضحية المقصودة. ويتم دعم هذه الوحدة من أعلى درجات المؤسسة العسكرية الإسرائيلية.

هذا ولا شك شكل من أشكال التآمر والمكر والخديعة، ولكنه فى ذات الوقت

جزء من المواجهة العامة مع الجيب الصهيوني، وهذه هي إحدى أدواته التي يجب أن ندرسها جيداً ونتصدى لها، كما فعل المتنفضون مع اثنين من المستعربين فأسروهما وقضوا عليهما.

وحينما ننظر إلى المؤامرة داخل المخطط العام، نكون قد وضعناها داخل نمط متكرر فيمكننا فهمها وفهم التوجه العام الذي يتحكم فيها ومن ثَمَّ يمكننا التصدي لها.

الفصل الثاني
البروتوكولات واليهودية والعنف

من الأدلة الأخرى على أن الوثيقة روسية، وأن صاحبها نسبها إلى اليهود، أن كاتبها لا يعرف شيئاً عن العقيدة اليهودية، أن لم يُشر مرةً واحدة إلى أيٍّ من الطقوس أو الأعياد اليهودية ولم يستخدم كلمة عبرية أو أرامية أو يديشية واحدة، كما أنه لم يشر إلى العهد القديم أو التلمود أو كتب الزوهار والباهير (وهي من كتب القبَّالاه)، وهي كتب تحتوي على ما هو أسوأ من **البروتوكولات** بمراحل. ولو كان كاتب الوثيقة هو حكيم حكماء صهيون لاكتفى بالإشارة لهذه الكتب التي يعرفها حكماء صهيون حق المعرفة، ويؤمنون بما جاء فيها.

كتب اليهود المقدسة

جاء في العهد القديم، على سبيل المثال لا الحصر، أوامر بإبادة سكان أرض كنعان وطردهم. "وإن أبت [مدينة] الصُّلح وحاربتكم فحاصرها، فإذا أسقطها الرب إلهكم في أيديكم فاقتلوا جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة من أسلاب، فاغتنموها لأنفسكم، وتمتعوا بغنائم أعدائكم التي وهبها الرب إلهكم لكم. هكذا تفعل بكل المدن النائية عنكم التي ليست من مدن الأمم هنا. أما مدن الشعوب التي يهبها الرب إلهكم لكم ميراثاً فلا تستبقوا فيها نسمة حية، بل دمِّروها عن بكرة أبيها" (تثنية ٢٠/ ١٣ ـ ١٧).

كما جاء في سفر يشوع ما يلي:

"فهتف الشعب، ونفخ الكهنة في الأبواق. وكان هتاف الشعب لدى سماعهم

صوت نفخ الأبواق عظيماً، فانهار السور في موضعه، فاندفع الشعب نحو المدينة كلٌّ واحد في وجهته، واستولوا عليها ودمَّروا المدينة وقضوا بحد السيف على كلٍّ ما فيها من رجال ونساء وأطفال وشيوخ حتى البقر والغنم والحمير. وقال يشوع للرجُلين اللذين ذهب لاستكشاف المدينة: "ادخُلا بيت المرأة الزانية وأخرجاها مع كل ما لها من هناك كما حلفتما لها". فمضى الجاسوسان إلى بيت راحاب فأخرجاها هي وأباها وأمها وإخوتها وكل ما لها، وأقرباءها، وذهبا بهم إلى مكان آمن خارج مخيم إسرائيل. ثم أحرق الإسرائيليون المدينة بالنار بكل ما فيها. أما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد فقد حفظوها في خزانة بيت الرب" (سفر يشوع ٦/ ٢٠ـ ٢٤).

التلمود والقبَّالاه

ويعض ما جاء في التلمود لا يقل بذاءة، إذ يحوي تياراً قوياً معادياً للأغيار لدرجة أن الرقابة الحكومية في بعض البلاد الغربية كانت تفرض على اليهود أحياناً أن يحذفوا بعض الفقرات التي تظهر عداءً متطرفاً للأغيار. ولذا كثيراً ما كان أعضاء الجماعات اليهودية يتبادلون فيما بينهم، دون علم السلطات، مخطوطات خاصة تضم المحذوفات التلمودية، أي تلك النصوص التي حذفتها الرقابة الحكومية، وهي مليئة بالسموم والكراهية. كما كان يعاد شرح بعض المصطلحات الجديدة التي كانت تُستخدم للتقية، مثل «بابلي»، حتى يُعرف معناها الأصلي والحقيقي وهو «مسيحي» (ويعاد في إسرائيل طبع النسخة الأصلية من التلمود دون تعديل. ولما كانت عملية الطباعة مكلفة وتستغرق وقتاً طويلاً، فقد نشروا كتاب المحذوفات التلمودية في طبعة شعبية رخيصة بعنوان **حسرونوت شاس**). وكان بإمكان حكيم حكماء صهيون أن يعطي حكماء صهيون نسخاً من هذه المحذوفات بدلاً من أن يحدثهم عن نيتشه وماكيافللي وماركس!

وكان بوسع حكيم حكماء صهيون أن يبيِّن لحكماء صهيون تفوق اليهود العِرْقي والإثني والفكري، وأنهم آلهة أو شبه آلهة دون أن يضطر إلى تلفيق عباراته

التافهة وذلك بالإشارة إلى التلمود الذي جاء فيه أن الإله اختار اليهود لأنهم اختاروه، وهي عبارة تفترض المساواة بين الإله والشعب (كان يرددها بن جوريون برضا شديد). وقد شبَّه التلمود اليهود بحبة الزيتون لأن زيت الزيتون لا يمكن خلطه مع المواد الأخرى. وكذلك جماعة يسرائيل، فإنه لا يمكن اختلاطها مع الشعوب الأخرى. ويدَّعي التلمود أن روح الإله من روح الشعب، كما أن الابن جزء من أمه، ولذا فمن يعتدي على يهودي فهو كمن يعتدي على العزة الإلهية، ومن يعادي جماعة يسرائيل أو يكرهها فإنه يعادي الإله ويكرهه.

والإله، في التلمود، متعصب بشكلٍ كامل لشعبه المختار، ولذا فهو يعبِّر عن ندمه على تركه اليهود في حالة تعاسة وشقاء حتى أنه يلطم ويبكي. ومنذ أن أمر بهدم الهيكل وهو في حالة حزن وندم، توقف عن اللعب مع التنين الذي كان يسليه، ويمضي وقتاً طويلاً من الليل يزأر كالأسد. ولكنه في آخر الأيام، بعد إقامة المجتمع اليهودي الأمثل في العصر المشيحاني، في ظل الدولة المستعادة، يجلس على العرش يقهقه لانتصار شعبه، وعبثاً يتوافد الوثنيون طالبين قبولهم. ويتبدَّى التعصب الإلهي للشعب اليهودي في أنه حينما يأتي الماشيَّح سيصبح كل الناس عبيداً لجماعة يسرائيل.

وتوجد هذه النزعة الانعزالية المتعالية الوثنية في معظم صفحات التلمود المليء بالأحكام الموجهة ضد غير اليهود (خصوصاً سفر عفوده زاره أو عبادة الأوثان)، فقد خلق الإله الأغيار على هيئة بشرية لكي يكونوا لائقين بخدمة اليهود الذين خلقت الدنيا من أجلهم، إذ ليس من الملائم أن يقوم حيوان على خدمة الأمير، وهو على صورته الحيوانية. ويتناسى التلمود الفرق بين الأخيار والأشرار من الأغيار، بل ويطلب أحياناً إلى اليهود أن يستخدموا مقياسين أخلاقيين: واحد للتعامل مع اليهود، وواحد للتعامل مع غير اليهود (انظر: بابا متسيعا ٩٥أ، وبابا قما ١١٣أ). وقد جاء في التلمود أنه لا يصح أن يباع لليهودي الشيء الذي يحتمل فساده إن ترك، ولكنه من الممكن أن يباع لغير اليهودي، كما أنه يحرِّم على الطبيب اليهودي أن يعالج مريضاً غير يهودي (إلا لدرء أذى الأغيار). وجاء كذلك في التلمود هذه العبارة المشينة: "اقطع رأس الأفعى. اقتل أفضل الأغيار" وقد اقتبست الحاخامية

العسكرية في إسرائيل هذه العبارة في إحدى كتيباتها التي وزعتها على الجنود الإسرائيليين. فكيف فات كل هذا على حكيم حكماء صهيون؟

وكتب القبَّالاه (التراث الصوفي الحلولي اليهودي) مثل الباهير والزوهار وأقوال الحاخام إسحق لوريا كانت أكثر عنصرية وبذاءة وأدَّت إلى عزلة وتعال متطرفين، فزادت عزلة اليهود عن العالمين، ولم يَعُد الاختلاف بينهم وبين الأغيار مسألة عقيدة وإنما أصبح مسألة أصول مختلفة، فأرواح اليهود مستمدة من الكيان المقدَّس في حين تَصدُر أرواح الأغيار عن المحارات الشيطانية. والخيِّرون من الأغيار هم في الواقع أجساد أغيار لها أرواح يهودية ضلت سبيلها. وإذا كان اليهود يعيشون في الظاهر بفضل الأغيار، فإن العكس في الواقع هو الصحيح، فاليهود هم وحدهم القادرون على التأثير في قنوات الرحمة التي عن طريقها سيرسل الإله رحمته إلى العالم، وهم وحدهم الذين يقفون كوسيط بين الإله والعالم، فأعمالهم الطيبة هي التي تجعل الخير يعم الجميع، وذنوبهم هي التي تأتي بغضب الإله عليهم. ويوجد في القبَّالاه أيضاً ذلك الإحساس الذي يسري في كثير من صفحات التلمود، بأن نهاية التاريخ ستشهد عُلو جماعة يسرائيل على العالمين ودمار أعدائهم من الشعوب الأخرى.

ويوجد في التراث الديني عدة كتب أخرى قبيحة مثل كتاب **هاتانيا** (دستور حركة حبد) الذي يؤكد أن الأغيار مخلوقات بهيمية شيطانية تماماً وخالية من الخير وأن ثمة اختلافاً جوهرياً بين اليهودي وغير اليهودي. ولهذا يختلف الجنين اليهودي عن الجنين غير اليهودي، ووجود الأغيار في العالم أمر عارض، فقد خُلقوا من أجل خدمة اليهود.

كل هذه الأمور لا يعرفها كاتب **البروتوكولات**، فخطابه ليس يهودياً رجعياً، أو يهودياً متعصباً، أو يهودياً مستنيراً، بل هو خطاب روسي متعصب جاهل بالأمور اليهودية، ولذا نجده لا يشير إلا مرة واحدة للملك داود (وهذا جزء من التراث المسيحي). لأن كاتب **البروتوكولات** الأبله لا يعرف شيئاً عن التراث الديني اليهودي أو عن النصوص العنصرية التي تحرِّض على العنف.

ومما يبعث على الدهشة أن نجد إشارت للإله فشنو الهندوكي: "إن الصحافة اليهودية ستكون مثل الإله الهندي فشنو لها مئات الأيدي، وكل يد ستجس نبض الرأي العام المتقلب" (١٢/٢١٦). هذه هي كلمات حكيم حكماء صهيون الذي يقول في موضع آخر: "إن حكومتنا (اليهودية العالمية) تشبه الإله الهندي فشنو وكل يد من أياديها المائة ستقبض على لولب في الجهاز الاجتماعي للدولة". ما الذي يدعو حاخاماً روسياً في أواخر القرن التاسع عشر إلى أن يشير إلى إله هندوكي، وترسانته العنصرية ثرية عامرة؟ وما هي حكاية المائة يد هذه؟

رجعت إلى بعض المعاجم الخاصة بالأديان وبحثت عن المادة الخاصة بالإله فشنو فقيل إنه يتجسَّد في أشكال كثيرة (حيوانات ضخمة - سمكة - سلحفاة - الرجل/ الأسد - قزم) ولكن أهمها هو تجسُّده السابع على هيئة كريشنا، والثامن على هيئة راما. وقد رأيت صوراً للإله فشنو وله أربعة أياد ورأيت تمثالاً له بستة أياد، ولكن لم أر أية إشارة لفشنو ذي المائة يد. فما مصدر هذه الإشارة أو الصورة المجازية. سنجد أن كتاب **حوار في الجحيم** يحل المشكلة إذ جاء ما يلي على لسان ماكيافللي: "إن صحافتي، مثل الإله فشنو، سيكون لها مائة ذراع، وهذه الأذرع ستمد يدها لكل الآراء بكل ظلالها [للهيمنة عليها وتوجيهها]". كما جاء في موضع آخر (على لسان مونتسكيو هذه المرة): "أدرك الآن معنى شكل الإله فشنو. إن لك مائة ذراع مثل المعبود الهندي، وكل إصبع من أصابعك يلمس لولباً".

مرض النصوصية

ولكن مع هذا يمكن أن نذكر التحفظات التالية:

١ - هل مثل هذه النصوص "تؤدي إلى" العنف أم أنها "تحرِّض عليه" وحسب؟ هل هي سبب العنف، أم أنها تخلق استعداداً لدى المؤمن بها لارتكاب العنف؟ وثمة فارق بين الاثنين، فالاستعداد لارتكاب العنف غير ارتكابه.

٢ - يجب أن نتذكر أن من كتبوا هذه الأقوال العنصرية التلمودية والقبَّالية وغيرها كانوا زعماء أقلية دينية مضطهدة، تريد أن تعبِّر عن كرهها وتدخل العزاء على

قلب أعضائها. وكانوا يكتبون بالأرامية، التي كانت مجهولة لأعضاء الأغلبية. ولذا استغرقوا في الأحلام اللذيذة المستحيلة، ونسجوا الأوهام حول أنفسهم من أنهم جزء من الإله وأنهم في نهاية الأيام سيسودون العالمين.

٣- هل يمكن تفسير سلوك المؤمن، كل سلوكه، بما جاء في النصوص المقدسة التي يؤمن بها؟ هل يُفسَّر سلوك الماركسي بما جاء في كتابات ماركس؟ وهل نفسِّر سلوك المسلمين بما جاء في القرآن؟ الإجابة بطبيعة الحال بالنفي. والسؤال الآن: لماذا إذن نتصور أن اليهود - كل اليهود أينما كانوا في كل زمان ومكان - يتصرفون حسبما جاء في **البروتوكولات** والتوراة والتلمود؟

٤- من المعروف أن الغالبية الساحقة لأعضاء الجماعات اليهودية تم علمنتها. نصف يهود الولايات المتحدة يهود إثنيون أو ملحدون، أي يهود لا يؤمنون باليهودية كعقيدة وإنما كمجموعة من العادات الإثنية (وحتى نقرِّب المسألة للقارئ، فليتخيل إنساناً يسمي نفسه مسلماً ويوقد فوانيس رمضان بدلاً من إقامة شعيرة الصيام). وهؤلاء اليهود الملحدون لا يقرءون بطبيعة الحال لا التلمود ولا التوراة. ويظل هناك النصف الثاني، وهؤلاء يُطلق عليهم عبارة «اليهود المتدينين». وهنا يجب الإشارة إلى أنهم يؤمنون بصيغ مخففة للغاية من اليهودية، فيهوديتهم مثلاً تبيح الشذوذ الجنسي، مع أن ما جاء في التوراة والتلمود بهذا الشأن واضح وصريح. وهؤلاء في غالبيتهم الساحقة لا يقرءون التلمود ولا يؤمنون به، أي أنه لا يقرأ التلمود أو يؤمن به سوى عدد محدود من الأرثوذكس يبلغ ١٠٪ من مجموع «المتدينين» أي ٥٪ من كل يهود الولايات المتحدة.

ويجب أن نتذكر أن التلمود كتاب طويل من ١٧ مجلداً كُتب بالأرامية وتُرجم إلى الإنجليزية وهو متن وشرح وشرح للشرح وهكذا، وهو يحوي عشرات المواضيع والمواقف والرؤى المتنوعة والمتناقضة، وقراءة مثل هذا الكتاب تتطلب وقتاً طويلاً وتدريباً خاصاً. وكُتب القبَّالاه أكثر صعوبة، بل إنها مثل الطلاسم.

٥ ـ ومما يعقِّد الأمور أنه إذا افترضنا أن النصوص المقدسة هي التي تحدد سلوك الأفراد، فما قول حَمَلة الخطاب البروتوكولي فيما يسمَّى «شرائع نوح» التي فسرها الحاخامات بأنها سبع (عبادة الأوثان ـ الهرطقة ـ سفك الدماء ـ الزنى ـ السرقة ـ أكل لحم الحيوان الحي ـ إقامة نظام قانوني لتنفيذ هذه الشرائع). هذه الشرائع ذات الطابع الإنساني العام ملزمة لليهود وغير اليهود، والذي ينفذ هذه الوصايا من غير اليهود يسمَّى «جرتو شاف» أي «مقيم غريب» وكان يُعدُّ من الأخيار. وقد وصفت بعض الكتابات اليهودية المسلمين على أنهم من النوحيين أي من غير المشركين (ثم ضُم إليهم المسيحيون فيما بعد!).

وما قولهم في سفر إشعياء حيث يعلن هذا النبي بوضوح أن للعالم كله إلهاً واحداً، الإله الحي الحقيقي الذي ستعترف به كل الأمم في النهاية، ويعود الجميع إليه، ويتوحدون فيما بينهم؟: "في ذلك اليوم يمتد طريق من مصر إلى آشور، ومن آشور إلى مصر، فيعبد المصريون والآشوريون الرب معنا. في ذلك اليوم يكون إسرائيل [يسرائيل] ثالث ثلاثة مع مصر وآشور، وبركة في وسط الأرض، فيباركهم الرب القدير قائلاً: "مبارك شعبي مصر، وصنعة يدي آشور، وميراثي إسرائيل" (سفر إشعياء١٩/ ٢٣ ـ ٢٥). كما جاء في سفر التثنية: "لا تمقتوا الأدوميين لأنهم إخوتكم، ولا تكرهوا المصريين لأنكم كنتم ضيوفاً في ديارهم، ومَنْ يُولد من ذريتهم في الجيل الثالث يدخل في جماعة الرب" (سفر تثنية ٢٣/ ٧ ـ ٨)، أي يصبح من بني إسرائيل.

وما قولهم في النبي عاموس الذي هاجم الفساد بضراوة، بل إننا نجد أن فكرة التوحيد عنده مرتبطة بالعدالة الاجتماعية؟ وثمة رفض في سفر عاموس للعبادة القربانية والأضاحي (٥/ ٢١ ـ ٢٤)، فالعبادة والطقوس والقرابين ليست إلا سخرية واستهزاء. ولذا، فإن الأخلاقيات التي بشر بها عاموس أخلاقيات أممية، وكانت تُعَدُّ جديدة على عصره، كما أنها لم تكن تمثل الروح القومية. فيهوه هو إله كل الشعوب والأمم "ألستم لي يا بني إسرائيل [يسرائيل] مثل الكوشيين يقول الرب؟ ألم أخرج إسرائيل من ديار مصر والفلسطينيين [أي الفلستينيين] من كفتور

والأراميين من قير" (٩/ ٧). فلم يكن خروج العبرانيين من مصر هو وحده الحادثة التاريخية ذات المغزى الخاص، بل خروج الشعوب الأخرى أيضاً.

وبالمثل، تزخر أسفار الأمثال والجامعة والمزامير بكثير من القيم الإنسانية والأخلاقية العامة التي تتناقض مع النصوص العنصرية التي سبقت الإشارة إليها. ومن ذلك مثلاً النهي عن سفك الدماء (الأمثال ١/ ١٠ ـ ١٩) وعن اقتراف الزنى (الأمثال ٥/ ١ ـ ١١) والحض على الأمانة (الأمثال ١١/ ١٢ ـ ١٤)، ورفض الظلم (الجامعة ٤/ ١ ٣٠١) وتفضيل الحكمة على الغنى (الجامعة ٧/ ١٠ ـ ١٤)، وإعلاء قيمة العدل والصدق (المزامير ٣٧/ ٢٧ ـ ٣٠).

أما التلمود فقد بيَّنا أنه يتضمن أفكاراً مثل الشعب المختار وضرورة العودة إلى أرض الميعاد، بل وأفكار أكثر تطرفاً تحمل الضغينة والكراهية نحو الآخرين. ولكننا نجد أيضاً عكس ذلك تماماً، فقد جاء في التلمود أن الروح القدس تستقر على الجميع، اليهودي وغير اليهودي، الرجل أو المرأة، العبد والجواري، كل امرئ "حسب أفعاله". كما جاء في جطين (٦١٦) أن أحد الحاخامات قد أوصى بإطعام فقراء الأغيار مع فقراء اليهود، "وبزيارة مرضاهم مثلما نزور مرضانا، وأن يدفن موتاهم مع موتانا حتى ندعم سبل السلام".

أما بخصوص انتماء اليهودي فقد قال الحاخام يهودا: "من يصعد من بابل إلى أرض يسرائيل، فقد انتهك إحدى الوصايا الإلهية". ويستشهد بسفر إرميا (٢٧/ ٢٢)، ثم يقول: "مثلما أنه ممنوع مغادرة أرض يسرائيل إلى بابل، فمن الممنوع أيضاً مغادرة بابل إلى غيرها من البلدان"، ثم يستطرد قائلاً: "إن من يعيش في بابل كأنه مقيم في أرض يسرائيل" (كتوبوت ١١١أ). وقد أفتى الحاخامات بأن «شريعة الدولة هي الشريعة»، بمعنى أن على اليهودي أن يتبع قوانين البلد الذي يعيش فيه. كما توجد في التلمود أيضاً أفكار متناقضة عن العصر المشيحاني، بعضها ذو نكهة صهيونية انعزالية والبعض الآخر معاد لها وله نزعة اندماجية عالمية.

وقد تقصى الدكتور أسعد زروق موقف التلمود من العرب، فوجد أنه (في

بعض نواحيه) تعبير عن نفس الانعزالية المتعالية. وقد جاء في سفر سوكاه (٥٢ب) أن الإله قد ندم على خلقه أربعة أشياء: المنفى، والكلدانيين، والإسماعيليين (أي العرب)، ونزعة الشر. ولكن التلمود ينسب إلى العرب أعمال السحر، فقد جاء في سفر سنهدرين (٦٧ب) أن عربيًا امتشق السيف وقطع به ناقة، ثم قرع جرساً فنهضت دون وجود آثار عليها. والعرب، حسبما جاء في التلمود، خبراء في الطب، وخصوصاً الطب الشعبي. ويرد في التلمود العديد من القصص الطريفة والأعاجيب عن العرب. وهناك قصص ليست في صالح راويها الحاخامي، إذ إن بعضها يدل على خبرة العرب وبراعتهم واحترامهم لموتى اليهود أكثر من احترام الحاخام لهم. وأخيراً، فقد جاء في سفر السبت (١١أ) القول التالي: "لابأس من الخضوع لحكم واحد من أبناء إسماعيل بدلاً من حكم الغريب [أي الأدومي]". وبحسب ما جاء في حاشية الشارح، فإن المقصود بذلك هو تفضيل الحكم العربي على البيزنطي، فهل هذه دعوة لليهود أن يستسلموا للعرب؟ ولماذ لم يعملوا بها ولم ينفذوها، كما ينفذون ما جاء في **بروتوكولات حكماء صهيون** أو في الأجزاء الأخرى من التلمود؟

كل هذه التناقضات يمكن حلها بأن نتجاوز السببية النصوصية البسيطة، أي التي تدَّعي أن ما جاء في النص المقدس الذي يؤمن به إنسانٌ ما هو وحده الذي يحركه. كما يمكننا أن نؤكد أهمية التفسير، فالمفسِّر هو الذي يستخلص المعنى، وهو الذي يركز على بعض المقطوعات والأفكار ويُهَمِّش البعض الآخر. وما فعله الصهاينة أنهم استولوا على اليهودية وقاموا بصهينتها وركزوا على الجوانب العنصرية فيها وعلى فكرة العودة وعلى كُره الأغيار.

الجذور الغربية الإمبريالية للعنف الصهيوني

في محاولة البعض تفسير العنف الصهيوني، فإنهم يتحدثون عن «الشخصية اليهودية» الشريرة بطبيعتها وكأن الصهاينة يبطشون بالفلسطينيين وينكلون بهم ويذبحونهم ويذبحون أطفالهم لأن يشوع بن نون قد فعل ذلك منذ آلاف السنين

(كما جاء في العهد القديم) وكأنهم ينفذون ما جاء في **البروتوكولات** وليس استجابةً للواقع الاستيطاني والمقاومة الشجاعة؟ هل كان المستوطنون الصهاينة يحتاجون إلى التلمود أو القبَّالاه أو **البروتوكولات** حتى يتعلموا التوسعية الصهيونية والعنصرية الصهيونية، أم أن هذه هي خصائص أي تجربة استيطانية، فحركيات وجودهم ككتلة سكانية غريبة استولت على الأرض وطردت سكانها هي التي تفرض عليهم هذا السلوك العنصري العدواني؟ ألم يقم المستوطنون البيض في الولايات المتحدة بإبادة السكان الأصليين والتوسع على حسابهم حتى نهاية القرن التاسع عشر حتى استولوا على كل أراضيهم وأصبحت أمريكا أرضاً بلا شعب أصلي، وحل محلها شعب أبيض مقدس، وهذا هو ذاته الطموح الصهيوني؟ وحينما سلب المستوطنون البيض في جنوب أفريقيا السكان الأصليين حقوقهم واستعبدوهم وسخروهم لمصلحتهم، هل كانوا في حاجة إلى التلمود أو **البروتوكولات** ليتعلموا ذلك منها؟

إن جذور العنف الصهيوني تعود بالدرجة الأولى إلى التراث العنصري الإمبريالي الغربي، الذي حوَّل العالم إلى مادة استعمالية وظفها لصالح الإنسان الغربي صاحب القوة، وهذا أمر متوقع من حضارة مادية نيتشوية، لا تؤمن إلا بالحواس الخمس. والصهيونية لم تتحول إلى حقيقة إلا من خلال التشكيل الاستعماري الغربي، وهي تدور في إطاره، وتدرك العالم من خلال خريطته المعرفية وليس من خلال التوراة أو التلمود أو كُتب القبَّالاه أو **البروتوكولات**.

إن تقديس الصهاينة للعنف هو إفراز طبيعي للحضارة العنصرية الإمبريالية التي كانوا يتحركون في إطارها. وانطلاقاً من هذا أعاد الصهاينة كتابة ما يسمَّى «التاريخ اليهودي» مؤكدين جوانب العنف فيه كما فعل النازيون مع تاريخ ألمانيا، وكما فعل كثير من المفكرين العنصريين في الغرب. فصوَّروا الأمة اليهودية في نشأتها على أنها جماعة محاربة من الرعاة الوثنيين الغزاة، وليس جماعة دينية. فميخا جوزيف بيريشفسكي، الكاتب الروسي الصهيوني، عاد بخياله، على سبيل المثال، إلى الوراء، إلى الأيام التي كانت فيها «رايات اليهود مرتفعة»، وينظر إلى

«الأبطال المحاربين (اليهود الأوائل)»[1]. كما اكتشف أن ثمة تياراً عسكرياً في التراث اليهودي؛ وبيَّن الحاخام أليعازر أن «السيف والقوس هما زينة الإنسان» ومن المسموح به أن يظهر اليهودي بهما يوم السبت[2]. وتتضح هذه الرؤية للتاريخ في خطاب الزعيم الصهيوني المراجع ذي الاتجاهات الأيديولوچية الفاشية المتطرفة فلاديمير جابوتنسكي لبعض الطلاب اليهود في ڤيينا، حيث أوصاهم بالاحتفاظ بالسيف، "لأن الاقتتال بالسيف ليس ابتكاراً ألمانياً، بل إنه ملك لأجدادنا الأوائل... إن التوراة والسيف أُنزلا علينا من السماء"[3]، ولعلَّ هذا مثل جيد على أهمية التفسير. فكثير من أجزاء التلمود تطلب من اليهود ألا يتمردوا وألا يثوروا، وهناك أدعية يهودية كثيرة "للحكومة"، أي حكومة يعيش اليهود في كنفها. ولكن جابوتنسكي آثر أن يربط بين السيف والتوراة. وقد تبع مناحم بيجين، رئيس وزراء إسرائيل الأسبق، أستاذه جابوتنسكي في تأكيد أهمية العنف في التاريخ؛ إذ يقول: "إن قوة التقدم في تاريخ العالم ليست للسلام بل للسيف"[4]. وهل يختلف هذا عن أقوال كثير من أتباع داروين الذين يرون أن العالم غابة وأن الإنسان أصله قرد؟

ويبدو أن السيف، رمز الذكورة والقوة والعنف، كان محبوباً وأثيراً لدى الصهاينة. وقد لاحظنا أن بيجين جعل السيف محركاً للتاريخ، أي أن السيف يكاد يكون هو المطلق، أصل الكون وكل الظواهر. ولا يتردد بيردشفسكي في أن يصرح بما هو مستتر في كلمات بيجين. فقد رفض بيردشفسكي التاريخ اليهودي الذي يسيطر عليه الحاخامات والمفكرون اليهود، ورفض أخلاقيات العبيد، ونادى بتفضيل الفعل على الفكر، وأخلاق السادة على أخلاق العبيد، والسيف على

---

(١) لطفي العابد وموسى عنز (مترجمان)، **الفكرة الصهيونية: النصوص الأساسية**، إشراف أنيس صايغ، تعريف د. أسعد زروق (بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٧٠)، ص ١٨٢.

(٢) المرجع السابق، ص ١٨٦.

(٣) لطفي العابد، **العنف والسلام في إسرائيل: دراسة في الاستراتيجية الصهيونية** (بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٦٧)، ص ١١.

(٤) بربارة حداد، "فلاديمير جابوتنسكي"، **شؤون فلسطينية** (نوفمبر ١٩٧١)، ص ص ٧٩-٩١.

الكتاب: "الكتاب ليس أكثر من ظل للحياة، هو الحياة في شيخوختها.. السيف ليس شيئاً مجرداً يقف بعيداً عن الحياة، إنه تجسيد للحياة في أغراض خطوطها، وهو تجسيد جوهري ومحسوس يشبه الحياة إلى حدٍّ كبير"(١). والنكهة النيتشوية في هذه الأقوال واضحة تماماً.

وحتى الليبرالي الأمريكي الهادئ لويس برانديز يقتبس، باستحسان شديد، هذه الكلمات التي تصف العنف الصهيوني، الذي كان لا يزال في نشأته، "غرست الصهيونية في الشباب اليهودي الشجاعة فألّفوا الجمعيات، وتدربوا على الأعمال الرياضية، وعلى اللعب بالسيف، وصارت الإهانة تُردُّ بإهانة مثلها، وفي الوقت الحاضر يجد أفضل لاعبي السيف الألمان أن الطلبة الصهاينة يستطيعون أن يدموا الخدود، كما يفعل التيوتون، وأن اليهود سوف يكونون أفضل لاعبي السيف في الجامعة"(٢). (وفي الشرق الأوسط فيما بعد). وكان برانديز يفكر في الطالب الآري (وحش نيتشه الأشقر)، حينما يتحدث عن بطله اليهودي. كما كان جابوتنسكي نفسه يفكر في السيف الألماني - البروسي اللامع. ويبدو أن هذا السيف كان محط إعجاب كل الصهاينة، الذين كثيراً ما عبَّروا عن إعجابهم وانبهارهم بالعسكرية البروسية الرائعة (هذا بالطبع قبل أن يهوى هذا السيف البروسي المقيت على الرقاب اليهودية البريئة في أشويتز). وكتابات هرتزل ملأى بعبارات الإعجاب بهذا السيف؛ إذ كتب في مذكراته يشيد ببسمارك الذي أجبر الألمان على شن عدة حروب "الواحدة تلو الأخرى". ومضى هرتزل يكتب في إعجاب عن الآثار المفيدة التي جنتها ألمانيا من هذه الحروب: "إن شعباً كان نائماً في زمن السلم، رحَّب بالوحدة في ابتهاج في زمن الحرب"(٣). وبينما كان هرتزل ينظر من نافذة أحد المسئولين الألمان شاهد مجموعات من الضباط الألمان يسيرون فعبَّر عن انبهاره بهم في يومياته: "ضباط المستقبل لألمانيا التي لا تُقهر، الدولة التي تريد وضعنا

---

(١) العابد وعنز، الفكرة الصهيونية، ص ١٨٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٩٢.

(3) Raphael Patai (Ed.), The Complete Diaries of Theodore Herzl, Trans. Harry Zhon, 5 Vols. (New York: Herzl Press and Thomas Yoseloff, 1960), Vol. p. 581.

تحت حمايتها »[1]. وهرتزل ليس متأثراً هنا بالتوراة أو التلمود أو كتب القبَّالاه لأنه لا يعرفها!

وتغنى ناحوم جولدمان، الزعيم الصهيوني ذو الأصل الألماني، بهذه الروح العسكرية البروسية في شبابه حين قال: «حيث إن ألمانيا تجسِّد مبدأ التقدم، نجدها واثقة من النصر. ألمانيا ستنتصر وستحكم الروح العسكرية العالم. ومن يريد أن يندم على هذه الحقيقة ويعبِّر عن حزنه فله أن يفعل، ولكن محاولة إعاقة هذه الحقيقة هي شيء من قبيل العناد وجريمة ضد عبقرية التاريخ» (الذي تحرِّكه السيوف وقعقعة السلاح).

واهتمام الصهاينة بالعنف مرتبط بمحاولتهم تحديث الشخصية اليهودية وتطبيعها وعلمنتها. ومن المعروف أن اليهودية الأرثوذكسية في بعض جوانبها طالبت اليهود بالانتظار الدائم لعودة الماشيَّح، وألا يتدخلوا في مشيئة الإله، لأن في هذا كفراً وتجديفاً. ولكن الصهاينة تمردوا على هذا الموقف، ونادوا بأن يتمرد اليهودي على وضعه، وألا ينتظر وصول الماشيَّح، بل ينبغي أن يعمل هو ـ بكل ما لديه من وسائل ـ على العودة إلى أرض الميعاد. فالمنفى بالنسبة لبن جوريون يعني الاتكال، الاتكال السياسي والمادي والروحي والثقافي والفكري «وذلك لأننا غرباء، وأقلية محرومة من الوطن ومقتلعة ومشردة عن الأرض، وعن العمل والصناعة الأساسية، واجبنا هو أن ننفصل كليةً عن هذا الاتكال، وأن نصبح أسياد قدرنا؛ علينا أن نستقل»[2]. ويلخص بن جوريون برنامجه الثوري في أنه لا يرفض الاستسلام للمنفى وحسب، بل يحاول أيضاً إنهاءه على التو[3]. وهو يعتقد أن هذا هو حجر الزاوية: «القضية الحقيقية الآن، كما كانت في الماضي، تتركز فيما إذا كان علينا أن نعتمد على قوة الآخرين أم على قوتنا»[4]. على اليهودي، من الآن

(1) Ibid, pp. 700, 701.

(٢) العابد وعنز، **الفكرة الصهيونية**، ص ٤٧٧.
(٣) المرجع السابق، ص ٤٧٦.
(٤) المرجع السابق، ص ٤٧٩.

فصاعداً، ألا ينتظر التدخل الإلهي لتحديد مصيره، بل عليه أن يلجأ إلى الوسائل الطبيعية العادية[1] (مثل الفانتوم والنابالم وطيارات الأباتشي والـ F16 مثلاً؟).

ويقول ماكس نوردو إن "اليهودي، خلال ثمانية عشر قرناً من النفي، أصبح مترهل العضلات، ولذلك أقترح أن يُقلع عن قهر جسده، وأن يعمل على تنمية قواه الجسدية وعضلاته، أسوةً "بذلك البطل باركوخبا، آخر تجسيد، على صعيد التاريخ العالمي، لتلك اليهودية في صلابة عودها المقاتل وحبها لقعقعة السلاح"[٢]. إن العنف هنا يصبح الأداة التي يتوسل بها الصهاينة لإعادة صياغة الشخصية اليهودية؛ فاليهودي - في هذا التصور - يحتاج إلى ممارسة العنف لتحرير نفسه من نفسه ومن ذاته الطفيلية الهامشية. وكان الكاتب اليهودي بن هخت يشعر بالفرح في قرارة نفسه في كل مرة يُقتل فيها جندي بريطاني، لأنه، بلا شك، كان يتحرَّر من مخاوفه ويُولَد من جديد، تماماً مثل شارلوت كورداي في قصيدة جابوتنسكي بعنوان "شارلوت المسكينة"؛ فشارلوت تتخلص من رتابة حياتها وسخافتها، وتروي تعطشها للعمل البطولي بأن تقوم «بالفعل» - تسدِّد الضربة إلى چان مارا فترديه قتيلاً وهو في الحمام[٣]. العنف هنا يصبح مثل الطقوس الدينية التي تستخدمها بعض القبائل البدائية حينما يصل أحد أفرادها إلى سن الرجولة (فاليهودي حينما يقوم بهذا الفعل الذي كان يخاف منه أجداده، أي ذبح أحد الأغيار، يتخلص من مخاوفه، ويصبح جديراً بحمل رمز الذكورة). وهذا الجانب من الفكر الصهيوني يتضح بجلاء في كتاب **الثورة**، الذي كتبه مناحم بيجين. يقول فيلسوف العنف في عبارة ديكارتية البنية وحشية المضمون: "أنا أحارب، إذن أنا موجود. من الدم والنار والدموع والرماد سيخرج نموذج جديد من الرجال، نموذج غير معروف البتة للعالم في السنوات الألف والثمانمائة الماضية: اليهودي المحارب

---

(1) Moshe Pearlman, **Ben Gurion Looks Back in Talks with Moshe Pearlman** (New York: Simon and Schuster, 1965), p. 236.

(٢) أسعد زروق، **إسرائيل الكبرى: دراسة في الفكر التوسعي الصهيوني** (بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٦٨)، ص ص ١٣٣، ١٣٤.

(٣) **المرجع السابق**، ص ٤٧٢.

أولاً وقبل كل شيء، يجب أن نقوم بالهجوم: نهاجم القتلة. بالدم والعَرق سينشأ جيل متكبِّر كريم قوي "[1].

والعنف عند بن جوريون، يقوم بالوظيفة نفسها في إعادة صياغة الشخصية اليهودية؛ إذ يصف الرواد الصهاينة بهذه الكلمات[٢]: "كنا ننتظر مجيء الأسلحة ليلاً ونهاراً، ولم يكن لنا حديث إلا عن الأسلحة. وعندما جاءتنا الأسلحة، لم تسعنا الدنيا لفرط فرحتنا، كنا نلعب بالأسلحة كالأطفال ولم نعد نتركها أبداً. . . كنا نقرأ ونتكلم والبنادق في أيدينا أو على أكتافنا". وموقف بن جوريون مبني على تصور جديد للشخصية اليهودية على أنها شخصية محاربة منذ قديم الأزل: "إن موسى، أعظم أنبيائنا، هو أول قائد عسكري في تاريخ أمتنا"، ومن هنا يكون الربط بين موسى النبي وموشيه ديان مسألة منطقية، بل حتمية، كما لايكون من الهرطقة الدينية في شيء أن يؤكد بن جوريون أن خير مفسِّر ومعلِّق على التوراة هو الجيش؛ فهو الذي يساعد الشعب على الاستيطان على ضفاف نهر الأردن، فيفسِّر بذلك كلمات أنبياء العهد القديم ويحققها[٣]. (ولنلاحظ كيف يكتسب العنف هو الآخر شيئاً من القداسة، وكيف أن التفسير وليس النص يلعب دوراً محورياً).

وإذا كان العنف هو البوتقة التي يولد من خلالها اليهودي الجديد، فهو أيضاً البوتقة التي يولد فيها المجتمع الصهيوني الجديد. فالجيش الإسرائيلي لا يقوم بالدفاع عن إسرائيل وحسب، بل إنه المكان الذي تولد فيه «الحضارة الإسرائيلية» ذاتها: "إن الجيش مدرسة للشباب الناشيء، دار حضانة لتفرُّد الأمة، لحضارتها وشجاعتها"، "وهنا في الجيش يجب أن يجنَّد معلمونا بكل ما أوتينا من قوة"[٤]. والجيش هو أكبر معهد تعليمي في أرض الميعاد، فالمهاجرون يلتحقون بهذا المعهد

---

(1) Menachem Begin, **The Revolt**, Forward by Rabbi meir Kahane (Los Angeles: Nash Publishing, 1972), p. 46 and the Introduction.

(٢) تهاني هلسة، **بن جوريون** (بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٦٥)، ص ٢٣.

(3) David Ben Gurion, **Rebirth and Destiny of Israel** (New York: Philosophical Library, 1954), p. 423.

(4) **Ibid.**, p. 472.

حال وصولهم إلى إسرائيل، حيث يكتسبون الخبرات، ويتعلمون العبريا
ويطرحون عنهم قصور المنفى ليصبحوا مواطنين إسرائيليين عاديين[١]. وحسـ
كلمات بن جوريون فقد لعب الجيش دوراً حضارياً أساسياً في مزج جماعا
المهاجرين بعضها بالبعض الآخر[٢].

ولكن يجدر بنا أن نتذكر أن المحاولة الصهيونية لاستلاب اليهودية عن طر
إعادة صياغتها على أسس عرْقية قومية، ولإحلال نفسها محلها، لاقت معارة
قوية من جانب كثير من المفكِّرين اليهود. فالحاخام الإصلاحي يهودا ماجنس، أو
رئيس للجامعة العبرية، وصف الصهيونية - بعد تحوُّله عنها - بأنها «الصوت اليهود
الجديد» الذي يتحدث من فوهة بندقية: "هذه هي التوراة الجديدة الآتية" من أرة
إسرائيل. و "لكنها ليست التوراة الحقيقية لليهودية، لأنها تحاول أن تقيِّد الدي
اليهودية والشعب اليهودي بقيود "جنون القوة المادية". بل إنه وصف الدين الجد
بأنه «اليهودية الوثنية»[٣]. ومن الواضح أن ماجنس هنا ينطلق من النصوص ذا
الطابع الإنساني في التوراة.

أما البروفيسور إسرائيل شاهاك، الأستاذ المُعارض بالجامعة العبرية
القدس، فقد بيّن أن إضفاء صبغة مثالية يهودية على دولة إسرائيل الصهيونية "
أمر لا أخلاقي ومعاكس للتيار الرئيسي للعقيدة اليهودية ولابد أن يؤدي بإسرا
إلى كارثة". وقال شاهاك في كلمات، هي تقريباً صدى لكلمات ماجنس: "يب
لي أن غالبية شعبي قد تركوا الرب، واستبدلوا به وثناً وضعوه في مكانه"، وه
يشبه بالضبط ما حدث "عندما آمنوا بالعجل الذهبي في الصحراء. واسم هذا الو
الجديد هو دولة إسرائيل"[٤].

Pearlman, **Ben Gurion Looks Back**, p. 144.

Ibid., p. 150.

Moshe Menuhim, **The Decadence of Judaism in Our Time** (Beirut: Institute for Palestine Studies, 1969), p. 107.

Moshe Menuhin, **Jewish Critics of Zionism: A Testament Essay with The Strifling and Smearing of a Dissenter**, (New York: Arab Information Center, n.d.), p. 38.

ويرى كثير من اليهود المتدينين، الذين لم يجرفهم التيار الصهيوني، مثل حاخامات الناطوري كارتا (وهي جماعة يهودية أرثوذكسية ترفض الاعتراف بالدولة الصهيونية) ويهود شرق أوربا المتدينين أن الصهيونية هي أكثر المحن الشيطانية التي واجهت المجتمعات اليهودية في العالم[1]، إذ إن الصهيونية تشبه اليهودية بشكل سطحي وزائف، في حين أنهما في الواقع ضدان لا يجتمعان: "إن إسرائيل الحقيقية لا تقوم على المدافع، وإنما تقوم على الإيمان بالرب والتوراة"[2]. وقد نشب صراع حاد بين اليهود المتدينين والصهاينة، ولا يزال هذا الصراع دائراً، ويتخذ أحياناً أشكالاً دموية، كما يحدث حينما يقوم أعضاء جماعة الناطوري كارتا في القدس بمظاهرة وتقوم الشرطة الإسرائيلية بتفريقها بالقوة. كما يُعتقد أن أحد زعماء هذه الحركة، الحاخام چاكوب دي هان، قد سقط صريعاً برصاصات الصهاينة في ٣٠ يونيو ١٩٤٢.

(1) Emile Marmorstein, **Heaven at Bay: The Jewish Kulturkampt in the Holy Land** (London: Oxford University Press, 1969), p. 71.

(2) Michael Selzer (Ed.), **Zionism Reconsidered: The Rejection of Jewish Normalcy** (New York: Macmillan Company, 1970), p. 43.

الفصل الثالث
البروتوكولات الصهيونية

يقول مروجو **البروتوكولات** إن نواة الحكومة اليهودية العالمية هي في واقع الأمر الدولة الصهيونية التي تساندها الحركة الصهيونية العالمية والشبكة المالية والإعلامية اليهودية، ذات القوة الشيطانية اللامحدودة، والأذرع الأخطبوطية. فما هي حقيقة الأمر؟

نقاط اللقاء بين البروتوكوليين والصهاينة

تذهب **البروتوكولات** إلى أن حكماء صهيون "سيستنزفون كل قوى الحكم في جميع أنحاء العالم، وسيشكلون حكومة عالمية عليا. وسيضعون موضع الحكومات القائمة ماردًا يسمّى إدارة الحكومة العليا. وستمتد أيديه كالمخالب الطويلة المدى، وتحت إمرته سيكون له نظام يستحيل معه أن يخفق في إخضاع كل الأقطار" (٥/ ١٨١). وتسكر الرؤى حكيم حكماء صهيون فيتحدث عن اليوم الذي ستهدي فيه كل أوربا التاج إلى ملك اليهود ليضعه على رأسه المقدس ويصبح بطريرك العالم بأسره (١٥/ ٢٤٢).

ولكن من المعروف تاريخيًا أنه لم تكن هناك سلطة مركزية تجمع سائر يهود العالم بعد تحطيم الهيكل على يد تيتوس في القرن الأول الميلادي، وذلك بسبب طبيعة الوجود اليهودي في العالم حيث انتشر اليهود على هيئة أقليات دينية لا يربطها رباط قومي، وقد كان لكل أقلية محاكمها وهيئاتها الخاصة التي تقوم برعاية شئونها. ثم اختفت السلطة المركزية الدينية، وتطورت العقيدة اليهودية داخل

تشكيلات حضارية ودينية مختلفة مما جعلها تتحول إلى مجموعة من العقائد غير المتجانسة، بل والمتناحرة أحياناً.

كما يلاحظ أن فكرة الحكومة العالمية تتناقض مع الفكرة الصهيونية، فالصهيونية تهدف إلى إنهاء الشتات، أي تجميع كل أعضاء الجماعات اليهودية في فلسطين، بينما فكرة الحكومة العالمية ترى ضرورة أن تظل الشبكة اليهودية الأخطبوطية منتشرة في كل أنحاء العالم.

وتزعم المنظمة الصهيونية أنها عالمية، وقد وقعنا كعرب في هذا الفخ فصرنا نتحدث عن "الصهيونية العالمية"، إلا أننا لو دققنا النظر لوجدنا أنها أبعد ما تكون عن العالمية، فهي ظاهرة غربية من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، ولسبب بسيط هو أن الغالبية الساحقة للجماعات اليهودية توجد أساساً إما في العالم الغربي (الولايات المتحدة ـ روسيا ـ فرنسا) أو في جيوب استيطانية غربية (جنوب أفريقيا ـ الدولة الصهيونية). ولا يوجد يهود في الهند أو اليابان أو الصين (التي لا يوجد فيها إلا حوالي عشرة يهود إن أردنا توخي الدقة). ولا يوجد يهود كذلك في أمريكا اللاتينية (إلا في بيونس إيريس فى الأرجنتين وريودي جانيرو فى البرازيل) أو في دول أفريقيا. فكيف سيتأتى لحكماء صهيون إنشاء حكومتهم العالمية إذن؟ هل سيلجئون للإنترنت ووسائل التجسُّس الحديثة؟ لكن حكيم حكماء صهيون لا يخبرنا شيئاً عنها، فهي لم تكن معروفة لديه!

والطريف أن **البروتوكولات** لم تذكر المخططات الصهيونية ذاتها من قريب أو بعيد، ولا يوجد ذكر لفلسطين أو لشعارات مثل "من النيل إلى الفرات" أو "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض". ولا يتعرض حكيم حكماء صهيون إلى واحدة من أهم معالم "المؤامرة" الصهيونية اليهودية وهي ضرورة التحالف مع الدول الكبرى وإنشاء جماعات ضغط داخلها. وكل هذا يدل على أن كاتب **البروتوكولات** لم يكن على علاقة كبيرة بالجماعات اليهودية سواء في روسيا أم خارجها أو حتى بالمخططات الصهيونية.

وإذا كانت الدولة الصهيونية هي فعلاً نواة الحكومة اليهودية العالمية التي

ستهيمن على العالم، فما هي آليات تنفيذ هذا المخطط الإجرائي؟ هل عندها من المقومات والقوة الذاتية ما يجعلها قادرة على تغيير موازين القوى لصالحها وضد صالح الولايات المتحدة وأوربا والصين واليابان والهند؟ هل يمكن للرأسماليات الغربية الشرسة أن تترك اليهود يسيطرون على أسواق العالم؟ وماذا يدعونا لتصديق هذه الادعاءات حتى لو كان مصدرها اليهود أنفسهم؟

ويقوم حكيم حكماء صهيون بتهديد العالم بالويل والثبور وعظائم الأمور بشكل عائم غائم، بينما نجد التهديدات الصهيونية ذات طابع محدَّد تفوق بكثير تهديدات حكيم الحكماء. فبن جوريون قال إن الدولة الصهيونية بعد قيامها ستنشأ دولة مسيحية في لبنان، ثم تكسر الجيوش العربية وتضرب عَمان بالقنابل وتزيل دولة الأردن. وبعد ذلك ستسقط سوريا في أيديهم، ثم ستقصف بورسعيد والإسكندرية والقاهرة. وطالب رحبعام زئيفي، وزير السياحة الإسرائيلي السابق، بنقل الفلسطينيين وهدَّد بنسف السد العالي وإغراق مصر (ولكن الفدائيين الفلسطينيين قاموا باغتياله قبل أن ينفِّذ مخططه المهول). وقد نشرت جريدة **هآرتس** في عددها الصادر باللغة العبرية في ٨ ديسمبر ٢٠٠٢، ولم تُنشر في الطبعة الإنجليزية (حسبما جاء في نشرة أخبار الإذاعة البريطانية باللغة العربية في ٩ ديسمبر ٢٠٠٢) أن أحد الضباط الإسرائيليين (برتبة كولونيل) طالب بوضع خطة لتدمير الحرم الشريف وكل الأماكن المقدَّسة الإسلامية في حالة هجوم نووي على إسرائيل. إن هذه تهديدات محدَّدة تم تنفيذ بعضها، وتم إفشال البعض الآخر، ولا يزال البعض الثالث مُعلَّقاً قيد التنفيذ، وهي خطط جهنمية محدَّدة لم تطرأ لحكيم حكماء صهيون على بال، فماذا حدث لنزعة الشر عنده؟ هل خانته غريزته الشريرة ووضعت حدوداً على خياله المدمِّر؟

ولكن رغم هذا التعارض بين **للبروتوكولات** والرؤية الصهيونية فإن الباحث المدقِّق سيكتشف أنه تعارُض ظاهري وحسب. فالرؤية الاختزالية التآمرية لليهود التي تشكل الإطار المرجعي **للبروتوكولات** لا تختلف في أساسياتها مطلقاً عن الرؤية الاختزالية الصهيونية لليهود. فكلا الفريقين يرى اليهود من خلال رؤية

واحدية بسيطة ساذجة، تقوم بتبسيط دوافعهم ووجودهم في التاريخ إذ إنها تسقط عنهم زمنيتهم وتركيبيتهم وإنسانيتهم. فبدلاً من رؤية أعضاء الجماعات اليهودية كجزء من تواريخ بلادهم وحضاراتهم، فإنها تنظر إليهم باعتبارهم كياناً واحداً متماسكاً فريداً وشعباً واحداً له جوهر واحد يتحرك داخل تاريخه اليهودي الخاص بمعزل عن المجتمعات التي يعيشون فيها. فاليهود - حسب هذه الرؤية الاختزالية - بسبب خصوصيتهم من الصعب أن يندمجوا في الشعوب الأخرى. وبسبب هذا الاتفاق بين الفريقين نجد أن كلاً من التآمريين والصهاينة يتحدثون عن «الشعب اليهودي عبر التاريخ» وعن «الشخصية اليهودي في كل العصور» وعن «العبقرية اليهودية في كل زمان ومكان» وهكذا. كما أن البروتوكوليين يتفقون مع الصهاينة فيما يمكن تسميته «الاستمرار اليهودي»، أي أن اليهود ككيان بشري، ظل كياناً بشرياً متماسكاً وكأن ثمة استمرارية تاريخية بين يهود بابل قبل الميلاد ويهود الولايات المتحدة في العصر الحديث، وبين يهود خيبر أيام الرسول ويهود الصين في القرن الثاني عشر.

ويُقدم كلا الفريقين تصوراً لليهود باعتبارهم كيانات بسيطة دوافعها بسيطة وغاياتها بسيطة. فأعضاء الشعب اليهودي هذا، حسب رؤية البروتوكوليين والصهاينة، لا يشعرون بالانتماء لأوطانهم، إذ إنهم أينما وُجدوا يحنون لصهيون ويدينون لها وحدها أو لحكومتهم اليهودية أو لشعبهم اليهودي بالولاء، ومن ثَمَّ فاليهودي عادةً ما يعاني من ازدواج الولاء ولايشعر بالاستقرار في وطنه، ونتيجةً لهذا يصبح شخصية مريضة لا تخضع للقوانين الإنسانية العامة، يقاوم الاندماج في الأغيار ويقع ضحية فريدة لعنفهم، ولذا لابد أن يخرج اليهودي من البلد الذي يقطن فيه.

وهذه الرؤية تدحضها حقائق الواقع الفعلي. فالغالبية العظمى من يهود العالم لا تزال تعيش خارج دولة إسرائيل، التي تدَّعي أنها دولة اليهود، ومعدلات اندماج اليهود في مجتمعاتهم، خاصةً الأوربية، مرتفعة للغاية، وهو الأمر الذي دفع بعض الكُتَّاب الصهاينة وغير الصهاينة إلى الحديث عن ظاهرة «موت الشعب اليهودي»، أي اختفائه.

والخلاف بين البروتوكوليين والصهاينة لا يوجد في التشخيص أو في الوصف أو في المنطلقات أو المسلمات ولا حتى في الحل وإنما في آليات الحل وحسب، أي أن الاختلاف بينهم اختلاف إجرائي بسيط وليس كليًا وشاملاً، فكلا الفريقين يطرح حلاً بسيطاً لمشكلة الكيان اليهودي المتماسك الفريد الذي يرفض الاندماج، ألا وهو ضرورة "خروج" اليهود من أوطانهم. ولكن بينما يرى البروتوكوليون وأعداء اليهود أنه لا مناص من استخدام العنف في هذه العملية (من طرد وإبادة)، فإن الصهاينة يرون أن الحركة الصهيونية يمكنها أن تشرف على عملية الخروج هذه بطريقة منهجية منظمة، بحيث لا يوجد أي مبرر للعنف. ومع هذا، لا يستبعد الصهاينة استخدام العنف كآلية لإخراج اليهود من أوطانهم، كما حدث عام ١٩٥١، حينما ألقى عملاء إسرائيل القنابل على أماكن تجمع أعضاء الجماعة اليهودية في العراق لإجبارهم على الهجرة منها إلى الدولة الصهيونية.

موسى العصر الحديث

وصف الأستاذ خليفة التونسي (مترجم **البروتوكولات** في الطبعة التي نستخدمها) تيودور هرتزل بأنه "موسى اليهود في العصر الحديث وزعيمهم الكبير الخطير"، أي أنه جعل منه عملاقاً خرافياً مع إشارة خفية إلى أنه قد يكون حكيم حكماء صهيون. وهنا قد يكون من المفيد التوقف قليلاً للتحدث عن هذا الزعيم الكبير الخطير. من المعروف أن هوية هرتزل كانت تقف بين عدة انتماءات دينية إثنية متنوعة (ألمانية ـ مجرية ـ يهودية ـ بل ومسيحية) دون أن ينتمي لأيٍّ منها أو يُستوعَب فيها. فإذا نظرنا لانتمائه اليهودي، فقد كان، على سبيل المثال، يرفض الدين اليهودي والتقاليد الدينية اليهودية. والواقع أن زوجته كان مشكوكاً في يهوديتها، وقد رفض حاخام فيينا إتمام مراسم زواج هرتزل لها حينما اكتشف ذلك. كما أن هرتزل لم يُختِّن أولاده وقد تنصَّر معظمهم بعد وفاته. ولم يكن الطعام الذي يُقدَّم في بيته «كوشير»، أي مباحاً شرعاً، وكان يحتفل بعيد الميلاد (الكريسماس). أما تَصوُّره للإله، فلم يكن يستند إلى العقيدة اليهودية بقدر استناده إلى فلسفة إسبينوزا بنزعته الحلولية التي توحِّد الإله والإنسان والطبيعة، وتسقط في وحدة الوجود.

وقد تأثَّر هرتزل بتعاليم شبتاي تسفي الماشيَّح الدجال وظل مشغولاً به وبأحداث حياته. وأصيب هرتزل في نهاية الأمر بمرض سري، مما عجَّل بوفاته.

وكان هرتزل، من الناحية الثقافية، ابن عصره الغربي، فكان يجيد الألمانية والمجرية والإنجليزية والفرنسية. ويبين أحد مؤرخي الحركة الصهيونية أن اتخاذ هرتزل دور الداندي (أي الوجيه الذي يبالغ في الأناقة) وتَظاهُره بأنه من الأرستقراطيين هو القناع الذي كان يختبئ وراءه ليهرب من هويته اليهودية. وكان هرتزل لا يعرف العبرية، وقد تساءل علناً وبسخرية (في المؤتمر الصهيوني الثالث [١٨٩٩]) عما يُسمَّى «الثقافة اليهودية». وحينما قرَّر مجاملة حاخامات مدينة بازل، اضطر إلى تأدية الصلاة في كنيس المدينة قبيل افتتاح المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧)، كما اضطر إلى تعلُّم بضع كلمات عبرية لتأدية الصلاة. وكان المجهود الذي بذله في تعلُّمها أكبر من المجهود الذي بذله في إدارة جلسات المؤتمر بأسرها (حسب قوله). ولعله لهذا السبب كان يرى أن لغة المستوطن الصهيوني لابد أن تكون إحدى اللغات الأوربية.

يمكن للبروتوكوليين أن يقولوا إن هرتزل كان في الواقع يخدعنا جميعاً، وأنه كان يهودياً ولكنه أبطن يهوديته حتى لا يكتشفه أحد. ولا يمكن الرد على مثل هذا الادعاء لأن صاحبه لم يأت بدليل واحد لا من كتابات هرتزل ولا من سلوكه، ومن ثَمَّ فرأيه لا يمكن الاتفاق معه أو دحضه. (وهذا هو الوضع بالنسبة لكل الآراء والأفكار التي وردت في **البروتوكولات**).

ولعل هامشية الانتماء الحضاري هذه تُفسِّر جانباً آخر من شخصية هرتزل وهو ذكاؤه الحاد وسطحيته الشديدة. وقد وَصَفه مؤرخ الصهيونية وولتر لاكير بأن تفكيره يتصف بالتبسيط الشديد. ووَصَفه مؤرخ صهيوني آخر، هو حاييم فيتال، في أكثر من مكان، بأنه ذكي دون أن يكون عميقاً، وأنه لم يكن يدرك كثيراً من الأبعاد السياسية لعصره. أما العالم الإسرائيلي شلومو أفنيري، فيرى أن كتاباته قد تكون متألقة لامعة ولكن ينقصها العمق الروحي، كما تحدَّث عن "الجانب الخفيف" في طبيعته، أي سطحيته.

ويطرح السؤال نفسه: كيف تتمكن شخصية هامشية سطحية (رغم كل ذكائها)، شخصية لم يكن عندها مصادر مالية، تقف ضدها كل المؤسسات الدينية والمالية اليهودية ولم يكن لديها تنظيم، كيف يمكن لمثل هذه الشخصية أن تفرض نفسها بهذا الشكل على الجميع، ويتحرك باسم يهود العالم؟ يفسر أحد مؤرخي الحركة الصهيونية (شلومو أفنيري) هذه الأعجوبة بسببين: أولهما، كفاح هرتزل البطولي الذي يكاد يكون جنونياً. وثانيهما، اكتشافه الرأي العام العالمي وألاعيب الإعلام. ولكننا نعتقد أن نجاحه يكمن في نقاط قصوره وهامشيته وذكائه السطحي، إذ تضافرت هذه العوامل وجعلته قادراً على أن يصل إلى الصيغة التي تفتح الطريق المسدود الذي كانت الصهيونية (بشقيها اليهودي وغير اليهودي) قد دخلته. فهامشيته جعلته قادراً على أن ينظر مثلاً لليهود من الخارج على طريقة العالم الغربي «كمادة بشرية» (المصطلح الذي استخدمه في كتابه **دولة اليهود**) يجب التخلص منها أو توظيفها. ولذا، فإن اهتمامه باليهود كان اهتماماً غربياً. ولعل هذا يفسر السبب في أن الحلول الأولى التي طرحها للمسألة اليهودية كانت تتسم بكثير من السوقية الفظة، فكان يقترح مثلاً تعميد اليهود في كاتدرائية القديس بول في روما.

وكما بيَّنا من قبل، لم يكن هرتزل يعرف شيئاً عن عالم اليهود ولكنه كان يعرف بعض الشيء عن شخصيات الاستعمار الغربي مثل بنجامين دزرائيلي وسيسل روديس وهنري ستانلي، وعن موازين القوى وعن رجل أوربا المريض (الدولة العثمانية) وعن التشكيل الاستعماري الغربي.

ورغم كل هذا ورغم إعجابه الشديد بمؤسسات الحضارة الغربية، ابتداءً من العقلية الألمانية وانتهاءً بالمشروع الاستعماري والتكنولوجيا الغربية، فقد اكتشف أن هذه الحضارة أوصدت أبوابها دون جحافل يهود شرق أوربا المتدفقة على غرب أوربا والولايات المتحدة، والتي كانت تهدِّد الأمن الاجتماعي في هذه البلاد وتهدِّد المواقع الطبقية والمكانة الاجتماعية التي كان يهود هذه البلاد الأصليين قد حققوها.

اكتشف هرتزل أنه يمكن التخلص من هذا الفائض البشري من خلال تحويل الهجرة اليهودية من العالم الغربي إلى مكان ما خارج حدوده، حيث يمكن توظيفه لصالح الغرب الذي لفظه (وهذه هي المفارَقة الكبرى في حالة الصهيونية). كما اكتشف أنه لتنفيذ هذا المشروع الصهيوني، أو أي مشروع غربي في القرن التاسع عشر، كان لابد من اللجوء للاستعمار الغربي، باعتباره الآلية الوحيدة لتنفيذ مثل هذا المشروع الاستعماري الاستيطاني الإحلالي. فقام بتأسيس المنظمة الصهيونية ليتفاوض مع القوى الاستعمارية باسم «يهود العالم». ولكن، حتى بعد تأسيس المنظمة، كان هرتزل يدرك أن المنظمة الصهيونية لا تمثل أحداً، أو أنها تمثل أقلية من اليهود لا يُعتدُّ بها، وأن العنصر الحاسم ليس المنظمة وإنما هو الدولة الاستعمارية الراعية. ولذا، تَجاهَل منظمته وبدأ بحثه الدائب عن قوة غربية ترعى المشروع. فقد كان يعلم تمام العلم أنه لو حصل على مثل هذه الموافقة فسترضخ له المنظمة وتتبعه، وخصوصاً أنها لم تكن تملك بديلاً، كما أن الصهاينة التسلليين من شرق أوربا كانوا يعلمون أن مشروعهم الصهيوني للاستيطان في فلسطين عن طريق التسلل فيها دون وجود مظلة غربية استعمارية عسكرية كان قد وصل بقيادتهم إلى طريق مسدود.

واكتشف هرتزل أن الصهيونية حركة سياسية بلا جماهير، وحيث إنه كان يعرف كيف يتصل بممثلي الحضارة الغربية والاستعمار الغربي، ويعرف كيف يتحدث لغتهم، وكيف يعرض عليهم تسخير يهود العالم في خدمة الاستعمار الغربي في مقابل إقامة الدولة الصهيونية، فقد صار بوسعه تخطي كل المنظمات والجمعيات الصهيونية في شرق أوربا، ومن ثَمَّ بدأ اتصالاته الدبلوماسية مع القوى الاستعمارية العظمى. ولم يكن هرتزل مُنظِّراً من الدرجة الأولى، ولكنه كان صحفياً يرصد الأحداث بذكاء ويتسم بحس عملي فائق، ولذلك فإنه بعد أن قضى بضع سنوات يغازل ألمانيا (والباب العالي) اكتشف أن الطريق إلى فلسطين يبدأ في لندن، فحمل أمتعته وذهب إلى هناك حيث وجد جوزيف تشامبرلين (وزير المستعمرات البريطاني في وزارة بلفور) شخصاً متفهماً لمشروعه، متقبلاً للفكرة المبدئية وهي حل مسألة يهود شرق أوربا على الطريقة الاستعمارية، أي نَقْلهم إلى

الشرق. ولكن وقت تقسيم الدولة العثمانية لم يكن قد حان بعد، ولذا اقترح وزير المستعمرات على هرتزل أن يبحث عن أي أرض أخرى داخل الإمبراطورية الإنجليزية (قبرص - العريش - شرق أفريقيا). وبعد عدة دراسات واقتراحات واتصالات، استقر الرأي على شرق أفريقيا بناءً على نصيحة تشامبرلين، ولكن الخطة لم يُكتَب لها النجاح لأسباب سنبينها فيما بعد. وحينما تقرر تقسيم الدولة العثمانية، تقرر أيضاً إنشاء الدولة الصهيونية في فلسطين، وليس في أي مكان آخر، لتساعد على عملية التقسيم ولتضمن وجود قاعدة راسخة للعالم الغربي في قلب العالم العربي، قاعدة تمسك ببوابة مصر الشرقية وتطل على البحرين الأحمر والأبيض وتؤمِّن طريق الهند. هذا هو المخطط الاستعماري الصهيوني العلني، وهو المخطط الذي تحقَّق على أرض الواقع، وهو مخطط لم يُشر له حكيم حكماء صهيون من قريب أو بعيد في مخططه السري.

المؤتمر الصهيوني البروتوكولي

يزعم الأستاذ التونسي وغيره من حَمَلة ومروجي فكرة المؤامرة أن زعماء اليهود (حكماء صهيون) قد عقدوا ثلاثة وعشرين مؤتمراً منذ سنة ١٨٩٧ حتى سنة ١٩٥١، وكان الغرض من هذه المؤتمرات جميعاً، في واقع الأمر، دراسة الخطط التي تؤدي إلى تأسيس مملكة صهيون العالمية. وقد جاء في المقدمة التي كتبها الأستاذ التونسي (ص٤١) ما يلي:

"أما أول مؤتمراتهم فكان في مدينة بال بسويسرا سنة ١٨٩٧ برئاسة زعيمهم «هرتزل»، وقد اجتمع فيه نحو ثلاثمائة من أعتى حكماء صهيون كانوا يمثلون خمسين جمعية يهودية، وقد قرروا في المؤتمر خطتهم السرية لاستعباد العالم كله تحت ملك من نسل داود، وكانت قراراتهم فيه سرية محوطة بأشد أنواع الكتمان والتحفظ إلا عن أصحابها بين الناس، أما غيرهم فمحجوبون عنها ولو كانوا من أكابر زعماء اليهود".

ويضيف الأستاذ التونسي في موضعٍ آخر أنه بعد نشر بعض نُسَخ

البروتوكولات " قام زعيمهم الكبير الخطير تيودور هرتزل أبو الصهيونية ، وموسى اليهود في العصر الحديث يلطم ويصرخ لهذه الفضيحة ، وأصدر عدة نشرات يُعلن فيها أنه قد سُرقت من «قدس الأقداس» بعض الوثائق السرية التي قُصِد إخفاؤها على غير أصحابها ولو كانوا من أعاظم اليهود " (ص٤٤) .

وهذا تخريف ما بعده تخريف . فوقائع هذا المؤتمر الأول وما تلاه من مؤتمرات موجودة في كتب بالألمانية والعبرية والإنجليزية والفرنسية وتُرجم بعضها إلى العربية ، ونحن نعرف الكثير الكثير عن هذا المؤتمر الذي دعا له هرتزل ، وكذلك جميع المؤتمرات التالية . فنحن نعرف ، على سبيل المثال لا الحصر ، أن المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) ، قد حضره ما بين ٢٠٠ و٢٥٠ مندوباً ، نعرف عنهم كل ما يلزم من تفاصيل للقيام بعمليات التحليل والتفسير . فنحن نعرف على سبيل المثال أن معظم المندوبين كانوا من جمعية صهيونية صغيرة تضم بعض المثقفين اليهود تسمَّى «أحباء صهيون» وكان نصف المندوبين من شرق أوربا . ولكن حتى الذين أتوا من الغرب كانوا من أصل أوربي شرقي . أما من ناحية التكوين الطبقي ، فقد كان معظم المندوبين من أبناء الطبقة الوسطى المتعلمة ، وكان ربعهم رجال أعمال وصناعة وأعمال مالية . وأما الفئات الثلاث التالية (وتكوِّن كل منها سدس المشتركين) ، فقد كانت من الأدباء والمهنيين والطلبة ومهن أخرى مختلفة . كما كان هناك ١١ حاخاماً فقط لا غير (فالعقيدة اليهودية حينذاك كانت تحرِّم العودة إلى فلسطين [صهيون]) . وكان بينهم المتدين وغير المتدين والملحد ، كما كانوا يضمون في صفوفهم بعض الاشتراكيين . ولم يكن هناك أي يهودي يتمتع بشهرة عالمية باستثناء المفكر الألماني ماكس نوردو الذي ما لبث أن خبا نجمه بعد ذلك .

وأعد هرتزل برنامج المؤتمر ، وصمم ماكس بودنهايمر (الزعيم الصهيوني الألماني) شارته ، وهي درع أزرق ذو حواف حمراء كُتبت عليه عبارة : " تأسيس الدولة اليهودية هو الحل الوحيد للمسألة اليهودية " ، وفي وسطه أسد يهودا ، وحوله نجمة داود واثنتا عشرة نجمة إشارة إلى أسباط إسرائيل . كما صدرت طبعة خاصة من مجلة **دي فيلت** الناطقة باسم الحركة الصهيونية . ودوَّن هرتزل في

مذكراته (كملاحظة) أنه يقود جيشاً من الصغار والشحاذين والمغفلين (وهذه هي العبارة التي استخدمها روتشيلد لوصفه حين قابله).

وافتُتح المؤتمر يوم الأحد ٢٩ أغسطس ١٨٩٧ في صالة الاحتفالات التابعة لكازينو بلدية بازل وكان مزمعاً عقد المؤتمر في ميونيخ، بيد أن المعارضة الشديدة من قبَل الجماعة اليهودية والحاخامية هناك حالت دون ذلك. وأصدر المؤتمر قرارات تُعرَف الآن باسم «برنامج بازل» الذي أصبح الوثيقة النظرية والعملية لأهداف الصهيونية حتى انعقاد المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرين (١٩٥٠).

وكان هدف المؤتمر هو وضع حجر الأساس لوطن قومي لليهود، وتأكيد أن المسألة اليهودية لا يمكن حلها من خلال التوطن البطيء أو التسلل (الذي يعتمد على جهود اليهود الذاتية) وإنما تحت مظلة إحدى الدول العظمى أو كلها وأنه لابد من الدخول في مفاوضات سياسية والحصول على ضمانات دولية واعتراف قانوني بالمشروع الاستيطاني من قبَل هذه الدول. وقد حدد المؤتمر ثلاثة أساليب مترابطة لتحقيق الهدف الصهيوني، وهي: تنمية استيطان فلسطين بالعمال الزراعيين، وتقوية وتنمية الوعي القومي اليهودي والثقافة اليهودية، ثم أخيراً اتخاذ إجراءات تمهيدية للحصول على الموافقة الدولية على تنفيذ المشروع الصهيوني.

بعد تحديد الأطر النظرية وبعض الخطوات العملية الواجب اتخاذها تم تأسيس الأداة التنظيمية التي تتولى تحقيق الأهداف الصهيونية التي جسَّدها برنامج بازل وتكون في الوقت نفسه بمنزلة هيئة رسمية تمثل الحركة الصهيونية في مفاوضاتها مع الدول الاستعمارية الرئيسية آنذاك من أجل استمالة إحداها لتبنِّي المشروع الصهيوني.

ولنلاحظ ما يلي:

١ - كان المؤتمر الصهيوني الأول مؤتمراً علنياً، حضره مراقبون غير يهود. وينطبق هذا على جميع المؤتمرات التالية، وآخرها المؤتمر الرابع والثلاثين الذي عُقد في يونيو ٢٠٠٢، حيث يحضر هذه المؤتمرات دائماً ممثلون لمختلف وسائل الإعلام وبعض الشخصيات العامة.

٢ ـ انطلقت قرارات المؤتمر لا من التلمود أو التوراة وإنما من إدراك كامل للموازنات الدولية وموازين القوى.

٣ ـ ركَّز المؤتمر على آليات تنفيذ المشروع الصهيوني (على عكس البروتوكولات التي التزمت الصمت بخصوص الآليات).

٤ ـ كما بيَّنا من قبل فإن فكرة "المؤامرة اليهودية" و"مؤتمر الحاخامات" ظهرت قبل عقد المؤتمر الصهيوني بعدة سنوات، لكن حَمَلَة فكر المؤامرة وجدوا أنه من المناسب أن تدمغ الفكرة الوهمية بالواقعة التاريخية.

٥ ـ لا شك أن الصهاينة لجأوا إلى الكذب والمخادعة والتآمر، فالمؤتمر أعلن أن الهدف هو إنشاء وطن قومي يهودي، مع أنه من المعروف أن النية كانت مبيَّتة من البداية لإنشاء "دولة يهودية". وهذا ما قاله هرتزل نفسه: اكتبوا "وطن قومي" وسيفهم الجميع أنها "دولة". وهذا نوع من المراوغة مفهوم تماماً في لغة السياسة والدبلوماسية، خاصةً من منظمة لم يكن لها قاعدة جماهيرية ولم يكن هناك بعد قوة إمبريالية تساندها.

ولم يذكر المؤتمر شيئاً عن أصحاب الأرض التي سيُقام عليها الوطن القومي أو الدولة اليهودية، وهذا ليس شكلاً من أشكال التآمر، وإنما هو نوعٌ من القصور الإدراكي الذي اتسمت به الرؤية الإمبريالية للعالم، التي رأت آسيا وأفريقيا باعتبارهما أرضاً بلا شعب، أو أرضاً مأهولة بسكان يمكن تحريكهم وتوظيفهم وإذلالهم. وإدراك الصهاينة لفلسطين باعتبارها "صهيون" وللفلسطينيين باعتبارهم "كنعانيين" أو "عماليق" يجب طردهم أو ربادتهم عن بكرة أبيهم، لا يختلف من قريب أو بعيد عن إدراك المستوطنين الأمريكيين الأوائل للهنود الحمر، مع فارق وحيد وهو أنه بينما نجح المستوطنون البيض في أمريكا الشمالية في إبادة الهنود الحمر، أخفق المستوطنون الصهاينة في إبادة الفلسطينيين (فقوتهم البروتوكولية ليست بلا حدود).

٦ ـ لا تذكر أي مراجع شيئاً عن النشرات التي يُقال إن هرتزل أصدرها بشأن **البروتوكولات** (ولا عن واقعة الصراخ واللطم بطبيعة الحال!). والواضح أنه لم يكن يعرف شيئاً عن **البروتوكولات**، إذ لم يُشر إليها أدنى إشارة في يومياته المفصَّلة التي دوَّن فيها أدق تفاصيل حياته[1].

ويمكن هنا أن نثير تساؤلاً جوهرياً: حينما يذكر البعض حقائق بمثل هذه الخطورة والأهمية، يؤسِّسون عليها رؤية كاملة للتاريخ والواقع، أليس من الضروري ذكر بعض المصادر التي وردت فيها هذه المعلومات، فهذه ليست "آراء" أو "رؤى" وإنما معلومات صلبة؟ ولكن معظم من يتحدثون عن أن **البروتوكولات** سرية وخطيرة، وأن مَن يترجمها يُقتل أو يموت في ظروف غامضة، أو أن المؤتمر الصهيوني الأول هو مؤتمر حكماء صهيون السري، لا يوثقون ما يقولونه ولا يذكرون بعض أسماء من قُتلوا، أو دور النشر التي دُمِّرت!

نبوءات وأكاذيب بروتوكولية صهيونية

يدَّعي البعض أن كل ما جاء في **البروتوكولات** قد تحقق بحذافيره أو في طريقه للتحقق، وأنها لو كانت وثيقة منحولة فإن صاحبها، يهودياً كان أم غير يهودي، هو محلل له نظرة ثاقبة ورؤية مستقبلية.

فعلى سبيل المثال أتى في مقدمة ترجمة **البروتوكولات** إلى الإنجليزية ما يلي: "إن تاريخ نشر **البروتوكولات** يُبرهن على أن الحرب العالمية، وشنق روسيا، والإضرابات، والثورات، والاغتيالات قد حدثت جميعاً ز«وفق خطة». كما يُبرهن على أن تلك الخطة لم تكن خطة ألمانيا ولا خطة إنجلترا ولا أية أمة أخرى، بل

---

(١) نُشرت يوميات هرتزل كاملةً في خمسة مجلدات، تحرير رافائيل باتاى:

Raphael Patan (Ed), **The Complete Diaries of Theodore Herzl**, trans. Harry Zohn, 5 Vols. (New York: Herzl Press and Thomas Yoseloff, 1960

كما نُشرت ترجمة أخرى لمختارات من اليوميات:

Marvin Lownthal (Ed. & Trans.), **Diaries of Theodore Herzl** (New York: Grasset and Dunlop, 1962).

هي خطة الأمة اليهودية بلغتها السرية التي قد كُشف عنها الآن بعد أمد طويل في **البروتوكولات** التي لا حاجة بنا إلى القول بأنها لم يُقصد منها أن تراها عيّون الأميين (غير اليهود).

" ويزعم اليهود. . . أن **البروتوكولات** مزيفة، ولكن الحرب العظمى [أي الحرب العالمية الأولى] ليست زوراً، ولا مصير روسيا زوراً [أي سقوط الحكم القيصري ونشوب الثورة البلشفية]، فقد تنبأ حكماء صهيون بهذين الأمرين منذ أمد طويل يرجع إلى سنة ١٩٠١ .

" والحرب العظمى لم تكن حرباً ألمانية، بل إنها مكيدة دبرتها اليهودية، والقتال اندلع بسبب اليهود [الذين أرادوا] تبادل ذخائر العالم. فاليهود [هم الذين] سخّروا كل قواد الجيوش وكل قواد الأساطيل. . . لقد قاد اليهود الحرب سواء في البر أو البحر، وحازوا «مغانم» الحرب لأنفسهم، وحصلوا على سلطة القيادة والتوجيه على كل المتحاربين من أجل اليهود" .

ويقدم كاتب هذه المقدمة بيانات معركة جتلاند برهاناً على ما يقول (ص١٣٦ - ١٣٧). إن حكماء صهيون تنبأوا بالثورة البلشفية وباندلاع الحرب العظمى، فهذا أمر تنبأ به الكثيرون من دارسي المجتمعات الغربية آنذاك، ولعل كتابات لينين عن الإمبريالية (باعتبارها أعلى مراحل الرأسمالية) تحوي كثيراً من هذه النبوءات، فدراسته كانت دراسة مستقبلية تستند إلى معطيات تاريخية واجتماعية واقتصادية، فهو لم يقرأ الفنجان ولم ينظر في الكرة البلورية. وتنبؤه بهذه الظواهر لا يجعله مسئولاً عنها محركاً لها. هذا على عكس كاتب المقدمة الذي يقرر، بنموذجه التفسيري الاختزالي، أن حكماء صهيون تنبأوا بهذه الأحداث لأنهم هم الذين دبروها وأعدوا لها.

ومن أطرف الأمثلة على ذلك تلك العبارة التي وردت في **البروتوكولات** " تجريد الشعب من السلاح هذه الأيام أعظم أهمية من دفعه إلى الحرب" (١٧٨/٥). وفي حوار جرى مؤخراً في إحدى الفضائيات تبرع أحد البروتوكوليين بالإشارة إلى أن هذه النبوءة أخذت في التحقُّق، وإلا فكيف نفسّر نزع سلاح

العراق؟ ولكن في عام ١٩٥١ استخدم الأستاذ التونسي في أحد هوامشه عبارات يُفهم منها أن النبوءة قد تحقَّقت في ذلك التاريخ: "وهذا ما تقاسيه بعض البلاد العربية الآن وهو من شر ما تُصاب به الشعوب من البلايا" (١٧٨/٥). فالنبوءة قد تحققت عام ١٩٥١ ثم عام ٢٠٠٢، مع أنني حسب خبرتي في النبوءات أعرف أنها تتحقق مرةً واحدة!

ولكن حتى لو كانت النبوءة قد صدقت عام ١٩٥١، فقد قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ بتكذيب النبوءة بأن عَقدت صفقة الأسلحة التشيكية عام ١٩٥٤ ثم عشرات الصفقات مع الاتحاد السوفيتي الذي ورَّد لنا أهم أسلحته وعتاده بأسعار معقولة، وحاربنا بهذا السلاح عام ١٩٧٣ وعبرنا، ولم نفكر ساعتها في **البروتوكولات** وفي نبوءاتها التي تتحقق عدة مرات حسب المزاج والطلب! وهل قرَّر بوش الابن نزع سلاح العراق بعد أن قرأ **البروتوكولات**، أم أنه قام بعدة حسابات فوجد أن الولايات المتحدة هي القوة العسكرية العظمى الوحيدة في العالم، وأنه إن هاجم العراق فكثير من النظم العربية ستقف موقف المتفرج بل وسيوفر له بعضها التسهيلات العسكرية اللازمة، وأنه من خلال هذا الغزو سوف يستكمل هيمنته على مصادر البترول؟ ولماذا لَمْ ينجح حكماء صهيون في أن يمنعوا باكستان من تطوير سلاحها النووي، على الرغم من أنه بلد إسلامي معاد للجيب الصهيوني؟ ولماذ لم ينجحوا في نزع سلاح المتنفضين ابتداءً من الحجارة وانتهاءً بصواريخ قسام١ وقسام٢؟

ونحن نعرف أن الحرب القادمة ستكون حول المياه، ومع هذا لم تذكر **البروتوكولات** أي نبوءة عنها، ولم تقل شيئاً عن تحرُّك "اليهود" للاستيلاء على منابع النيل عن طريق ضمان وجود حكومات عميلة في إثيوبيا وأوغندا. فماذا حدث لمقدرات حكيم حكماء صهيون البروتوكولية؟ كما أن الصهاينة وأصدقائهم لا يكفون عن الحديث عن الهولوكوست، أي الإبادة النازية لليهود، ويعدونها أهم حدث في تاريخ اليهود في العصر الحديث، ومع هذا لم يتنبأ بها حكيم حكماء صهيون بل إنه توقع العكس تماما (انظر ص٥٨-٥٩).

وعادةً ما يتصور حَمَلَة فكر المؤامرة أن الدولة الصهيونية هي الحكومة العالمية وأنها تنفذ المخطط البروتوكولي، وهم عادةً ما يشيرون إلى نبوءة هرتزل أن الدولة الصهيونية ستتحقق بعد خمسين عاماً، ثم يهزون رأسهم في حكمة بالغة ويقولون إنها قد تحققت بالفعل في ذلك التاريخ، بل يضيفون إن كل نبوءات اليهود بخصوص الشرق الأوسط قد تحققت أو على الأقل آخذة في التحقق، ثم يشفعون ذلك بالإشارة الحتمية إلى دقة التخطيط الصهيوني ومقدرات الصهاينة العجائبية. وهم عادةً ما يقولون إن الرؤية الصهيونية مبنية على تحليل موضوعي علمي دقيق صلب للواقع، أو أن اليهود يتحكمون في كل شيء، وبالتالي فالنبوءة الصهيونية هي نبوءات علماء دارسين للواقع، عارفين به، ونبوءات أناس يسيطرون على العالم، أي أنهم يسقطون تماماً في الرؤية البروتوكولية لليهود!

ولكن الطريف أن بعض مروجي الفكر البروتوكولي في الغرب، وفي الولايات المتحدة خاصةً، يرون أن نبوءة الحكومة العالمية قد تحققت في صورة الأمم المتحدة، وأن اضطرار الولايات المتحدة إلى قبول بعض قرارات المنظمة الدولية هو نوع من الخضوع لهذه الحكومة الأخطبوطية الشريرة[١]. وهناك في المقابل من يرى أن العولمة هي شكل الحكومة العالمية التي أنشأها اليهود للسيطرة على العالم[٢]. وأمام هذه الآراء المتضاربة عن "تحقُّق" النبوءة لم نعد ندري ما هو المقصود بأن كل نبوءات **البروتوكولات** صحيحة وحقيقية.

ولعل كثيراً من هؤلاء الذين يرتدون رداء الموضوعية هم في واقع الأمر مهزومون مغرمون بجمع المعلومات والنبوءات التي تبين مدى قوة العدو وبطشه ودقته وسيطرته وتحكمه، ولذا نجدهم يرصدون نوعاً واحداً من القرائن دون غيره، أي أنهم ليسوا موضوعيين بما فيه الكفاية، ولذا فهم لا يذكرون النبوءات الصهيونية

(١) انظر، على سبيل المثال، المقال التالي على شبكة الإنترنت:
"Clinton Continues to Surrender U.S. Sovereignty to the United Nations!"
http://www.cuttingedge.org/n1121.cfm

(٢) انظر، على سبيل المثال، آراء إرنست زندل Ernst Zundel في الموقع التالي:
http://www.lebensraum.org/english/zgrams/zg1997/zg9709/970912.htm

التي لم تتحقق، ولنبدأ بالأهداف الاستراتيجية الصهيونية، التي أخفق الصهاينة في تحقيقها:

١ ـ تنبأ بعض الصهاينة بأن دولتهم اليهودية ستمتد من النيل إلى الفرات وقال هرتزل: "شعارنا هو فلسطين داود وسليمان". وقد أكد له صديقه ماكس بودنهايمر أن المساحة التي يطلبها الصهاينة هي "من وادي النيل إلى الفرات". ولفترة من الزمن كان هذا هو الهدف الصهيوني، ولكن تدريجياً تقلَّص هذا الوهم، خاصةً مع اكتشاف الصهاينة أن احتلال أرض عربية تتسم بالكثافة السكانية ليس أمراً هيناً، وأنه يحتاج إلى قوة احتلال عسكرية نظامية كبيرة لا يمكن لإسرائيل أن تحتفظ بها، خاصةً مع تصاعُد المقاومة العربية المستمر. ولذا انكمش الحلم الصهيوني وبدءوا يتحدثون عن الأمن الصهيوني الذي يمتد من النهر (نهر الأردن) إلى البحر (البحر الأبيض المتوسط)، وبدأ الحديث عن إسرائيل العظمى اقتصادياً بدلاً من إسرائيل الكبرى جغرافياً!

٢ ـ تنبأ الصهاينة بأن الحركة الصهيونية ستقوم بجمع شمل المشتَّتين اليهود. ولكن هذا الهدف لم يتحقق من قريب أو بعيد. فإسرائيل لا تزال دولة أقلية نظراً لأن يهود العالم ـ خاصةً يهود أمريكا المندمجين ـ يرفضون تنفيذ النبوءة الصهيونية بالهجرة إلى أرض الميعاد، مكتفين بالتشوق الدائم لها، ولا يزال مركز الدينامية بالنسبة لهم هو دولهم التي يعيشون فيها، وليس الدولة التي تُسمَّى «يهودية». وقد تكيَّف الصهاينة مع هذا الوضع، ولذا تنازلوا عن شعارات مثل «جمع المنفيين»، ولم تَعُد المنظمة الصهيونية تطلب من يهود العالم الغربي الهجرة إليها، ولم تَعُد تتبع الأسلوب العقائدي العدواني الذي كانت تستخدمه في الماضي معهم. ومن هنا الحديث عن «الصهيونية التكنولوجية» أو «الإلكترونية» أو «صهيونية الدياسبورا» (بدلاً من «نفي الدياسبورا»)، أي أن الحركة الصهيونية قد قبلت بأمر واقع مفاده أن اليهود ليسوا شعباً واحداً وأن إسرائيل ليست وطنهم الوحيد وأن يهود المنفى لهم حق البقاء فيه على أن يساهموا في بناء الدولة الصهيونية بأي شكل بما في ذلك إرسال إسهاماتهم بالبريد الإلكتروني، ومن هنا

قبول الصهيونية التوطينية، ومحاولة توظيف يهود «المنفى» في منفاهم، أي أوطانهم.

٣ ـ تنبأ الصهاينة أنهم سيؤسسون دولة يهودية توفر حياة سوية للشعب اليهودي، خالية من الهامشية والطفيلية. وأن اليهود سيحققون انعتاقهم بجهودهم الذاتية. وما حدث هو أنه تم تأسيس دولة صهيونية من خلال القوى الإمبريالية، وهي دولة تعيش على المعونات ولا يمكن لها أن تحقق البقاء دون الدعم المالي والسياسي والعسكري الأمريكي الغربي.

٤ ـ لا يزال بعض أفراد الجماعات اليهودية في بلدان العالم يعانون مما يسميه الصهاينة ومعادو السامية «ازدواج الولاء الحضاري والسياسي». وقد عمَّق إنشاء دولة إسرائيل هذا الازدواج، لأن ولاءات اليهود الآن موزَّعة بين دولتين قد ينشأ بينهما تناقض في المصالح والقيم (كما كان الحال بالنسبة لليهود السوفييت، ويهود الكتلة الشرقية عامة).

٥ ـ الدولة اليهودية التي شيَّدها الصهاينة ليست هي المدينة الفاضلة التي تحدَّث عنها المفكرون الصهاينة بل إنها بعيدة كل البعد عن أن تكون دولة «أمة الروح» التي تقدِّم لأمم الأرض مثلاً يُحتذى، إنها في واقع الأمر ثكنات عسكرية ضخمة منظمة تنظيماً عسكرياً رهيباً لم يعرف مثله التاريخ الحديث حتى ولا في ألمانيا النازية. وفي الآونة الأخيرة أصبحت بؤرة من بؤر الاستهلاكية، يدور أحلام سكانها حول الثلاثة V: الڤيديو والڤولڤو والڤيلا (حسبما جاء في إحدى الصحف الإسرائيلية).

٦ ـ ادعى الصهاينة أن المجتمع الصهيوني (اليهودي) سيكون مختلفاً عن المجتمعات الأخرى، بسبب شخصية اليهود الفريدة. ولكن المجتمع الإسرائيلي يواجه معظم المشاكل التي يواجهها أي مجتمع صناعي حديث، وبذا تبخَّرت فكرة الشعب المختار الفريد بعد مواجهة قصيرة مع الواقع العملي. لقد أثبت الواقع أن مزاعم الصهاينة هي نتاج رؤيتهم الأسطورية، وأنها لا علاقة لها بأبعاد ما يسمونه الشخصية اليهودية. ويلاحظ كثير من المفكرين أن الدولة اليهودية لم

تنجح حتى الآن في إنتاج مفكر يهودي واحد له ثقل كبير (مع العلم بأنه لا يمكننا أن نَعد مارتن بوبر إسرائيلياً، فثقافته ألمانية)، ولهذا لا يزال يهود العالم منفصلين روحياً عنها تمام الانفصال. بل ويفضّل كثير من الباحثين الآن أن يميّزوا بين اليهود (خارج فلسطين المحتلة) والإسرائيليين (وخاصةً الصابرا)، باعتبار أن الحضارة الإسرائيلية الحديثة نتاج ظروف مختلفة عن الظروف التي شكّلت أعضاء الجماعات اليهودية في العالم.

٧ ـ تدّعي الصهيونية أنها حركة "إنقاذ" لليهود من الاضطهاد والمخاطر التي تحيق بهم في بلدان العالم المختلفة، وأنها ستحقّق لهم الأمن. ولكن بعد تأسيس إسرائيل زادت الهجمات على أعضاء الجماعات اليهودية، كما أن أعضاء التجمّع الصهيوني ذاته تسيطر عليهم عقلية الأقلية الفزعة: من تطرّف وخوف دائم وتمجيد زائد لكل ما يتصل بهم وبتراثهم. ولعل رفض يهود العالم التصرّف حسب النبوءة الصهيونية هو الذي تسبّب في الأزمة الاستيطانية، أي حاجة المستوطن الصهيوني إلى مادة بشرية قتالية ليقوم بوظيفته، وفشله المستمر في الحصول عليها.

٨ ـ تنبأ الرواد الصهاينة بأنه سيتم تطبيع اليهود بحيث يصبحون شعباً واحداً متحداً مثل كل الشعوب. ولكن أثبتت الأيام أن التجمّع الصهيوني قد أخفق في إنجاز ما يسميه الصهاينة «ميزوج جاليوت» أي «مزج يهود المنفى» وما حدث هو أنه وصلت جماعات يهودية مختلفة ظلت محتفظة بعقائدها الدينية وعاداتها الشعبية. ولذا لا يمكن القول بأن إسرائيل تضم شعباً إسرائيلياً، وإنما تضم تجمّعات إثنية ودينية مختلفة. فيهود الفلاشاه الذين يتحدثون الأمهرية وينتمون إلى الحضارة الإفريقية يختلفون بشكل جوهري عن المهاجرين اليهود من الولايات المتحدة، وكلا الفريقين يختلف عن المستوطنين المرتزقة الوافدين من الاتحاد السوفيتي، الذين يضمون عدداً كبيراً من اليهود غير اليهود (أي اليهود الذين فَقَدوا هُويتهم الدينية والإثنية) بل ومن الأغيار من غير اليهود. وإلى جانب كل هؤلاء توجد الكتلة البشرية الوافدة من المغرب، والتي تشعر بكيانها المستقل كمّاً وكيفاً وتحاول أن يُسمع صوتها داخل النظام السياسي الإسرائيلي،

بل ويُقال إنها، بسبب يهوديتها الواضحة، تفكر جدياً في قيادته لتحل محل القيادة العمالية العلمانية المهترئة. ولم يخفق الصهاينة في مزج المنفيين وحسب، ولا في تخليق شعب واحد، بل فشلوا تماماً في تعريف اليهودي. (يُلاحَظ أن قضية «مَنْ هو اليهودي» مُثارة دائماً على جدول أعمال جميع المؤتمرات الصهيونية).

٩ ـ تنبأ الصهاينة بأن الدولة الصهيونية ستكون بمنزلة مركز روحي يمنع يهود العالم من الاندماج في مجتمعاتهم، وبالتالي يحافظ على هُويتهم. ولكن الشباب من أعضاء الجماعات اليهودية في العالم الغربي يتجه نحو الحضارة السائدة، وهي حضارة لاتساعدهم البتة مثل تطوير جوهرهم اليهودي المزعوم لأنها حضارة عملية علمانية. كما أن أعداداً كبيرة من الشباب اليهودي المتمرد ينخرط في سلك الحركات اليسارية، وهي حركات دولية معادية للمفاهيم الصهيونية الضيقة، وخاصةً أن الصهيونية الآن غير قادرة على أن تبرز واجهة يسارية (كما كانت تفعل في الماضي)، ولذا فهي تقدِّم إسرائيل باعتبارها بلد المشاريع الرأسمالية الخاصة. ومن ثَمَّ فقد أخفق الصهاينة أيضاً في تحرير اليهود من «منفى الروح»، ولم تنجح الصهيونية في منع الشباب اليهودي من الانضمام للحركات الاشتراكية اليسارية (كما كانت تزعم).

١ ـ بل يلاحظ داخل المستوطن الإسرائيلي أن نموذج الصابرا الجديد (أي الشباب الإسرائيلي الذي وُلد على أرض فلسطين المحتلة) يكن الاحتقار الشديد لنموذج يهودي الدياسبورا (أي يهود العالم خارج فلسطين) الذي تتسم حياته بالسلبية وبالتقبُّل لحكم الجوييم (الأغيار). وقد ظهر هذا الاحتقار بصورة خاصة أثناء محاكمات أيخمان في تل أبيب حيث تبيَّن الجيل الجديد الإسرائيلي كيف أن اليهود ذُبحوا ذبح الشاة دون مقاومة أو كفاح. وبينما يتهم الصهاينة يهود المنفى بأنهم لا يَشتغلون إلا بالأمور الكتابية والفكرية، نجد أن جيل الصابرا معاد للعقل (أي أنه صهيوني حتى النخاع)، كما أنه معاد للفكر الإنساني عامة، وَهو في هذا نتاج حقيقي للفكر الصهيوني أيضاً، خاصّةً الصهيونية السياسية العملية،

التي تعادي الأخلاق والفكر والتنظير، مفضّلة اللجوء إلى الفعل، والفعل السريع الذي يخلق "حقائق جديدة" على حد تعبير موشي ديان. وجيل الصابرا هو جيل حضارة التكنولوچيا الذي لا يكترث بالتراث، كما أنه جيل تُسيطر عليه الثقافة الشعبية ذات الصبغة الأمريكية. ولذا تنتشر في إسرائيل أفلام رعاة البقر وأفلام الجريمة والإثارة الجنسية.

١١ ـ ولكن من أهم أوجه فشل الصهاينة في التنبؤ هو سقوط الأيديولوچية الصهيونية ذاتها كإطار يُدرك المستوطنون الواقع من خلاله، وكرؤية توجّه سلوكهم وتحدّد أولوياتهم. فلم يعد يهود العالم يرون أن الصهيونية أيديولوچية لها أي مغزى بالنسبة لحياتهم في أوطانهم، ولم يعد المستوطنون يجدون أن لها علاقة بواقعهم، حتى أصبحت كلمة «تسيونوت» تعني «كلاماً لا معنى له».

وهناك عدد آخر من النبوءات الصهيونية المرتبطة تماماً بالأهداف الاستراتيجية الصهيونية والتي لم تتحقق:

١ ـ ماذا عن نبوءة هرتزل بأن «ألمانيا العظيمة القوية» هي التي ستقوم برعاية المشروع الصهيوني وحماية اليهود "ووضعهم تحت جناحيها" كما قال بالحرف الواحد في يومياته؟(٤) وكلنا يعرف أن ألمانيا العظيمة هذه وضعتهم في أفران الغاز وفتكت بهم وبغيرهم، بعد مرور حوالي ثلاثين عاماً من نبوءته لا أكثر ولا أقل!

٢ ـ ماذا عن نبوءة بن جوريون الذي قال: "إن عقب أخيل [أي نقطة الضعف] في الائتلاف العربي هو سيادة المسلمين في لبنان، وهي سيادة زائفة يمكن بسهولة قهرها. ويجب قيام دولة مسيحية هناك، بحيث تكون حدودها الجنوبية على نهر الليطاني، وسنكون على استعداد لتوقيع معاهدة مع هذه الدولة. وبعد أن نكسر الفيلق العربي ونضرب عمّان بالقنابل، سوف يكون بإمكاننا إزالة دولة الأردن، وبعد ذلك سوف تسقط سوريا، وإذا اجترأت مصر على محاربتنا فسوف

---

(1) Lownthal, **Diaries of Theodore Herzl**, p. 56.

نقصف بورسعيد والإسكندرية والقاهرة، وهكذا ننهي الحرب ونقضي قضاءً مبرماً على مصر، وآشور كلدانيا بالنيابة عن أسلافنا»[1].

ومن الواضح أن النبي الصهيوني الدجال قد اكتسحته رؤاه الشاملة الحلوة وأسكرته، فلبنان لم تقم فيها دولة مسيحية أو إسلامية وإنما دولة عربية، وهذه الدولة العربية هي إحدى مراكز المقاومة والنضال العربي، وحيث إن هذه الدولة «العربية العميلة» التي كان يحلم بها الزعيم الصهيوني لم تقم فهو بالتالي لم يوقع معها معاهدة، بل طردت إسرائيل منها بعد أن قامت المقاومة اللبنانية، بمسلميها ومسيحييها، بالتصدي لها وإحداث نزيف مستمر لها. أما ضرب عمّان بالقنابل (بهدف تحطيم إرادة إمارة شرق الأردن) فمسار التاريخ كان من العناد بحيث لم يتحقق، وسوريا لا تزال شامخة أبية، ومصر العربية الفتاة العجوز تحمَّلت ضربات القنابل إلى أن انتفضت في حرب الاستنزاف ثم في أكتوبر ١٩٧٣ وردّت الغاصب على عقبيه. ونسي النبي الصهيوني فيما نسي تلك الصخرة الصامدة فلسطين ذاتَها وأصحابها من الفلسطينيين. ولكن أنَّى للنبي أن يتنبأ بهذا وهو المشغول بمصر الفرعونية وآشور وكلدانيا يحارب جيوشها ويهزمها في أحلامه الصهيونية الجيتوية الشرسة؟

٣- تنبأ الصهاينة أنهم يمكنهم شراء فلسطين. وقد قدَّر هرتزل ثمنها بمليوني جنيه فقط لا غير! . وكان الزعيم الصهيوني موشيه ليلينبلوم يرى أنه يمكن حل المسألة اليهودية عن طريق شراء فلسطين وأنه «لا توجد قوة أوربية تفكر في منع اليهود من شراء أرض أجدادهم مرةً أخرى» . وكان يوقن تماماً أن تركيا سترد لهم وطنهم نظير حفنة من الذهب. وهي نبوءة لم تتحقق، فالقوى الأوربية لم تمنعه حقاً من «شراء» فلسطين، ولكن الدولة العثمانية رفضت، كما أن انتفاضات الفلسطينيين المستمرة أثبتت أن فلسطين ليست للبيع أو الإيجار! وتصور

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن آراء بن جوريون ونبوءاته، انظر:
عبد الوهاب المسيري، **الصهيونية واليهودية وإسرائيل** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٥)، ص ص. ١٢٧-١٦٢.

ليلينبلوم لفكرة شراء الوطن ليست مغايرة لفكرة المفكر الصهيوني "الاشتراكي" موسى هس الذي قال: "على رجالنا الأغنياء أن يبدءوا بشراء العقارات في تلك الأرض، ولو ببعض ما يملكون من ثروة، وما دام هؤلاء لا يرغبون في ترك أراضيهم التي يسكنونها الآن، فليشتر كل منهم قطعة أرض في أرض إسرائيل ببعض من مالهم حيث تُعطى هذه الأراضي لمن يستغلها على أساس اتفاقية بشأن العائد (أو الربح) مع الشاري". ويرى مفكر صهيوني آخر، ليو بنسكر، أن حل المسألة اليهودية يتلخص في تأسيس شركة مساهمة لشراء قطعة أرض تتسع لعدة ملايين من اليهود يسكنون فيها مع مرور الزمن.

٤ ـ حاول الصهاينة الاستيلاء على حائط المبكى (أو حائط البراق) أيضاً عن طريق الشراء في بادئ الأمر، ومن تلك المحاولات محاولة الحاخام عبد الله (حاخام الهند) شراء الحائط عام ١٨٥٠. وفي عام ١٨٨٧، حاول البارون دي روتشيلد شراء الحي المجاور للحائط لإخلائه من السكان واقترح أن تشتري إدارة الوقف أرضاً أخرى بالأموال التي ستحصل عليها، وتوطن السكان فيها، وهو حل يحمل كل ملامح الحلول الصهيونية (الترانسفير)، وقد رُفض طلبه كذلك. وقبل الحرب العالمية الأولى، قام البنك الأنجلو فلسطيني بمحاولات "جادة" لشراء الحائط كما قام الصهاينة بمحاولات للاستيلاء عليه، أو التسلل إلى منطقة هضبة الحرم عن طريق تقديم رشاوي، أولاً للحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين حيث عرضوا عليه نصف مليون جنيه استرليني، ثم عُرض على الشيخ سعيد العلمي مبلغ مليون دولار. ولكن النبوءة الصهيونية العقارية ـ كما نعرف جميعاً ـ لم تتحقق.

٥ ـ هناك نبوءات صهيونية أخرى أقل شمولاً واتساعاً، فقد تنبأ بعض الخبراء الصهاينة أن يهود الأرجنتين الذين يبلغ عددهم حوالي ٣٠٠ ألف (وبالتالي هم أكبر تجمُّع يهودي في أمريكا اللاتينية) سيهاجرون إلى إسرائيل. وأمريكا اللاتينية تُعتبر إحدى مناطق النزوح، أي أنها بلد طاردة لليهود وليست جاذبة لهم. وهذا يعود لعدة أسباب من بينها رفض الحضارة اللاتينية لليهود ومقدرتها

في الوقت نفسه على هضمهم، ومن بينها أيضاً تقاليد معاداة اليهود الراسخة، وعدم الاستقرار السياسي أو الاقتصادي لبلاد القارة. وقد جاء انتخاب كارلوس منعم رئيساً للأرجنتين، بخلفيته الإثنية العربية، فزاد من مخاوف اليهود فيها، وبخاصة أن منافسه ألفونسين كان متعاطفاً مع أعضاء الجماعة. لكل هذا أطلق الصهاينة النبوءات بأن «هجرة جماعية» ستبدأ لا محالة من الأرجنتين إلى إسرائيل.

ولكن الذي حدث بالفعل خيَّب أمل الصهاينة إذ لم يهاجر سوى بضع مئات، عادوا بعدها إلى بلادهم، وتوجه بعضهم إلى الولايات المتحدة، البلد الذي يشكل نقطة الجذب الأساسية بالنسبة للغالبية الساحقة من يهود العالم، وصرح دوف شيكلانسكي، المتحدث باسم الكنيست وأحد زعماء الليكود، أن يهود الأرجنتين لم يستعموا إلى نصائحه (نبوءاته) الصهيونية (**ميامي جويش تلغراف** ٣ أغسطس ١٩٨٩).

٦ - صرح متيتياهو دروبلس (رئيس قسم الاستيطان السابق في الوكالة اليهودية) عام ١٩٨٢ بأن عدد المستوطنين الصهاينة في الضفة الغربية سيصل إلى ١٠٠ ألف عام ١٩٨٧ وأنه بحلول عام ٢٠١٠ ستضم الضفة الغربية ١,٢٥٠,٠٠٠ يهودي! ونُشرت النبوءات بحذافيرها في كثير من الصحف العربية، وزينت المعلومة صفحاتها وعناوينها الرئيسية. ولكن بحلول عام ١٩٨٧ لم يكن عدد المستوطنين قد تجاوز ٥٠ - ٦٠ ألفاً، أي أن نبوءة دروبلس أو مخططه فشل تماماً! ومع هذا صرح هذا المسئول الصهيوني نفسه في ذلك العام نفسه (١٩٨٧) بأن هناك خطة [علمية جهنمية] مدروسة لزيادة عدد المستوطنين اليهود في الضفة الغربية وغزة لتبلغ نسبتهم ٤٠٪ من مجموع عدد السكان العرب في نهاية القرن الحالي، أي ٦٠٠ ألف مستوطن. ثم أشار إلى أن هذه الخطة تفترض هجرة مليون ونصف مليون يهودي من الاتحاد السوفيتي.

وقد نُشرت النبوءة بحذافيرها مرةً أخرى في كثير من الصحف العربية، كما زيَّنت المعلومة الجديدة صفحاتها وعناوينها الرئيسية، ولكن لم يكلف أحد خاطره

بأن يذكر كذبة دروبلس السابقة حتى نتحفظ تجاه تصريحاته (نبوءاته) الجديدة، ولم يطرح أحد احتمال أنه قد يكون مثل سائر البشر يخلط الحقائق بالأماني والحقيقة بالوهم، وأنه قد لا يختلف كثيراً عن المخابرات الإسرائيلية التي استمرت في إنكار وجود انتفاضة ١٩٨٧ بعد شهر من اندلاعها، والتي أعلنت أنه تم إخمادها بشكل نهائي - عشر مرات قبل أن توقن أنها ظاهرة مستمرة.

ولنذكر أخيراً بعض نقاط الإخفاق الكثيرة التي ارتكبتها المخابرات الإسرائيلية:

١ - ظهر أول فشل للمخابرات الإسرائيلية في فضيحة لافون حينما اكتشف المصريون شبكة التجسس التي كانت تحاول تخريب العلاقات بين مصر والولايات المتحدة، وقد تملَّص بن جوريون من المسئولية وألصقها بلافون.

٢ - فشلت المخابرات الإسرائيلية في معرفة أي شيء عن صفقة الأسلحة التشيكية مع مصر قبل وقوعها.

٣ - اكتشاف الدور التخريبي الذي كانت تقوم به المخابرات الإسرائيلية ضد العلماء الألمان بإرسالها المظروفات المتفجرة. فقد قبضت الشرطة السويسرية في عام ١٩٦٣ على يوسف بنجال من المخابرات الإسرائيلية والمهندس النمساوي أوتوجوليك بتهمة الضغط على ابنة أحد العلماء الألمان لتحمل والدها على ترك العمل في مصر، كما اكتشفت أن المخابرات الإسرائيلية هي المسئولة عن اختطاف الدكتور هانز كروج والمهندس دولفجانج بيلز واختفائهما، وكذلك محاولة اغتيال الدكتور والتركلين، وكلهم من العلماء الألمان. وكعادته حاول بن جوريون التملُّص فألصق التهمة بايسير هارئيل رئيس الشين بيت (الشاباك)، مع أنه من المعروف أن هارئيل ما كان ليتصرف على هذا النحو دون أوامر من بن جوريون. وقد استقال هارئيل احتجاجاً على مسلك بن جوريون وإن كان لم يحاول إظهار حقيقة الأمر كما فعل لافون.

٤ - فوجئت الاستخبارات أيضاً بعملية مطار اللد التي اشترك فيها يابانيون على

الرغم من توفُّر معلومات عن وجود أجانب بين الفدائيين، وعن علاقات المنظمات الفلسطينية بمنظمات عسكرية من دول مختلفة.

٥ ـ فشلت المخابرات الإسرائيلية في مكافحة اختطاف الطائرات وفي حماية بعض عملائها في الخارج.

٦ ـ ولكن الخطأ الأكبر هو خطأ حرب عيد يوم الغفران، حينما فوجئت إسرائيل بالعبور العربي المصري السوري العظيم، وقد عدَّد زئيف شيف المعلِّق العسكري الإسرائيلي مواطن الخطأ والقصور في عدة نقاط نورد منها ما يلي:

(أ) توهمت إسرائيل أن العرب غير قادرين على الحرب وقد هدَّدت إسرائيل بأنه لو بدأ العرب بحرب محدودة فستقوم إسرائيل بحرب شاملة، وما لم تتصوره إسرائيل هو أن العرب قد يشنون هم أنفسهم حرباً شاملة.

(ب) لم تتمكن إسرائيل من التنبؤ بالحرب البترولية الشاملة.

(جـ) لم تتصور إسرائيل أنها ستحتاج لمساعدات ضخمة من الولايات المتحدة منذ اليوم الثالث للحرب.

(د) تصوُّر أن القوات الإسرائيلية ستحقق انتصاراً ساحقاً ماحقاً على القوات العربية في أول يوم، وقد سلكت القوات الإسرائيلية في ضوء هذا التصوُّر.

(هـ) لم تقدِّر المخابرات الإسرائيلية قُدرة المصريين على تنفيذ عملية عبور ناجحة ونقل عدة فرق مشاة وبعدها فرق مدرعة إلى ما وراء القناة، خلال ساعات معدودة، كما لم تقدِّر بصورة سليمة، كفاءة سلاح المهندسين المصري والأسلحة المساعدة الأخرى.

(و) لم تقدِّر المخابرات الإسرائيلية المقدرة القتالية لسلاح المشاة المصري تقديراً صحيحاً خصوصاً قدرته على مواجهة المدرعات التي تهاجمه، كما أنها لم تعرف شيئاً عن إقامة وحدات من صائدي الدبابات في الجيش المصري.

(ز) لم تعرف المخابرات الإسرائيلية بكميات الأسلحة المضادة للدبابات التي

وزّعت على وحدات المشاة، كما لم تقدَّر كما يجب، تأثير كميات الأسلحة هذه في أساليب القتال وطابعه.

٧- أخفقت المخابرات الإسرائيلية في تقدير حجم المقاومة اللبنانية للغزو الإسرائيلي للبنان، ثم المحاولة الصهيونية للتخندق فيما سموه «الحزام الأمني».

٨- أخفقت المخابرات الإسرائيلية في التنبؤ بانتفاضة ١٩٨٧، واستمرت في تسميتها «اضطرابات» لعدة شهور.

٩- وأخيراً توهمت المخابرات الإسرائيلية أن ما يسمَّى «عملية السلام» ستُخدِّر الفلسطينيين والشعب العربي، وفوجئت باندلاع انتفاضة الأقصى، وبحجم التأييد الشعبي العربي لها.

١٠- أخفقت المخابرات الإسرائيلية في التوصُّل لمدبري عملية نسف السفارة الإسرائيلية في بيونس أيريس عام ١٩٩٢ وعملية نسف المركز الثقافي اليهودي عام ١٩٩٤ والذي راح ضحيته ١١٥ نسمة.

١١- أخفقت المخابرات الإسرائيلية في عملية اغتيال خالد مشعل.

١٢- أخفقت المخابرات الإسرائيلية في التحذير مما حدث في مومباسا في كينيا (تفجير فندق بارادايز) مع أن المخابرات الاشتراكية والألمانية قد وصلها تحذيرات من احتمال وقوع عملية في نوفمبر في هذه المنطقة.

١٣- يبدو أن المخابرات الإسرائيلية قد أخفقت أيضاً في تأسيس خلية من الخونة الفلسطينيين المتعاونين مع الصهاينة تُنسب للقاعدة ليتم تبرير مزيد من البطش الصهيوني.

١٤- تنبأ شارون بأنه سينهي انتفاضة الأقصى خلال مائة يوم، أي ثلاثة أشهر وعشرة أيام فقط لا غير، وقد مر أكثر من عام على نبوءة الدجال، والمقاومة تتزايد وإبداع المتفضين يتصاعد.

ويمكن أن نستمر في ذكر أوجه الفشل الصهيوني في التنبؤ، ولكن مثل هذا

الأمر قد يبعث على الملل، خاصةً بعد أن ذكرنا عشرات النبوءات الفاشلة. ولكن ما يهمنا في هذا الأمر أن نبيِّن أن مَنْ يتحدث عن النبوءات الصهيونية التي تحققت لم يدرس الأمر بما فيه الكفاية ولم يقدِّم الصورة الكلية، فوقع صريع الرؤية الصهيونية التي تجتزئ الواقع، وتركز على بعض الجوانب وتتجاهل الجوانب الأخرى لتضم من قوة الكيان الصهيوني ولتبث الرعب في قلوبنا، وهذا ما تفعله **البروتوكولات**، وهذا ما يفعله من يقضون سحابة يومهم في قراءة هذه الوثيقة التافهة ليدللوا على أن كل ما ورد فيها حقيقي، وأن كل النبوءات التي تضمنتها تحققت أو في طريقها إلى التحقُّق، بدلاً من أن يثقوا في أنفسهم ويتوكلوا على الله ويدرسوا آليات التصدي للجيب الصهيوني ولحليفته الكبرى الولايات المتحدة.

الفصل الرابع
الصهيونية الاستعمارية الغربية

يرى حَمَلة فكر المؤامرة أنه يجب تصعيد الكراهية ضد اليهود كجزء من حربنا ضد الصهيونية. وهنا لابد أن نطرح القضية بشكل أوسع، فثمة خلل تصنيفي أساسي للظاهرة الصهيونية، إذ يصر الكثيرون على أنها ظاهرة يهودية لا يمكن أن تُفهم إلا في إطار يهودي وبالعودة إلى التوراة والتلمود و **البروتوكولات**، وأن العالم الغربي يساند الدولة الصهيونية لأنهم "يحبون" اليهود ولأنهم ينطلقون من التراث اليهودي/ المسيحي المشترك. ولكن الدراسة الفاحصة ستبيِّن أن العكس هو الصحيح، فالصهيونية ظاهرة غربية تماماً من الناحية النظرية والتطبيقية. فالفكر الصهيوني تبلور على يد مفكرين غير يهود قبل أن يظهر مفكرون صهاينة بين اليهود. كما أن إطاره المرجعي غربي: العنصرية الغربية ـ معاداة السامية ـ الإمبريالية ـ الداروينية ـ النيتشوية (كما سنبيِّن فيما بعد).

والفكر الصهيوني، سواء كان يهودياً أم غير يهودي، نتاج ما نسميه «الحل الاستعماري لمسألة أوربا اليهودية»، الذي يصدر عن كُره اليهود والرغبة في التخلص منهم عن طريق نقلهم خارج العالم الغربي (أي تصديرهم مثلما تُصدَّر السلع البائرة ورؤوس الأموال والجيوش) ثم توظيفهم لصالح العالم الغربي (مثل تسخيره للشرق وتحويله إلى سوق ومصدر للمواد الخام العمالة الرخيصة). وقد استقر الأمر، في النهاية، على فلسطين، بسبب موقعها الاستراتيجي، بحيث تم توظيف حل المسألة اليهودية (أي التخلُّص من الفائض البشري اليهودي) في حل المسألة الشرقية (أي كيفية تقسيم الدولة العثمانية وتقسيم العالم الإسلامي). وفي هذا الفصل سنتكشف هذه الأبعاد للفكر الصهيوني.

قد يُدهَش بعض القرّاء حينما يعرفون أن الأيديولوچية الصهيونية نبتت في تربة غير يهودية ثم تحدَّدت معالمها الأساسية في منتصف القرن التاسع عشر على يد مفكرين صهاينة غير يهود يكنون كراهية عميقة لليهود، ثم تبنته بعض القيادات اليهودية (التي تكره اليهود أيضاً) في أواخر القرن التاسع عشر. ففي بدايات القرن السابع عشر ظهر ضرب من الصهيونية غير اليهودية («صهيونية الأغيار» أو «الصهيونية المسيحية»)، وهي حركة الاسترجاع المسيحية التي كانت تطالب بإعادة اليهود إلى «أرضهم الأم». ولأن الأفكار الدينية لا توجد بمعزل عن التحولات الاجتماعية، فليس من الغريب أن الحركات الاسترجاعية في أوربا، خاصةً في الدول البروتستانتية، قد انتعشت في القرنين السادس عشر والسابع عشر، عصر التجارة والاكتشافات الجغرافية، وعصر الاستعمار المركنتالي، ثم وصلت إلى ذروتها في القرن التاسع عشر، عصر الإمبريالية. وقد شهد عصر الإمبريالية تزايد الحمى الاسترجاعية (خصوصاً في إنجلترا) بسبب ظهور المسألة الشرقية والمطامع الأوربية في وراثة الإمبراطورية العثمانية. وقد بدا ضعف هذه الإمبراطورية، التي كانت تغالج سكرات الموت، كما لو كان إحدى مقدمات أو علامات الأبوكاليبس - رؤى آخرة الأيام - وبدأ "رجال السياسة الأوربيون ينظرون إلى فكرة عودة اليهود إلى صهيون على أنها وسيلة لطرد الأتراك من الشرق الأوسط"[1]. وعلى الرغم من أن دعاة الفكر الاسترجاعي كانوا لا يشكلون قوة سياسية، فإنهم ساهموا في تحديد معالم التفكير والمصطلح السياسي لهذه الفترة، بين غير اليهود في بداية الأمر، ثم بين اليهود أنفسهم فيما بعد.

ولعل تداخل الأبعاد السياسية بالأبعاد الرومانسية الدينية يظهر في هذه الواقعة: عندما ذهب هرتزل إلى فلسطين عام ١٨٩٨ لاكتشاف إمكانيات الاستيطان الصهيوني هناك، ولمقابلة الإمبراطور ويلهم الثاني إمبراطور ألمانيا،

(1) Encyclopedia of Zionism and Israel, Vol. II, "Restorationism"

اعتقد البعض أنه لم يكن سوى مبشر مسيحي بين اليهود يحاول تنصيرهم[١]، لأنه يحاول توطينهم في فلسطين. ومثل هذا الخلط والتشابك بين الجوانب السياسية والدينية لا يزال باقياً حتى يومنا هذا، إذ لا يزال الكثيرون (بما في ذلك بعض رؤساء الجمهورية في الولايات المتحدة) يتحدثون عن الاستيطان الصهيوني في فلسطين بعبارات دينية/ سياسية. وبعد حرب ١٩٦٧، اعتقدت بعض البعثات التبشيرية المسيحية في إسرائيل أن الانتصار العسكري الإسرائيلي دليل أكيد على اقتراب العصر الألفي السعيد الذي سيحكم فيه المسيح الأرض، ومن ثَمَّ زادوا من نشاطهم في الدولة الصهيونية. وقد أصبح اليمين المسيحي الصهيوني الذي يطالب باسترجاع اليهود إلى فلسطين قوة حقيقية في السياسة الأمريكية.

ومما يجدر ذكره أن الرؤية الاسترجاعية البروتستانتية رؤية معادية لليهود، فالهدف من استرجاع اليهود هو هدايتهم وتحويلهم إلى المسيحية (بعد أن تقوم مذابح هرمجدون التي سيروح ضحيتها العديد منهم)، أي أن الصهاينة المسيحيين يودون استرجاع اليهود لإفنائهم إما دينياً أو جسدياً. ولذا نشأت المفارقة التالية: فبينما يرفض يهود الولايات المتحدة هذا اليمين الصهيوني بسبب نزعته الإبادية وكراهيته العميقة لليهود، تتحالف معهم الدولة الصهيونية لأسباب برجماتية، ولأن الصهيونية (كما سنبين بالتفصيل) تنبع من كُره اليهود ومن رفضهم.

وكانت استجابة اليهود للفكر الاسترجاعي (البروتستانتي) فاتراً لوقت طويل، فلم يرتفع صوت يهودي مرحباً بالفكرة أو مؤيداً لها، فظلت الدعوة إلى إنهاء وضع «النفي» مسعى غير يهودي بالدرجة الأولى[٢]. ولكن مع انتصاف القرن التاسع عشر، ومع تفاقم المسألة اليهودية في شرق أوربا، ومع انتشار الفكر الإمبريالي، بدأ بعض المفكرين اليهود في الاستجابة بطريقة أكثر إيجابية للصيغ الصهيونية غير اليهودية.

---

(1) Raphael Patai (Ed.), **The Complete Diaries of Theodore Herzl**, Trans. Harry Zohn, 5 Vols. (New York: Herzl Press and Thomas Yoseloff, 1960), Vol. II, p. 759.

(2) Leonard Stein, **The Balfour Declaration** (London: Valentine, Mitchell, 1961), p. 9.

ويرى الزعيم الصهيوني، البولندي الأصلي، حاييم وايزمان (١٨٦٤ - ١٩٥٢) وأول رئيس للدولة الصهيونية، أن بعض كبار القادة العسكريين مثل الإسكندر الأكبر ويوليوس قيصر ونابليون قد أدركوا أهمية فلسطين بالنسبة لخططهم الشرقية، وأنهم لهذا السبب "كانوا موالين لليهود في سياستهم الخارجية بشكل ملحوظ"(١). وما لم يصرِّح به وايزمان، إما لغبائه أو لرغبته الواعية أو غير الواعية في إخفاء الحقيقة، أن الإسكندر الأكبر ويوليوس قيصر ونابليون هم من صُنّاع الإمبراطوريات، وأنهم كانوا يرغبون في توظيف اليهود في خدمتهم. ثم وصف وايزمان نابليون بونابرت - أول أوربي يغزو الشرق العربي في الأزمنة الحديثة - بأنه "أول الصهاينة العصريين من الأغيار"(٢). وفي النداء الذي وجَّهه نابليون إلى كل يهود آسيا وأفريقيا في ٢٠ أبريل ١٧٩٩، حثهم على السير وراء القيادة الفرنسية حتى يتسنى استعادة العظمة الأصلية «لبيت المقدس»، ووعد بأنه سيعيد اليهود إلى «الأرض المقدسة» إذا «ساعدوا قواته»(٣). وعلى الرغم من لهجة نداء نابليون الرومانسية فإنه كشف عن مطامعه الاستعمارية ورغبته في أن يغلق الطريق المؤدي إلى الهند أمام بريطانيا، ويمكننا في الواقع اعتبار نداء نابليون الاسترجاعي أول «وعد بلفوري». ونابليون لم يكن يُكن أي مشاعر من الحب والاحترام لليهود، وهذا يظهر في تشريعاته داخل فرنسا. ومن هنا كانت صهيونيته، فإخراج اليهود من فرنسا وتوطينهم في فلسطين فيه حل للمسألة اليهودية في فرنسا (والتي كانت قد بدأت في التفاقم) وتحقيق لمشاريعه الإمبراطورية. أي أن نابليون كان يهدف إلى ضرب عصفورين بحجر: تخليص فرنسا من اليهود وتوظيفهم في خدمة مشاريعه وتحويلهم إلى عملاء له، وهذا ما قاله ملك إيطاليا لهرتزل (وقد وافقه الزعيم الصيهوني على رأيه).

---

(١) رسالة كتبها وايزمان إلى تشرشل، ولكنه لم يرسلها قط. وردت في:

Richard A. Crossman, **A Nation Reborn: The Israel of Weizman, Bevin and Ben Gurion** (London: Hamish Hamilton, 1969), p. 130.

(2) **Ibid.**

(3) Sokolov, **History of Zionism**, Vol.I, p. 63.

وكانت إنجلترا (البروتستانتية) أكبر قوة استعمارية، خصوصاً في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مرتعاً خصباً للأفكار الاسترجاعية. وقبل ظهور الصهيونية بين اليهود بفترة طويلة، قرر أحد الصهاينة غير اليهود، اللورد بالمرستون (١٧٨٤ - ١٨٦٥)، حينما كان يشغل منصب وزير خارجية بريطانيا، أن يستخدم اليهود كمخلب قط لقمع العرب، فقد أعلن، في رسالة بعث بها إلى السفير البريطاني في استنبول - عاصمة الإمبراطورية العثمانية - بتاريخ ١١ أغسطس ١٨٤٠ أنه "إذا عاد أفراد الشعب اليهودي إلى فلسطين" تحت حماية السلطان العثماني وبناءً على دعوة منه [وكانت السلطنة العثمانية حينذاك هي القوة الخارجية المهيمنة في العالم العربي]، فإنهم سيقومون بكبح جُماح أي مخططات شريرة قد يديرها محمد علي أو مَنْ سيخلفه في المستقبل[١].

تبلور الفكر الصهيوني

وتاريخ الرسالة التي بعث بها بالمرستون في غاية الأهمية، فظهور محمد علي المفاجئ وتكوين إمبراطوريته الصغيرة، قلب موازين القوى وهدَّد المشروع الاستعماري الغربي الذي كان يفترض أن العالم كله إن هو إلا ساحة لنشاطه وسوق لسلعه، ووضع حداً لمطامع الدول الغربية التي كانت تترقب اللحظة المواتية لتقسيم واقتسام الدولة العثمانية. ولذا تحالفت الدول الغربية كلها، بما فيها فرنسا، ضد محمد علي وعقدت مؤتمر لندن عام ١٨٤٠ وقررت فيه الإجهاز عليه[٢]، فاضطرته إلى التوقيع على معاهدة لندن لتهدئة المشرق Treaty of London for the Pacification of the Levant[٣].

---

(1) George Jabbour, Settler Colonialism in Southern Africa and the Middle East (Beirut: PLO, Palestine Research Center, 1970), p. 22.

(٢) انظر المدخل عن محمد علي في:

A. W. Palmer, A. Dictionary of Modern History (1784-1945), (London: Penguin Books, 1974).

(3) Nahum Sokolov, History of Zionism 1600-1918, 2 Vols. (New York: KTAV Publishing House, 1964), Vol. I, p. 125).

وتمثِّل هذه النقطة، كما يقول ناحوم سوكولوف، أحد رؤساء المنظمة الصهيونية ومؤرخ الحركة الصهيونية، "نقطة تحوُّل في تاريخ فلسطين"[1]، إذ تبلورت الفكرة الصهيونية بسرعة، فطُرحت فكرة تحييد سوريا، بمعنى فصلها عن كلٍّ من محمد علي وتركيا. ويضيف سوكولوف: "في هذه اللحظة كان من الممكن أن يستعيد اليهود أرضهم القديمة لو كان عندهم منظمة لتنفيذ الخطة"[2]. وإن أردنا ترجمة هذا الكلام إلى مصطلح سياسي علمي أكثر دقة لقلنا إن المسألة الشرقية "وهي المشاكل الناجمة عن وضع الإمبراطورية العثمانية المتردي الذي كانت فلسطين جزءاً لا يتجزأ منه [والذي]... كان يؤثر في ميزان القوى القائم في أوربا[3] التقت بمسألة أوربا اليهودية فاندمجتا تمام الاندماج وتم التوصل إلى إمكانية حل المسألة اليهودية عن طريق تخليص أوربا من اليهود وتوظيفهم في حل المسألة الشرقية.

ويشرح سوكولوف المنطق في أوربا آنذاك على النحو التالي:

"إذا اتفقت الدول العظمى الخمس على تسوية المسألة الشرقية على أساس استقلال سوريا.. **واسترجاع اليهود لها**... حاملين معهم عُدة الحضارة وأجهزتها، بحيث يكوِّنون **نواة** لخلق مؤسسات أوربية... تحت رعاية القوى الأوربية الخمس... فإن ذلك سيساعدهم في أن تسترجع الدولة العثمانية قوتها... ومما لا شك فيه أن حالة سوريا محفوفة بعديد من المصاعب نظراً لانقسام سكانها إلى قبائل منفصلة. ولكن هذا لا يثبت سوى ضرورة إدخال «**مادة جديدة**» حتى يتم صهر الطبقات كلها في جماعة مترابطة متوازنة، وإذا ماسلَّمنا بضرورة إدخال **مادة جديدة** في نسيج سوريا بأكثر المواد قبولاً، وسيتبع ذلك إقامة مؤسسات

---

(1) Ibid.

(2) Ibid., Vol. I, p. 132.

(٣) ريجينا الشريف، **الصهيونية غير اليهودية: جذورها في التاريخ الغربي**، ترجمة أحمد عبد الله عبد العزيز (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٥)، ص ١١٤.

أوربية وستجد إنجلترا حليفاً جديداً سيثبت أن الصداقة معه في نهاية الأمر **ذات نفع** لها في التعامل مع المسألة الشرقية "[1].

هكذا لخَّص سوكولوف الرأي السائد آنذاك، مستخدماً مصطلحات نفعية (طُبعت ببنط غامق). وإذا كان تلخيصه دقيقاً، وهو في تصوري كذلك، فإن المشروع الصهيوني وُلد في ذلك العام (نقل يهود أوربا إلى فلسطين بمساعدة الدول الغربية الراعية - التخَلُّص من الفلسطينيين - توظيف المادة البشرية الوافدة لصالح العالم الغربي).

ويلاحظ أن البُعد السياسي الكامن للفكر الصهيوني بين غير اليهود أخذ يصبح أكثر حدة وتحدداً، بل أصبح هو البُعد الرئيسي. ولم يعد الحل الصهيوني مجرد فكرة فلسفية أو تطلع عام، "فالتطورات السياسية أدت إلى ظهور خلفية جديدة... للصهيونية. إن قضية استرجاع إسرائيل التي كانت قضية أثيرة لدى العاطفيين وكُتَّاب المقالات والأدباء... وكل مؤمن بالإنجيل وكل صديق للحرية، أصبحت قضية حقيقية مطروحة "[2] (على المستوى السياسي). وكما قالت **التايمز** (عام ١٨٤٠) فإن المسألة أصبحت "مطروحة بشكل جدّي "[3]، أي أن الصهيونية لم تَعُد فكرة هامشية.

ويمكن القول إن لورد شافتسبري السابع هو أهم مفكر صهيوني استعماري غربي غير يهودي في هذه المرحلة وواحد من أهم الشخصيات الإنجليزية في القرن التاسع عشر، إذ يقول عنه المؤرخ الإنجليزي تريفليان إنه كان يُعدُّ أحد أهم أربعة أبطال شعبيين في عصره[4]، وكان بالإضافة إلى ذلك شقيق زوجة رئيس الوزراء بالمرستون الذي كان يثق فيه تماماً ويأخذ بمشورته. وكان شافتسبري زعيم حزب

---

(1) Sokolov, **History of Zionism**, Vol. I, p. 109.

(2) **Ibid.**, Vol. I, p. 108.

(3) **Ibid.**, Vol. I, p. 127.

(4) G.M. Trevelyan, **English Social History: A Survey of Six Centuries-Chaucer to Queen Victoria** (London: Longmans, 1961), p. 563.

الإنجيليين (الذي كان يهدف إلى تنصير اليهود)، لذا نجد أن اليهود هم أحد الموضوعات الأساسية في تفكيره، ومحط اهتمامه الشديد. وكان تفكير شافتسبري خليطاً مدهشاً من العناصر الاجتماعية والدينية والتاريخية، يتداخل في عقله الوقت الحاضر بالزمان الغابر بالتاريخ المقدس. ويتضح ذلك في موقفه من اليهود ونظرته إليهم. فهم يكوِّنون بالنسبة إليه شعباً مستقلاً "وجنساً عبرياً" يتمتع باستمرارية لم تنقطع، وهذه هي نقطة الانطلاق الأولى للفكر الصهيوني والتي نسميها «الشعب العضوي المتماسك». ولكنهم لهذا السبب أصبحوا جنساً "من الغرباء"[1] "متعجرفين، سود القلوب، منغمسين في الانحطاط الخُلُقي والعناد والجهل بالإنجيل"[2]. وليسوا سوى "خطأ جماعي"، فهم شعب عضوي منبوذ، لا ينتمي إلى أوربا. ويرى شافتسبري أنه ينبغي عليهم العودة إلى الإيمان بالمسيح حتى تبدأ سلسلة الأحداث التي ستؤدي إلى عودة المسيح الثانية وخلاص البشر[3]. وانطلاقاً من هذا الخليط الفريد من الأطروحات السياسية والدينية والعرْقية عارض شافتسبري منح اليهود حقوقهم المدنية السياسية[4]، أي أنه تبنى الفكرة الصهيونية المحورية: الشعب العضوي المنبوذ، أي الشعب اليهودي المتماسك الذي لا ينتمي للغرب ويجب نقله إلى بلد آخر.

ولكن ثمة علاقة بين هذا الشعب وبقعة جغرافية محددة هي فلسطين[5]، فبعثهم لايمكن أن يتم إلا هناك، كما أن وجودهم في هذه البقعة يمثِّل - كما تقدَّم - عنصراً حيوياً في الرؤية المسيحية للخلاص[6]، وكما قال: "إن أي شعب لابد أن يكون له وطن. الأرض القديمة للشعب القديم"[7]. ثم طوَّر هذا الشعار ليصبح

(١) ريجينا الشريف، **الصهيونية غير اليهودية**، ص ٩٠.

(٢) **المرجع السابق**، ص ٩١.

(3) Barbara W. Tuchman, **Bible and Sword: England and Palestine From the Bronze Age to Balfour** (London: Alvin Redman, 1957), p. 115.

(4) **Ibid**, p. 21.

(5) Sokolov, **History of Zionism**, Vol. I, p. 123.

(٦) ريجينا الشريف، **الصهيونية غير اليهودية**، ص ٩١.

(7) Sokolov, **History of Zionism**, Vol. I, pp. 229, 207.

«وطنٌ بلاشعب لشعب بلاوطن»[١]، الذي أصبح فيما بعد الشعار الصهيوني المحوري «أرض بلا شعبٍ لشعب بلا أرض».

وقد وضع شافتسبري عدة مذكرات يعرض فيها رؤيته الصهيونية، فبيَّن أن الشعب المنبوذ يمكن أن يُوظف في خدمة الإمبراطورية. "فهو جنس معروف بمهارته ومثابرته الفائقة، ويمكن لأعضائه العيش في غبطة وسعادة على أقل شيء، فهم قد ألفوا العذاب عبر العصور الطويلة"، وبالتالي "تشكل عودتهم لاستعمار فلسطين... أرخص الطرق وأكثرها أمناً للوفاء بحاجات هذه المناطق غير المأهولة بالسكان. وهم سيعودون على نفقتهم الخاصة دون أن يعرِّضوا أحداً ـ سوى أنفسهم ـ للخطر"[٢]. كما أنهم سيوفِّرون رؤوس الأموال المطلوبة، فهم مشهورون بحب اختزان المال والجشع والبُخل. ويبيِّن شافتسبري أهمية سوريا (بما في ذلك فلسطين) الاقتصادية والسياسية، ومدى حاجة إنجلترا لإسفين بريطاني هناك[٣]، ويؤكد أنه في وسع اليهود القيام بهذه المهمة على أكمل وجه، على أن توطين اليهود في فلسطين سيعود بالفائدة لا على إنجلترا بمفردها وإنما على العالم المتمدن (أي الغربي) بأسره[٤]. (ولنلاحظ تمازج المصطلحات النفعية مع مصطلحات الكراهية في خطاب شافتسبري).

وعلى الرغم من أن هذه الأفكار قد طُرحت **قبل عشرين عاماً من ميلاد هرتزل**[٥]، فإن كل ملامح المشروع الصهيوني موجودة فيها، ولا سيما فكرة توظيف وضع اليهود الشاذ داخل المجتمعات الغربية في خدمة هذه المجتمعات عن طريق نقلهم. ولقد صاغ شافتسبري رؤية اليهود ككتلة مستوطنين لا تخدم دولة غربية واحدة وإنما كل دول الغرب. وقد لاحظ سوكولوف ـ بحقّ ـ أوجه التشابه بين كتابات شافتسبري وبرنامج بازل[٦].

---

(١) ريجينا الشريف، **الصهيونية غير اليهودية**، ص ٩١.

(2) Sokolov, **History of Zionism**, Vol. I, pp. 229, 230.

(3) Tuchman, **Bible and Sword**, p. 113.

(4) Sokolov, **History of Zionism**, Vol. I, p. 231.

(5) Tuchman, **Bible and Sword**, p. 128.

(6) Sokolov, **History of Zionism**, Vol. I, p. 123.

ويلاحظ أن شافتسبري لم يكتف بالصياغات النظرية الصهيونية بل لعب دوراً نشطاً وفعالاً، فكان يكتب المذكرات التفصيلية المحددة لبالمرستون. ومن المعروف أنه تم افتتاح أول قنصلية إنجليزية في القدس نتيجة لإلحاحه وبناءً على توجيه منه[١]، كما أنه ترأس صندوق استكشاف فلسطين الذي قام أعضاؤه بكتابة الدراسات المكثفة عن آثار فلسطين من منظور إنجيلي استرجاعي. وعلى الرغم من أن شافتسبري كان يستخدم ديباجة تبشيرية واضحة فإنه كان مدركاً ضرورة تأكيد الأبعاد الجغرافية والسياسية والنفعية لمشروعه حتى يلقى قبولاً لدى صُنّاع القرار الغربي[٢].

وليس هناك شخصية أكثر تعبيراً عن الصهيونية الاستعمارية الغربية غير اليهودية التي سبقت الصهيونية اليهودية بعشرات السنين من صديق شافتسبري لورانس أوليفانت Laurence Oliphant (١٨٢٩ ـ ١٨٨٨) الذي عمل في السلك الدبلوماسي البريطاني بعض الوقت في الشئون الهندية، وكان عضواً في البرلمان الإنجليزي. وينطلق أوليفانت ـ شأنه شأن معظم الصهاينة ـ من فكرة الشعب العضوي المنبوذ، فاليهود جنس مستقل يتسم أعضاؤه بالذكاء في الأعمال التجارية والمقدرة على جمع المال، ولكن وجودهم داخل الحضارة الغربية أمر سلبي، إذ إن جذورهم في فلسطين[٣].

وكان أوليفانت يرى، مثل كثير من السياسيين البريطانيين في عصره، ضرورة إنقاذ الدولة العثمانية من مشاكلها المستعصية عن طريق إدخال عنصر اقتصادي نشط في جسدها المتهاوي، وقد وجد أن اليهود هم ذلك العنصر. ولذلك دعا بريطانيا إلى تأييد مشروع توطين اليهود، لا في فلسطين وحسب، وإنما في الضفة الشرقية للأردن كذلك[٤]. وكان المشروع يتلخص في إنشاء شركة استيطانية[٥] لتوطين

---

(١) ريجينا الشريف، **الصهيونية غير اليهودية**، ص ١١٨.

(2) Sokolov, **History of Zionism**, Vol. I, p. 123.

(3) Tuchman, **Bible and Sword**, p. 174.

(٤) أمين عبد الله محمود، **مشاريع الاستيطان اليهودي منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى** (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٤)، ص ٣٤.

(5) Sokolov, **History of Zionism**, Vol. I, p. 208.

اليهود برعاية بريطانية وتمويلها من الخارج، ويكون مركزها استنبول (وقد لاحظ بن هالبرن Ben Halpern وهو أحد المؤرخين المحدثين للصهيونية ومن المؤيدين لها، أوجه الشبه بين هذه الخطة واقتراحات هرتزل فيما بعد)[1].

وكانت صهيونية أوليفانت تتسم بالعملية والحركية، فاتجه إلى فلسطين للبحث عن موقع مناسب للمستوطَن المقترح، واختار منطقة شرق الأردن في شمال البحر الميت وتسمّى منطقة جلعاد في العهد القديم، ثم اتجه إلى استنبول (مع إدوارد كازالت Edward Cazalet المموِّل الإنجليزي) لعرض مشروع سكة حديد وادي الفرات، وقدما طلباً إلى السلطان بإعطاء اليهود قطعة من الأرض بعرض ثلاثة كيلومترات على حافتي الطريق المقترح.

وكان أوليفانت على علاقة بعدد من الزعماء الصهاينة اليهود في شرق أوربا مثل بيرتس سمولنسكين وأهارونْ ديفيد جوردون Aharon David Gordon (١٨٥٦ - ١٩٢٢)[2] الزعيم الصهيوني (من مواليد روسيا) والأب الروحي لبن جوريون وللاتجاه العمالي الصهيوني المتمثل في حزب الماباي. ويبدو أنه لم يكن بعيداً عن تأسيس جماعة الـ «بيلو Bilu»[3]، وهي من أوائل الجمعيات الصهيونية الاستيطانية. وقد قام بطرح مشروعهم للحصول على قطعة أرض في فلسطين على السلطان العثماني[4]، وحضر أحد مؤتمرات جماعة أحباء صهيون[5]، كما عارض الجهود التي كانت تبذلها جماعة الأليانس Alliance Israelit Universelle لتهجير اليهود إلى الولايات المتحدة لإنقاذهم، وقام بجمع توقيعات من اليهود على عريضة يؤكدون فيها رغبتهم في الهجرة إلى فلسطين لا إلى غيرها من البلدان[6]. وقد نجح أوليفانت بالفعل في تهجير سبعين يهودياً من أصحاب الحِرَف إليها.

---

(1) Halpern, The Idea of the Jewish State, p. 262.

(2) Tuchman, Bible and Sword, p. 174.

(٣) حبيب قهوجي (مشرفاً)، استراتيجية الاستيطان الصهيوني في فلسطين المحتلة (دمشق: مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية، ١٩٧٨)، ص ٥٨.

(4) Sokolov, History of Zionism, Vol. I, p. 306.

(5) Tuchman, Bible and Sword, p. 173.

(٦) قهوجي، استراتيجية الاستيطان الصهيوني، ص ٢٨.

وفي عام ١٨٨٠ نشر كتابه **أرض جلعاد The Land of Gilead** الذي نادى فيه بضرورة توطين اليهود في فلسطين، وشرح أبعاد فكره الصهيوني الذي أسلفنا الإشارة إليه، ولعل من إسهامات الكتاب الأساسية مشروعه بخصوص سكان البلاد من العرب. فبعد أن عبَّر أوليفانت عن عدم تعاطفه مع العرب باعتبارهم مسئولين عن إفقار فلسطين، قسَّمهم إلى قسمين: بدو وفلاحين، فاقترح طرد البدو ووضع الفلاحين في معسكرات مثل معسكرات الهنود في كندا[١]، على أن يتم استخدامهم كمصدر للعمالة الرخيصة تحت الإشراف اليهودي، وبذلك يكون المشروع الصهيوني قد اكتمل بكل ملامحه. وقد ترجم سوكولوف الكتاب إلى العبرية عام ١٨٨٦[٢]، ووزَّع منه ١٢,٠٠٠ نسخة، وهو رقم قياسي بالنسبة إلى المنشورات العبرية آنذاك[٣].

وتتميَّز صهيونية أوليفانت عن صهيونية شافتسبري باقترابها من اليهود ومحاولة التوجه إليهم وتجنيدهم. ولعل ظروف المرحلة قد ساعدته باعتبار أن محاولات التحديث في شرق أوربا كانت في أربعينيات القرن، حينما بدأ شافتسبري نشاطه، لا تزال في بداياتها الناجحة، ولم تكن قد تعثرت بعد، بينما بدأ أوليفانت نشاطه الصهيوني مع بدايات التعثر. ويجدر ملاحظة أن أوليفانت يتحرك في صفوف اليهود بألفة شديدة لم نشهدها من قبل. كما أن المشروع الصهيوني في كتاباته لم يكن مشروعاً سياسياً عاماً، بل كان مشروعاً محدَّداً يتناول كل التفاصيل والأبعاد بدقة بالغة. ولا يعبِّر أوليفانت عن كُرهه للشعب العضوي المنبوذ عن طريق التشهير به أو التبشير بين أعضائه كما كان يفعل شافتسبري أحياناً، وإنما عن طريق مشروع متكامل للتهجير والتوطين والتوظيف يتبناه اليهود بأنفسهم. والرؤية الصهيونية الحقة لا تحاول إنقاذ اليهود كبشر وكأفراد وإنما تنطلق من فكرة «الشعب

---

(1) Tuchman, **Bible and Sword**, p. 173.

(2) Cecil Roth (Ed.), **Encyclopedia Judaica**, 17 Vols. (New York: The Macmilla Company, 1971). "Oliphant, Laurence".

(٣) م. بحيري، "الحركة الصهيونية منذ نشأتها"، **في القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني** (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية ووزارة الدفاع الوطني، الجيش اللبناني، الأركان العامة، الشعبة الخامسة، ١٩٧٣)، ص ٢٢.

العضوي المنبوذ» الذي لا مكان له في العالم الغربي ويمكن توظيفه عن طريق توطينه في فلسطين (وقد مرَّ على هرتزل عدة سنوات، وعلى يهود شرق أوربا عدة عقود، قبل إدراك هذه الحقائق وقبل تبنيهم الحل الصهيوني الاستعماري للمسألة اليهودية). ولنلاحظ ما يلي:

١ - تبلور الفكر الصهيوني على يد مفكرين استعماريين غير يهود قبل أن يصل إلى المفكرين الصهاينة بعشرات السنين.

٢ - تنبع هذه الصهيونية الغربية الاستعمارية من كُره عميق لليهودية واليهود.

مرحلة بلفور(١)

من الأمثلة الأخرى على صهيونية غير اليهود الاستعمارية الغربية المبنية على كُره اليهود والرغبة في نقلهم خارج أوربا وتوظيفهم لصالح الغرب الخطاب المُرسل من دوق إيلونبرج باسم حكومة قيصر ألمانيا إلى هرتزل (مؤرخ في سبتمبر ١٨٩٨) وجاء فيه:

"إن صاحب الجلالة على استعداد أكيد أن يناقش الأمر [توطين اليهود] مع السلطان، وأنه سيسعده أن يستمع إلى مزيد من التفاصيل منكم في القدس". وصهيونية القيصر الألمانية تنبع من كُره واضح وصريح لليهود. فقد قال في أحد خطاباته إن تسعة أعشار شعبه سيُصدَم صدمة عميقة إذا اكتشف هذه الحقيقة. فاليهود - كما يقول - هم قتلة المسيح، ولكنه يضيف قائلاً: "إن الإله قد أنزل بهم العقاب على ما اقترفوه من آثام، إلا أنه لم يأمر المسيحيين بأن يسيئوا معاملة هذا الشعب". ثم يحاول القيصر تسويغ تعاونه مع "قتلة المسيح"، فيورد الأسباب التالية لتأييد ألمانيا للمشروع الصهيوني:

---

(١) اعتمدت الدراسة في هذا الجزء على المصادر التالية:
- ريجينا الشريف، **الصهيونية غير اليهودية**.
- أمين عبد الله محمود، **مشاريع الاستيطان اليهودي**.
- عبد الوهاب المسيري، **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج تفسيري جديد**، ٨ مجلدات (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩)، م٦، ص ص. ٣٩-٤٨.

(أ) سينتج عن توطين شعب إسرائيل رخاء للمنطقة، ولا سيما أن الملايين ستصب في الأكياس العثمانية، الأمر الذي قد يؤدي إلى شفاء الرجل المريض.

(ب) ستُوجَّه طاقة اليهود ومواهبهم إلى أهداف أكثر نبلاً من استغلال المسيحيين.

(جـ) سيؤدي المشروع الصهيوني إلى إفراغ ألمانيا من اليهود الذين فيها "وكلما عجلوا بالذهاب. . . ، كان ذلك أفضل. فلن أضع أية عراقيل في طريقهم".

(د) إذا بُحثت المسألة من منظور الحقائق السياسية [لا الأخلاقية]، فإن ألمانيا ستستفيد غاية الاستفادة لأن رأس المال اليهودي العالمي، بكل خطورته، سينظر بعين العرفان إلى ألمانيا.

وموقف القيصر من اليهود، بما يتسم به من كره عميق لهم وترحيب شديد بالتخلص منهم واستعداد تام لتوظيفهم في خدمة المصالح الألمانية، لا يختلف كثيراً عن موقف نابليون من قبله أو موقف بلفور من بعده.

ومن الأمثلة الأخرى على الوعود البلفورية، الوعد البلفوري الروسي القيصري. فقد قام هرتزل بمقابلة فون بليفيه، وزير الداخلية الروسي المعادي لليهود، بتفويض من المؤتمر الصهيوني الخامس (١٩٠١)، حتى يَحصُل على تصريح يعبِّر عن نوايا الروس يتلوه في المؤتمر الصهيوني السادس المزمع عقده سنة ١٩٠٣. وبالفعل، صَدَر الوعد البلفوري القيصري على النحو التالي (في شكل رسالة وجهها فون بليفيه إلى تيودور هرتزل). وهذا هو منطوق الوعد:

"ما دامت الصهيونية تحاول تأسيس دولة مستقلة في فلسطين، وتنظيم هجرة اليهود الروس، فمن المؤكد أن تظل الحكومة الروسية تحبذ ذلك. وتستطيع الصهيونية أن تعتمد على تأييد معنوي ومادي من روسيا إذا ساعدت الإجراءات العملية التي يفكر فيها على تخفيف عدد اليهود في روسيا".

وأكد ڤون بليفيه دون مواربة أو حياء أن الهدف هو التخلص من اليهود عامة باستثناء الأثرياء منهم، وجاء هذا واضحاً في قوله: ". . . إن نجاح اليهود في إقامة دولة مستقلة لهم تستوعب عدة ملايين منهم لهو أمر نقبله وندعمه. . . إننا لا نريد

التخلص من جميع اليهود الروس. . . إننا نريد فقط التخلص من المعدمين والمضطربين" . وحذر فون بليفيه من أن التأييد الروسي القيصري سيتم سحبه إن كان هدف الصهيونية ، غير المعلن ، هو تحقيق تركيز قومي لليهود في روسيا ، فالدعم الروسي مشروط بالتخلص من اليهود.

وقد كان لويد جورج رئيس الوزارة التي أصدرت وعد بلفور يمقت اليهود ، تماماً مثل تشامبرلين قبلهما ، والذي كان وراء الوعد البلفوري الخاص بشرق أفريقيا. وفي حملته الانتخابية عام ١٩٢٦ ، أي بعد صدور وعد بلفور بعدة سنوات، دخل لويد چورچ معركة انتخابية ضد مرشح يهودي ، فاستخدم مصطلحات معادية للسامية بشكل واضح وصريح. (يقول الأستاذ التونسي ، دون أن يكشف مصادره ، إن لويد چورچ كان مشهوراً بعطفه على اليهود [ص٩٤] ، مع أنه لو قرأ أي تاريخ للصهيونية ولو قرأ أهم دراسة عن وعد بلفور وهي The Balfour Declaration للكاتب الصهيوني Leonard Stein لوجد أن الأمر مختلف تماماً عما يقول ، وأن أقواله إما مجرد ادعاءات أو استنتاجات منطقية عن مقدمات خاطئة). ويلاحَظ أن الشخصيات الأساسية الأخرى وراء وعد بلفور مثل چورچ ملنر وإيان سمطس ، كلها شخصيات لعبت دوراً أساسياً في التشكيل الاستعماري الغربي ، وتتسم بكُره عميق لليهود.

وعلى العكس من هذا ، من المعروف أن صدور وعد بلفور تأخر بعض الوقت بسبب معارضة يهود إنجلترا المعادين للصهيونية ، وقاد سير إدوين مونتاجو حملة ضد الوعد وإصداره. واستجابةً لهذه الضغوط ، أُسقطت عبارة "الجنس اليهودي" وحل محلها عبارة «الشعب اليهودي» ، كما أُضيفت عبارة أن الوعد لن يؤدي إلى الإخلال بالحقوق والأوضاع القانونية التي يتمتع بها اليهود في أية دولة أخرى. ولكن الحكومة الإنجليزية لم تعامل أعداء الصهيونية برفق شديد ، إذ إن بلفور أخبرهم بلغة تتسم بالحزم أن يوقفوا الهجوم على الصهيونية ، فالمشروع الصهيوني يشكل جزءاً من المشروع الاستعماري الغربي وعليهم أن يعوا ذلك. وقد صدر الوعد في نهاية الأمر بسبب جهود الصهاينة الاستعماريين الغربيين غير اليهود ،

ويدأت سلسلة الأحداث والإجراءات التي أدت إلى إنشاء الدولة الصهيونية على الأرض الفلسطينية.

ولا يمكن فهم وعد بلفور بالعودة إلى التوراة والتلمود و**البروتوكولات** فهو بالدرجة الأولى صيغة جديدة من البراءات الاستعمارية التي كانت تُمنَح للمستوطنين الغربيين في آسيا وأفريقيا (كما يبيِّن الدكتور چورچ جبور في دراسته عن ظاهرة الاستيطان). وحينما أُصدر وعد بلفور، سماه الصهاينة «الميثاق أو البراءة». فوعد بلفور كان الميثاق الذي يشبه البراءة التي مُنحت لرودس. وقد مُنحت براءة بلفور لليهود بعد تقسيم تركيا بطريقة لاتختلف كثيراً عن البراءات التي أُعطيَت لبعض الشركات الغربية في أعقاب تقسيم أفريقيا في مؤتمر برلين. وقد أصدرت بريطانيا البراءة بعد التفاوض مع الحلفاء، ووافقت عليه مسبقاً كلٌّ من فرنسا وإيطاليا، ثم أيَّدته الولايات المتحدة، فهو ليس وعداً إنجليزياً وإنما هو وعد غربي. كما أن المستعمرة اليهودية التي ستُؤسَّس لن تكون تابعة لإنجلترا وحسب وإنما ستخدم المصالح الإمبريالية الغربية كافة. ولذا، فإن ثمة مسافة بين الصهاينة والحكومة البريطانية رغم التزام إنجلترا بدعم المُستوطَن الصهيوني، إلا أنه كان من المتوقع أن يقع عبء العمل الاستيطاني نفسه على عاتق الصهاينة أنفسهم (تماماً كما هو الحال مع شركات الاستيطان). ويُلاحَظ أن براءة بلفور الاستيطانية، مثل البراءات الأخرى، صدرت دون استشارة السكان الأصليين ودون أخذ مصيرهم في الاعتبار.

ويمكن القول إن لورد بلفور الذي ارتبط اسمه بالوعد الذي أصدرته الحكومة البريطانية هو أهم شخصية في تاريخ الصهيونية (قبل إعلان الدولة). ويتصور البعض أن جهود بلفور الصهيونية هي تعبير عن حبه العميق لليهود، ولكن الواقع هو عكس ذلك. فبلفور كان يصدر عن الرؤية الألفية الاسترجاعية التي ترى اليهود باعتبارهم مجرد وسيلة للتعجيل بالخلاص سيُنقل إلى فلسطين لذبحه أو تنصيره. ويتجلى كُره بلفور لليهود في تلك المقدمة التي كتبها لمؤلَّف سولوكوف **تاريخ الصهيونية** حيث يبدي معارضته لفكرة المُستوطَن البوذي أو المُستوطَن المسيحي.

فالمسيحية والبوذية في رأيه هما مجرد أديان، ولكنه يَقْبل فكرة المُستوطَن اليهودي لأن "العرْق والدين والوطن" أمور مترابطة بالنسبة إلى اليهود. كما أن ولاءهم لدينهم وَعرْقهم أعمق بكثير من ولائهم للدولة التي يعيشون فيها. وقد أعلن بلفور أن ولاء اليهود للدولة التي يعيشون فيها "ضعيف إذا ما قُورن بولائهم لدينهم وعرْقهم، وذلك نتيجة طريقتهم في الحياة ونتيجة عزلتهم، فهم لا يتزاوجون إلا من بني جنسهم". وهذا اتهام لليهود بأنهم جماعة لا تندمج كما أنها تعاني من ازدواج الولاء بل ومن انعدامه أحياناً، وهو اتهام يوجهه دائماً الصهاينة ومعادو اليهود لما يسمونه «الشخصية اليهودية».

إن هذا الشعب اليهود العضوي المتماسك يتميز أعضاؤه بالنشاط والحركية. ولكن هذا الشعب العضوي المختار هو أيضاً "جماعة أجنبية معادية" تؤمن بدين هو محل كره مُتوارَث من المحيطين بها، أدَّى وجودها في الحضارة الغربية إلى "بؤس وشقاء استمرا دهراً من الزمان"، وهكذا يصبح الشعب العضوي شعباً عضوياً منبوذاً لا تستطيع الحضارة الغربية استيعابه، فهم يتسببون في كوارث تحيق بإنجلترا (كما فعل يهود اليديشية المهاجرون إليها).

وقد اعترف بلفور نفسه لوايزمان بأنه وجد نفسه متفقاً مع افتراضات كوزيما فاجنر (ابنة الموسيقار) عن اليهود ومتقبلاً لها، وهي افتراضات معادية لليهود بشكل متطرف. لكل هذا، خلص بلفور إلى أنه ليس من مصلحة أي بلد أن يكون فيه يهود مهما بلغت وطنيتهم وانغماسهم في الحياة القومية. وانطلاقاً من كل هذا، تبنَّى قانون الغرباء الذي صدر بين عامي ١٩٠٣ و١٩٠٥ والذي كان يهدف إلى وضع حدٍّ لدخول يهود اليديشية إلى إنجلترا لخشيته من الشر الأكيد الذي قد يلحق ببلاده. وقد أدَّى موقفه هذا إلى الهجوم عليه من قبَل المؤتمر الصهيوني السابع (١٩٠٥)، حيث وُصفت تصريحاته بأنها "معاداة صريحة للشعب اليهودي بأسره"، كما هاجمته الصحافة البريطانية.

وقد يبدو الأمر لأول وهلة وكأنه نوع من التناقض الواضح الذي يقترب من الشيزوفرانيا، ولكن أفكار بلفور الاسترجاعية (علمانية كانت أم دينية) تعبِّر عن

رغبة في التخلص من اليهود وفي حوسلتهم (أي تحويلهم إلى وسيلة) لخدمة الحضارة الغربية. والواقع أن مفهوم الحوسلة هو الذي يفسر تأرجحه بين الحب والكره، فالحب هو حب لشعب عضوي مختار متماسك، ومن ثم فإنه لا ينتمي إلى مسار التاريخ الإنساني العادي ولا يمكن استيعابه في الحضارة الغربية، والكره هو أيضاً كره لشعب عضوي مختار متماسك يرفض الاندماج أو الانتماء لمسار التاريخ الإنساني العادي أو الحضارة الغربية. والنتيجة واحدة، حباً أو كرهاً، وهي نقل اليهود خارج أوربا وتوظيفهم في خدمة الحضارة الغربية. فالشعب العضوي المنبوذ لا يمكن أن يحل مشكلته داخل التشكيل الحضاري الغربي عن طريق الاندماج في المجتمعات الغربية، وإنما يمكنه حلها من داخل التشكيل الاستعماري الغربي عن طريق التحول إلى مادة استيطانية نافعة بيضاء تُوطَّن خارج أوربا (في أية بقعة في آسيا أو أفريقيا).

ويمكن أن نختتم هذا الجزء بالإشارة إلى مارك سايكس (١٨٧٩ - ١٩١٩)، وهو دبلوماسي ورحالة بريطاني، كان يُعدُّ القوة المحركة للسياسة البريطانية الخاصة بفلسطين والتي أدَّت إلى إصدار وعد بلفور ثم الانتداب البريطاني على فلسطين. وكان وراء توقيع اتفاقية سايكس - بيكو الشهيرة لتقسيم مناطق النفوذ بين إنجلترا وفرنسا. وقد وُضعَت فلسطين بمقتضى هذه الاتفاقية تحت إشراف إدارة دولية.

وكان سايكس - كما هي العادة مع الصهاينة غير اليهود - معادياً لليهود بشكل صريح ويَصدُر عن مفهوم الشعب العضوي المنبوذ. فهو لم يضمر حباً لليهود. فاليهودي بالنسبة له هو المموِّل العالمي (تماماً كما جاء في **البروتوكولات**). وينقسم اليهود - حسب تصوُّره - إلى قسمين: اليهود المتأنجلزون (أي المندمجون) الذين يتخلون عن هويتهم (العضوية)، ومن ثَمَّ يمكثون في بلادهم ولا يهاجرون منها، وكان سايكس يكن لهم احتقاراً عميقاً. وهناك - من ناحية أخرى - العبراني الحقيقي (هذا الذي يترك إنجلترا ليستوطن في وطنه الأصلي الذي يرتبط به عضوياً)، وهؤلاء كان يحبهم سايكس، شأنه في هذا شأن النازيين وشأن كل من يرغب في أن "يعود" اليهود إلى "وطنهم القومي" في فلسطين، فتُفرَّغ أوربا منهم.

ورغم تبلور الفكر الصهيوني وتبني بعض المفكرين اليهود له، ورغم صدور وعد بلفور، فقد ظل المشروع الصهيوني فكرة، أو مخططاً (سيناريو) نظرياً، لا تسانده أية جماهير يهودية ولا يستند إلى أي أساس من القوة لأن الغالبية الساحقة من يهود العالم رفضت الفكرة الصهيونية وعارضت الحركة الصهيونية لأنها أدركت الكُره والعنصرية الكامنة وراءها.

فعندما ظهرت الصهيونية، أوَّل ما ظهرت على المسرح السياسي الدولي، كانت الاستجابة اليهودية لها أبعد ما تكون عن الترحيب، وقد جاء في **موسوعة الصهيونية وإسرائيل** "أن المنظمات اليهودية الرئيسية قد اتخذت من الصهيونية موقفاً معارضاً أو موقفاً غير صهيوني"[1] (أي غير مكترث بالصهيونية). ومن المعروف أن المعارضة اليهودية اضطرت القيادة الصهيونية لنقل مقر انعقاد المؤتمر الأول (١٨٩٧) من ميونخ إلى بازل. وقد أعلنت اللجنة التنفيذية لمجلس الحاخامات في ألمانيا ـ عشية انعقاد المؤتمر ـ اعتراضها على الصهيونية، على أساس أن فكرة الدولة اليهودية تتعارض مع عقيدة الخلاص اليهودية. كما اتخذت المنظمتان اليهوديتان الرئيسيتان في إنجلترا ـ مجلس مندوبي اليهود البريطانيين، والهيئة اليهودية الإنجليزية ـ مواقف مماثلة. وأعرب المؤتمر المركزي للحاخامات الأمريكان عن معارضته التفسير الصهيوني لليهودية على أنها انتماء قومي[2]. وعارض حاخام فيينا (مسقط رأس هرتزل) فكرة إنشاء دولة يهودية، لأنها فكرة معادية لليهود وتُرجع كل شيء إلى العِرْق والقومية"[3].

وقد تبنَّت اللجنة اليهودية الأمريكية موقفاً مناهضاً للصهيونية عام ١٩٠٦، ثم انتهجت نهجاً غير صهيوني استمر حتى أواخر عام ١٩٤٠. وعندما صدر وعد بلفور أعلنت رفضه، في الحال، في عريضة موجهة إلى الحكومة الأمريكية وقعها

---

(1) Encyclopedia of Zionism and Israel, Vol. I "Anti-Zionism"

(2) Ibid.

(3) Ibid.

٢٩٩ يهودياً أمريكياً، وقعوا عليها، على أساس أنه يروِّج لمفهوم «الولاء المزدوج»(١). وفي ٤ مارس سنة ١٩١٩، بعث جوليوس كان، عضو الكونجرس الأمريكي عن كاليفورنيا، ومعه ٣٠ يهودياً أمريكياً بارزاً، رسالة إلى الرئيس وودرو ويلسون يحتجون فيها على فكرة الدولة اليهودية. وأعرب أكثر الموقعين على هذا الاحتجاج عن أنهم يعبِّرون عن رأي أغلبية اليهود الأمريكيين، وكتبوا يقولون: إن إعلان فلسطين وطناً قومياً لليهود سيكون جريمة في حق الرؤى العالمية لأنبياء اليهود وقادتهم العظماء. واستطرد البيان يقول: إن دولة يهودية لابد أن تضع قيوداً أساسية (على غير اليهود) فيما يتعلق بالجنس، وأكد أن توحيد الكنيسة والدولة في أية صورة سيكون بمنزلة قفزة إلى الوراء تعود إلى ألفي عام. وأعرب جوليوس كان وغيره (ممن وقعوا على الاحتجاج) عن أملهم في أن ما كان يُعرَف في الماضي بالأرض الموعودة لمجموعة بشرية بعينها يجب أن يصبح أرض الوعد لكل الأجناس والعقائد.

ومن أهم الشخصيات التي عارضت الصهيونية السير أودين مونتاجو، العضو اليهودي الوحيد في الوزارة البريطانية التي أصدرت وعد بلفور. فقبل صدور وعد بلفور بأسابيع قليلة، كتب مذكرة تبيِّن أن الوعد ينطوي على معاداة اليهود لأنه عندما يصبح لليهود وطن قومي، "فإن الدعوة لحرماننا من حقوقنا، كمواطنين بريطانيين، ستزداد قوة، وبالتالي ستصبح فلسطين جيتو لكل يهود العالم، وسيصبح اليهود أجانب، بوصفهم من مواطني الدولة الصهيونية". (يقول الأستاذ التونسي في مقدمته **للبروتوكولات** إن بعض الكُتَّاب اليهود طالبوا بأن تعترف لهم إنجلترا بجنسيتين! [ص٨٣] وهذا عكس ما حدث تماماً). وقد وصف مونتاجو الصهيونية بأنها "عقيدة سياسية مضللة، لا يمكن لأي مواطن مُحب لوطنه في المملكة المتحدة الدفاع عنها"، ثم أنكر وجود ما يسمَّى بالأمة اليهودَية أو الجيش اليهودي. وقد أشار مونتاجو إلى المفهوم الديني لعقيدة الماشيَّح، فقال إن عودة المنفيين يجب أن تتم من خلال الإرادة الإلهية، ثم أضاف متهكماً: "إني لم أسمع

---

(1) Ibid.

وقد كان الصهاينة يدركون هذه الحقيقة منذ البداية، ففي عام ١٩٢٧ اعترف وايزمان أن وعد بلفور "كان مبنياً على الهواء"، وروى أنه عام ١٩٢٧ كان يرتعد خشية أن تسأله الحكومة البريطانية عن مدى تأييد اليهود للحركة الصهيونية، لأنها كانت تعلم أن "اليهود ضدنا.. كنا وحدنا نقف على جزيرة صغيرة، مجموعة صغيرة من اليهود لهم ماض أجنبي"[٢]. وقد أشار السير أدوين مونتاجو في مذكرته، التي أشرنا إليها، إلى أن اليهود، ذوي الأصل الأجنبي، قد لعبوا دوراً ملحوظاً في الحركة الصهيونية في إنجلترا، ثم أخذ يعدد - على سبيل المثال - الدكتور جاستز، من رومانيا. والدكتور هيرتز، من النمسا. والدكتور وايزمان، من روسيا[٣].

ونظراً لافتقار الصهاينة إلى أية قاعدة قوية بين الجماهير اليهودية، كان عليهم أن يعتمدوا على قوة كبيرة غير يهودية يمكنها الاستفادة منهم ومن خدماتهم، فقدموا أنفسهم من البداية على أنهم يمكنهم أن يلعبوا دور الوسيط بين القوى الاستعمارية

---

(1) Tahseen Basheer (Ed.), Edwin Montagu and the Balfour Declaration (New York: Arab League Office, n.d.), pp. 7-11.

(٢) لطفي العابد وموسى عنز (مترجمان)، **الفكرة الصهيونية: النصوص الأساسية**، إشراف أنيس صايغ، تعريف د. أسعد زروق (بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٧٠)، ص ٤٥١.

(3) Basheer, Edwin Montague, p. 13.

من جهة، واليهود من جهة أخرى، لتجنيدهم وتوطينهم في أحد المواقع التي تهم تلك القوى، وقد تم عرض الوساطة دون موافقة الجماعات اليهودية ذاتها. ولكن بمجرد أن نال الصهاينة الموافقة على خطتهم توجهوا إلى الجماعات اليهودية العاجزة، معلنين شرعيتهم الجديدة ومكانتهم المكتسبة، ومن ثمَّ تسلموا قيادتها. وقد أفضى وايزمان إلى أحد أصدقائه، عام ١٩١٤، بأن فرصة الشعب اليهودي للتقدُّم بمطلبه في أن يكون له وطن قد أصبحت أخيراً في متناول اليد، ولكن أضاف: إن الصهاينة لا يستطيعون التقدُّم بأي مطالب، لأن اليهود مشتتون بدرجة كبيرة. وقد اقترح وايزمان وغيره من الصهاينة حل المشكلة «من أعلى»، من ناحية المصالح الإمبريالية، وليس من «أسفل»، من ناحية الجماهير اليهودية، وحدَّد الاستراتيجية على النحو التالي: "إذا دخلت فلسطين في نطاق النفوذ البريطاني، وإذا شجَّعت بريطانيا عملية استيطان اليهود هناك، وأصبحت دولة خاضعة لبريطانيا، فسيصبح هناك ـ خلال عشرين إلى ثلاثين عاماً ـ مليون يهودي"[١] يقومون بخدمة المصالح الإمبريالية.

وعندما أعرب أحد المسئولين في الحكومة الإنجليزية عن دهشته للموقف المناهض للصهيونية الذي اتخذه قادة اليهود البريطانيين، أكد وايزمان له أن خطة شن الهجوم «من أعلى» مؤكَّدة النجاح، وتكهَّن أنه بمجرد الاعتراف بفلسطين وطناً قومياً لليهود، فإن اليهود البريطانيين المناهضين للصهيونية «سيوافقون على الفور» على الحل الصهيوني، وأنهم هم أنفسهم سينخرطون في صفوف الحركة الصهيونية في الوقت المناسب[٢]، أي أنه عن طريق كسب ود القوة الإمبريالية يمكن للحركة الصهيونية أن تفرض نفسها على الجماهير اليهودية (وهذه الخطة لا تختلف كثيراً عن الخطة التي تبناها الصهاينة تجاه العرب، فالتحالف مع إنجلترا ومع حكومة الانتداب

---

(1) Cited in Ibrahim Abu-Lughod and Bahaa Abu-Laban (Eds.), **Settler Regimes in Africa and the Arab World: The Illusion of Endurance** (Wilmette, Ill.: Medina University Press, 1974), 183.

(2) Chaim Weizmann, **Trial and Error: The Autobiography of Chaim Weizmann** (New York: Harper, 1949), p. 179.

كان هو الوسيلة الوحيدة المتاحة أمام الصهاينة لاستعمار فلسطين). ولذا كان وايزمان يصر دائماً على أن ينظر إلى مشروع الاستيطان الصهيوني "في ضوء المصالح الإمبريالية"[1] (وليس في ضوء الرؤى الإنجيلية أو التاريخ اليهودي). وقد كتب في تاريخ لاحق أنه لو لم توجد فلسطين لكان من الضروري خلقها من أجل مصلحة الإمبريالية[2].

وقد تم في نهاية الأمر استيعاب الغالبية الساحقة من يهود العالم في المنظومة الصهيونية من خلال وسيلتين أساسيتين:

١ ـ توجد غالبية يهود العالم في العالم الغربي وفي الولايات المتحدة بالذات، وقد نجحت الصهيونية في أن تجعل من نفسها جزءاً من الاستراتيجية الغربية العامة، إذ أصبحت دولة عميلة استوعبت الفائض البشري اليهودي وحوّلته إلى كتلة بشرية متماسكة تخدم المصالح الغربية. وبالتالي لم يعد هناك أي تناقض بين أن يكون اليهودي صهيونياً يدين بالولاء للدولة الصهيونية وأمريكياً يدين بالولاء للولايات المتحدة، فالولاء للواحد يصب في الولاء للآخر.

٢ ـ نجحت الحركة الصهيونية في تهدئة روع يهود الغرب المندمجين الذين كانوا يعارضون المشروع الصهيوني لأنه يطلب منهم ترك أوطانهم والاستيطان في فلسطين، إذ طرحت مفاهيم كثيرة مثل «صهيونية الدياسبورا»، أي صهيونية اليهودي الذي يود أن يؤيد الحركة الصهيونية دون أن يهاجر، ولذا سميناها «الصهيونية التوطينية» تمييزاً لها عن «الصهيونية الاستيطانية»، وهي صهيونية اليهودي الذي يستوطن في فلسطين ولا يكتفي بالتأييد السياسي والدعم المالي.

٣ ـ نجحت الصهيونية في صهينة العقيدة اليهودية ذاتها بأن أعادت تفسير كثير من المفاهيم الدينية اليهودية خاصةً فكرة العودة، فبعد أن كانت العودة محرَّمة إلا تحت قيادة الماشيَّح (المسيح المخلِّص اليهودي في آخر الأيام وحين يأذن الإله)،

---

(1) Ibid., p. 205.

(2) Crossman, A Nation Reborn, p. 131.

أفتى بعض الحاخامات أنه يمكن العودة والاستيطان في فلسطين إعداداً لمقدم الماشيِّح. (وسنتناول هذا الجانب بالتفصيل في الفصل التالي).

٤ ـ طوَّر الصهاينة ديباجات مراوغة متنوعة يسَّرت على أعضاء الجماعات اليهودية أن يقبلوا الرؤية الصهيونية غير اليهودية، وأن يقبلوا نقلهم إلى فلسطين وتحولهم إلى كتلة استيطانية غربية تُغرس غرساً في وسط العالم العربي. وكما أسلفنا، تنطلق الصهيونية الاستعمارية الغربية من كُره اليهود، الشعب العضوي المنبوذ، وتطلب نقلهم وتوظيفهم. أخذت الصهيونية اليهودية نقطة الانطلاق هذه، وبدلاً من الشعب العضوي المنبوذ، أصبح اليهود هم الشعب اليهودي العضوي، وطنه الحقيقي هو صهيون أو أرض الميعاد.

هذا الشعب العضوي سيُنقل من منفاه (أي وطنه الأصلي) لا لأنه قاتل المسيح أو لأنه جماعة وظيفية فَقَدت وظيفتها سيتم توظيفها في الشرق خارج أوربا في خدمة الغرب، وإنما لعدد من الأسباب تتغيَّر بتغيُّر المخَاطَب. وهو سيُنقل لهذه الأرض لا بسبب موقعها الاستراتيجي حيث تطل على البحرين الأبيض والأحمر وتقع في وسط العالم العربي فتقسمه قسمين، بل لأن الشعب العضوي مرتبط بها عضوياً ولا يمكنه أن يحقق خلاصه فيها إلا بالعودة إليها لتأسيس دولة يتغيَّر مضمونها السياسي بتغيُّر مضمون المخاطَب أيضاً:

١ ـ إذا كان اليهودي المخاطَب يهودياً متديناً فإن اليهود يصبحون شعباً مقدَّساً، مكروهاً من الأغيار بسبب قداسته، وسيتم نقله من المنفى إلى فلسطين استجابةً للحُلْم الأزلي بالعودة وتحقيق رسالة اليهود ولتأسيس دولة يهودية تُطبِّق قوانين الشريعة اليهودية.

٢ ـ إذا كان اليهودي المخاطَب اشتراكياً ثورياً فإن الشعب اليهودي يُنقل بسبب تركيبه الطبقي غير السوي في المنفى، وسيُوطَّن في فلسطين ليصبح تركيبه الطبقي عادي وليُطبِّع الشخصية اليهودية ولتأسيس دولة العمال والفلاحين التي ستُحقِّق المُثُل الاشتراكية وتُثوِّر الشرقي العربي.

٣ ـ إذا كان اليهودي المخاطَب مهتماً بالهُوية اليهودية فالشعب اليهودي يُنقل من المنفى لأنه إن استمر في البقاء فيه سيندمج وينصهر ولأن هُويته الإثنية العضوية لا يمكن أن تتحقق إلا في أرضه، داخل دولة يهودية خالصة تكون بمنزلة مركز روحي وثقافي ليهود العالم.

٤ ـ إذا كان اليهودي المخاطَب ليبرالياً ديمقراطياً فالشعب اليهودي يُنقل لأنه شعب ليبرالي عادي يود أن يكون مثل كل الشعوب، خصوصاً الشعوب الغربية، وهو يُنقل ليؤسس دولة ديمقراطية علمانية تسودها القيم الليبرالية الغربية.

وآليات نقل اليهود ليست الاستعمار الغربي أو العنف والإرهاب وإنما هي "القانون الدولي العام" متمثلاً في وعد بلفور (في الصياغة الصهيونية الليبرالية العلمانية) أو "تنفيذاً للوعد الإلهي والميثاق مع الإله" (في الصياغة الدينية) أو بسبب قوة اليهود الذاتية (في الصياغة الداروينية).

الدولة الصهيونية العميلة

رغم تغيُّر الديباجات، ورغم تغيُّر أسباب نقل اليهود (سواء بسبب الوعد الإلهي أو وعد بلفور) فإن العنصر الثابت هو العنصر الاستعماري الاستيطاني الإحلالي: نقل كتلة بشرية من الغرب وتوطينها في الشرق لتحل محل السكان الأصليين. والجيب الاستيطاني الصهيوني لا يختلف في هذا عن كل الجيوب الاستيطانية الأخرى سواء في الجزائر أم جنوب أفريقيا، إذ إن ما تغيَّر هو الديباجات وحسب. وبهذا يمكن القول إن صهيونية اليهود الاستعمارية لم تكن سوى آلية لتسويق صهيونية غير اليهود الاستعمارية المبنية على كراهية اليهود والداعية إلى تخليص أوربا منهم وتوظيفهم لصالحها، أي أن الصهاينة اليهود تبنوا الحل الاستعماري الغربي للمسألة اليهودية ووضعوا الصهيونية داخل التشكيل الإمبريالي الغربي.

والسمة الأساسية للإمبريالية الغربية هي أنها كانت تهدف إلىٰ حل مشاكل المجتمع الأوربي عن طريق «تصديرها» إلى أفريقيا وآسيا. فعلى سبيل المثال يمكن

حل مشكلة المواد الخام اللازمة للمصانع البريطانية عن طريق تحويل مصر إلى مزرعة قطن. أما مشكلة زيادة السكان أو «الفائض البشري» - كما كانوا يطلقون عليه - وجزء كبير منه كان من اليهود، فيمكن حلها بطريقة مماثلة، أي عن طريق تصديرها. وإذا كان الاستعمار التقليدي هو الحل المطروح لمشكلة المواد الخام وتكدس السلع، فالاستعمار الاستيطاني هو الجواب على مشكلة تكدس السكان!

وكان ماكس نوردو، حتى قبل اعتناقه العقيدة الصهيونية، يفكر بهذه الطريقة، فقد اقترح أن تحل أوربا مشكلة البطالة عن طريق تحويل العمال الصناعيين إلى فلاحين "وإذا كانت أوربا تفتقر إلى المساحة اللازمة، فينبغي عليهم أن يهاجروا عبر البحار"[1]، ويغتصبوا أراضي الآخرين ويطردوهم منها أو يبيدوهم تماماً. ومما له دلالته أن الحل الاستعماري اتخذ من أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية مسرحاً لنشاطه، وأن هذا النشاط لم يمتد بتاتاً إلى أي منطقة داخل أوربا ذاتها، "فلم يحدث أن استعمرت دولة أوربية أخرى. كانت البلاد تتصارع وتتقاتل ثم تتم تسوية الحدود داخل إطار القوميات"[2]. وعلى الرغم من أن نمط الاستعمار التقليدي والاستيطاني مختلفان، لأنهما يتوجهان لمشكلتين مختلفتين، فهما تعبير عن الظاهرة الاستعمارية نفسها، ويخدمان مصالحها بل ويتداخلان في كثير من الأحيان. فجيوب الاستعمار الاستيطاني لن تستوعب الفائض الإنساني فحسب، بل يمكن استخدامها أيضاً قواعد لعمليات الاستعمار التقليدي ضد الدول المجاورة. والاقتراح الصهيوني لحل المسألة اليهودية يتفق تماماً مع الصيغة الاستعمارية الأوربية لحل مشاكل المجتمع الغربي: أن تقوم شعوب الشرق بدفع ثمن التقدم والازدهار الغربيين. وقد كتب أوسكار ت. رابينوڤيتش في **كتاب هرتزل السنوي** ملخصاً سياسة هرتزل وتكتيكاته، بل والمشروع الصهيوني كله، فلم يقل إنه محاولة لتنفيذ

---

(1) Desmond Stewart, **Theodore Herzl** (Garden City, New York: Doubleday, 1974), p. 192.

(٢) جمال حمدان، **استراتيجية الاستعمار والتحرير** (القاهرة: كتاب الهلال، دار الهلال ١٩٨٦)، ص ١٥١.

المخطط الذي ورد في **البروتوكولات** أو التعليمات التي وردت في التلمود، وإنما هو محاولة لتحويل "تيار المهاجرين اليهود من إنجلترا إلى أفريقيا وآسيا". وعلاوة على ذلك فالصهيونية تخلق موقعاً مهماً للإمبراطورية البريطانية وطرقها عن "طريق إنشاء مركز يهودي مستقل"[1]. وكان هرتزل، والزعماء الصهاينة بعامة، يصدرون عن هذه الفلسفة الاستعمارية حين فكروا في الأراضي التالية لتحويلها لوطن يهودي وتفاوضوا بشأنها: شبه جزيرة سيناء، ومنطقة العريش، وجزء من كينيا (المعروف في التاريخ الصهيوني «بشرق أفريقيا» أو «أوغندا»)، وجزء من قبرص، والكونغو البلچيكي، وموزمبيق والعراق وليبيا وفلسطين.

وبسبب إدراك هرتزل التام للطبيعة الاستعمارية للمشروع الصهيوني، نجده يعدد في مذكراته (بتاريخ ٢٣ سبتمبر ١٩٠٢) أسماء بعض الشخصيات الاستعمارية التي اعتقد أنه كان يتلاعب بها كما لو كانت قطع الشطرنج: سيسل رودس، والرئيس تيودور روزفلت، وملك إنجلترا، وقيصر روسيا[2]. وقد كتب هرتزل للسير سيسل رودس، الذي كان يرى أن الاستعمار الاستيطاني هو ترياق الثورة الاجتماعية في أوربا، يدعوه إلى أن يساعد في صُنع التاريخ، باشتراكه "في شيء استعماري". بعد هذا التعميم، يدخل هرتزل في التفصيلات، فيخبر المفكر الاستعماري بأن هذا الشيء لا يتضمن أفريقيا، وإنما يقع في آسيا، وهو لا يخص الإنجليز، وإنما يخص اليهود[3]. ولكن لماذا توجَّه إلى رودس على وجه الخصوص؟ الأمر بسيط للغاية، لقد اتجه هرتزل إلى أشهر شخصية استعمارية كي يعطي شرعيته الاستعمارية للمشروع الصهيوني، ويصدر تصريحاً في صالحه[4]. وارتباط هرتزل بالاستعمار عميق وشخصي لأقصى درجة، حتى أنه اهتم بأن يدوِّن في يومياته أنه يجب أن يرتدي "قبعة مصممة على طريقة ستانلي من أجل أساطير المستقبل"[5].

---

(1) Rabinovich, "Herzl and England", **Herzl Year Book**, Vol. III, p. 42.

(2) Patai, **The Complete Diaries**, Vol. II, p. 1179.

(3) Ibid., p. 1194.

(4) Ibid.

(5) Ibid., Vol. I, p. 91.

وكان هرتزل، في بعض الأحيان، يقع صريع رؤاه الصهيونية الاستعمارية المتضخمة. ففي خطاب لماكس نوردو عن مشروع شرق أفريقيا الذي كان يهدف إلى توطين الصهاينة هناك، أشار هرتزل إلى الدول الأوربية المختلفة التي نجحت في بناء "الإمبراطوريات الاستعمارية التي تجني منها الثروة"، وإلى إنجلترا التي "تصب فائضها السكاني في الإمبراطورية الواسعة التي ضمتها". ثم أضاف قائلاً ـ في كلمات تثير السخرية والشفقة في وقت واحد ـ: إن اليهود ينبغي عليهم أيضاً "أن ينتهزوا الفرصة المواتية ليصبحوا إنجلترا صغيرة.. لنبدأ بالحصول على مستعمراتنا أولاً، وبقوة هذه المستعمرات سنقوم بغزو وطننا. ولتكن الأرض التي تقع ما بين الكليمانجارو وكينيا أولى مستعمرات إسرائيل. وليكن هذا هو الأساس الذي تقف عليه صهيون"[1]. وقد استحسن نوردو الفكرة، فوصف هو الآخر مشروع شرق أفريقيا بأنه مجرد «مأوى ليلي»، حجر أساس استعماري يتكئ عليه الصهاينة لبناء صهيون الاستعمارية.

وكما بيّنا من قبل كان الصهاينة، الذي يقفون بدون جماهير يهودية خلفهم وبدون قاعدة إقليمية يعملون منها، في أشد الحاجة إلى الدعم والتأييد من قوة استعمارية أوربية تمدهم بغطاء عسكري وسياسي واقتصادي لبناء مستعمراتهم. ولكن يبدو أن هرتزل كان ينسى حدوده أحياناً (كما تفعل إسرائيل في الوقت الحالي)، إذ يذكر (في الخطاب الذي بعث به إلى نوردو) العديد من القوى الإمبريالية التي يعتقد أنها ستساعد الكثير من المستعمرات الصهيونية في أفريقيا وآسيا: "ولسوف تحذو دول أخرى حذو إنجلترا، ولسوف ننشئ مراكز جديدة... في موزمبيق والكونغو وطرابلس (في ليبيا) بمساعدة البرتغاليين والبلچيك والإيطاليين"[2]. وكان هرتزل واسع الخيال حقاً، إذ كان يتخيل نفسه شخصية أسطورية عظيمة، يجلس في هدوء كامل بين زعماء القوى الاستعمارية؛ «الإنجليز والروس والبروتستانت والكاثوليك»، الذين يتنافسون من أجل خدمته (دون أن

(1) Ahmed El-Kodsi and Eli Lobel, The Arab World and Israel (New York: Monthly Review Press, 1970), p. 116.

(2) Ibid.

يبيّن السبب). ثم يضيف: "بهذه الطريقة سيتم دعم قضيتنا"[1]. وقد تصوّر هرتزل ـ ثملاً بأحلامه الإمبريالية ـ دولة استعمارية استيطانية يهودية تضم اليهود من كل الجنسيات وتخدم أوربا الإمبريالية كلها دون تفرقة أو تمييز: "وينبغي علينا، بوصفنا دولة محايدة، أن نبقى على اتصال بكل أوربا، التي يجب أن تضمن بقاءنا"[2] ـ ضرب من الأممية الإمبريالية والأخوّة الاستعمارية التي لا تعرف الحدود القومية! ولكن فلنلاحظ أن الأحلام هنا ليست يهودية أو بروتوكولية وإنما أحلام توسّعية انتشارية استعمارية!

ولكن هذه اللحظات الأممية الانتشارية الثملة، لم تكن هي اللحظات النمطية، إذ إن هرتزل، في اللحظات الأكثر اتزاناً، كان يتقدم لإحدى القوى الاستعمارية لمساعدته على إقامة دولة يهودية مستقلة تابعة في فلسطين، أو في أي مكان آخر تحت «سيادة»[3] هذه القوة أو تلك. فعرض هرتزل ـ على سبيل المثال ـ على ڤيكتور إيمانويل الثالث ـ ملك إيطاليا ـ مشروعه الخاص "بتوجيه الفائض من الهجرة اليهودي" إلى ليبيا تحت رعاية إيطاليا. ولكن الملك لم يأخذ كلام هرتزل على محمل الجد، ورد عليه ببرود مبيناً له أن المشروع الصهيوني يعني البناء "في منزل شخص آخر"[4] (ولكن يجب التنويه هنا بأن الزعيم الفاشي موسوليني الذي كان يكن كُرهاً عميقاً لليهود أظهر أثناء اجتماعاته المتكررة مع وايزمان وناحوم جولدمان تعاطفاً وتفهماً أكبر لفكرة الدولة الصهيونية، بل وصف موسوليني نفسه بأنه «صهيوني غير يهودي»[5].

وفي بحثه الدائب الذي لا يكل عن قوة إمبريالية يقوم بخدمتها نظير الحماية

---

(1) Patai, **The Complete Diaries**, Vol. I, p. 333.

(٢) العابد وعنز، **الفكرة الصهيونية: النصوص الأساسية**، ص ١٢٠.

(3) Patai, **The Complete Diaries**, Vol. II, p. 201.

(4) **Ibid.**, Vol. IV, p. 1600.

(5) Nahum Goldmann, **The Autobiography of Nahum Goldmann: Sixty Years of Jewish Life**, Trans. Helen Sabba, (New York: Holt, Rinehart and Winston, 1969), pp. 160-163. Chaim Weizmann, **Trial and Error: The Autobiography of Chaim Weizmann** (New York: Harper, 1949), pp. 368-372.

التي ستمده بها، توجه هرتزل إلى الإمبراطورية العثمانية، متعهداً بأنه إذا ما وافق السلطان على إعطاء الصهاينة "قطعة من الأرض.. فإننا في مقابل ذلك سنقوم بترتيب منزله وسنصلح موارده المالية ونقومها، وسنؤثر على الرأي العام في جميع أنحاء العالم بما يتفق مع مصالحه"[١]. وستكون لهذه العلاقة مزايا أخرى، مثل إنشاء جامعة في استنبول، حتى لا يحتاج الطلبة الأتراك إلى السفر إلى أوربا، فيتعرضون لتأثير الأفكار الديمقراطية والثورية الضارة (وليلاحظ هنا أن هرتزل يتحدث عن الحركة الصهيونية كما لو كانت وريثة لدور يهود البلاط الذين كانوا يخدمون الإمارات والدوقيات الألمانية حتى نهاية القرن السابع عشر). ومع انبعاث حركة القومية العربية ومعارضة الحكم العثماني، وجد العرب في إنجلترا حليفاً مؤقتاً لهم، فاتجه الصهاينة إلى الأتراك وحلفائهم الألمان، ناصحين إياهم "بأن إنشاء مقاطعة يهودية في فلسطين هو أمر مرغوب فيه لخلق توازن مع الـ ٦٠٠,٠٠٠ عربي في فلسطين" ومع الدول المحيطة بها[٢].

وقد ظل هرتزل، بما عُرف عنه من إعجاب شديد بالحضارة الألمانية والعسكرية البروسية، يفكر في إنشاء الدولة اليهودية كمحمية ألمانية، وكان القيصر ويلهم الثاني (المعروف باتجاهاته المعادية للسامية) يدرك المزايا الكامنة لألمانيا إذا ما تبنت المشروع الصهيوني، لأنه - كما أسلفنا - سيستفيد من "قوة الرأسمال اليهودي «ومن» عرفان اليهود بالجميل لألمانيا"[٣]. وكان بسمارك أيضاً يفكر في توطين اليهود في المنطقة المحاذية لخط بغداد - برلين، حتى يصبحوا أقلية تجارية تصطدم بالسكان المحليين، وتعتمد على ألمانيا لحمايتها، فيكونون خير ممثل للاستعمار الألماني هناك[٤]. وفيما بعد أبدى النازيون اهتماماً كبيراً بالمشروع الصهيوني، وتعاونوا في وضع هذا المخطط موضع التنفيذ، بل إنهم درسوا ثلاث خطط أخرى لتوطين اليهود

(1) Patai, **The Complete Diaries**, Vol. I, p. 363.

(2) Moshe Percan, "Chapters in Arabic-Jewish Diplomacy: 1918-1922," **Jewish Social Studies**. Vol. VI (April, 1944), p. 128

(3) Qouted in Gordon Levin (Ed.), **The Zionist Movement in Palestine and World Politics**, 1880-1918 (Lexington, Mass Heath, 1974), pp. 76-77.

(٤) بديعة أمين، **المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية** (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٤)، ص ١٥٢.

في سوريا وأكوادور ومدغشقر[1]. بيد أن السلطان العثماني رفض أن يبيع «فلسطين للصهاينة»، كما أن خلفاءه لم يبدوا أي تحمس للمشروع الصهيوني. وفَقَد الألمان أيضاً اهتمامهم بالمشروع بسبب الوضع الدولي، وبسبب انحصار اهتمامهم في المستوطنين الألمان في فلسطين، فكان على الزعيم الصهيوني أن يختط طريقاً آخر.

وكان الطريق في الواقع واضحاً، فكل المحاولات السابقة لم تكن سوى جهود بدائية يبذلها مفكر يتحسس طريقه وهو بعد في بدايته. ولكن هرتزل كان يتجه بناظريه - وحتى في هذه المرحلة ذاتها - "نحو إنجلترا" «منذ اللحظة الأولى»[2]، كما جاء في خطابه إلى المؤتمر التأسيسي للاتحاد الصهيوني الإنجليزي بتاريخ ٢٨ فبراير ١٨٩٨. ويرجع حبه هذا لإنجلترا إلى إدراكه أن أسس الاستعمار البريطاني أكثر ثباتاً واستقراراً من أسس الاستعمار الفرنسي أو البلجيكي أو الألماني. وقد جاء في خطاب ألقاه في لندن في عام ١٨٩٩ أن "الإنجليز هم أول من اعترفوا بضرورة التوسع الاستعماري في العالم الحديث، ولذلك فإن علَم بريطانيا العظمى يرفرف عبر البحار". ولهذا السبب حزَّم الزعيم الصهيوني حقائبه واتجه إلى لندن، حيث توقع أن يجد كثيراً من الإعجاب لرؤيته الصهيونية، لأن «الفكرة الصهيونية» - التي "تعتبر فكرة استعمارية - لابد أن تلقى الفهم في إنجلترا بسهولة وبسرعة"[3]. وفي تصوري أن تصنيف هرتزل للفكرة الصهيونية التي ورثها من الصهاينة الاستعماريين الغربيين غير اليهود وقام بإعادة صياغتها وتطويرها لتجنيد يهود العالم أكثر تفسيرية من أولئك الذين يصنفونها على أنها فكرة يهودية.

وقد حاول هرتزل، طيلة حياته، أن يظهر الفوائد التي ستعود على الإمبراطورية البريطانية من إقامة الدولة الصهيونية؛ إذ كتب - قبل وفاته بعامين - إلى لورد روتشيلد في إنجلترا يخبره بأن المشروع الصهيوني سيُدعم النفوذ البريطاني في

(1) Karl, A. Schleunes, The Twisted Road to Auschwitz: Nazi Policy Toward German Jews, 1933-1939 (Urbana, Ill: University of Illinois Press, 1970), pp. 182-184.

(2) Rabinovich, "Herzl and England", p. 38.

(3) Ibid., pp. 42-43.

شرق البحر المتوسط عن طريق إنشاء " مستعمرة كبيرة تضم أفراد شعبنا (اليهودي) وتقع عند نقطة التقاء المصالح المصرية بالمصالح الهندية/ الفارسية[1]. وفي نص آخر أشار أيضاً إلى أن الدولة الصهيونية ستضيف إلى «الإمبراطورية مستعمرة أخرى غنية»[2]. (تماماً مثلما يحاول خلفاء هرتزل في الوقت الحاضر أن يثبتوا أن الدولة الصهيونية ستضيف للإمبراطورية الأمريكية مستعمرة أو ولاية أخرى قوية وغنية).

وهذا الإدراك للدولة اليهودية باعتبارها دولة تابعة، مجرد مستعمرة، هو الصفة المميزة لجميع المدارس الصهيونية. فنوردو أيضاً، على سبيل المثال، صرَّح في خطاب له في لندن في ١٦ يونيو ١٩٢٠ بأنه يرى أن الدولة اليهودية ستكون " بلداً تحت وصاية " بريطانيا العظمى، وأن اليهود سيكونون " حرَّاساً يقفون على طول الطريق الذي تحفه المخاطر والذي يمتد عبر الشرقين الأدنى والمتوسط حتى حدود الهند "[3]. وقد وصف ريتشارد كروسمان، عضو البرلمان البريطاني العمالي، صديقه الحميم وايزمان بأنه كان من المؤمنين إيماناً راسخاً «بمزايا الإمبراطورية»[4]، وأنه كان يرى أن الاستيطان اليهودي في فلسطين ضمان أكيد لسلامة إنجلترا، ولا سيما، «فيما يتعلق بقناة السويس»[5]. وقد ذكر وايزمان، في خطاب كتبه لتشرشل عام ١٩٢٠ وإن لم يرسله، ما أسماه «المصالح المشتركة» و«التحالف الطبيعي» بين الإمبراطورية والجيب الصهيونية[6]. والمصالح المشتركة نفسها كانت واضحة لبن جوريون، الذي أعلن في المؤتمر الصهيوني التاسع عشر (١٩٣٥) أن خيانة بريطانيا العظمى هي خيانة للصهيونية وتحدَّث في أماكن أخرى عن الجيب الصهيوني بوصفه قاعدة دفاعية للإمبراطورية في البر والبحر[7]. وقد

(1) Patai, **The Complete Diaries**, Vol. IV, p. 1309.
(2) **Ibid.**, p. 1366.
(3) Max Nordau, **Max Norau to His People: A Summons and a Challenge** (New York: Scoups Publishing Society, 1941), p. 209.
(4) Crossman, **A Nation Reborn**, p. 36.
(5) Weizmann, **Trial and Error**, p. 192.
(6) Crossman, **A Nation Reborn**, p. 125.
(7) Theodore Ben-Herman, "Zionism and the Lion", in Hal Draper (Ed.), **Zionism, Israel and the Arabs** (Beerkely, California: Independent Socialist Clippingbooks, 1967), p. 27.

قالت حنا أرنت، في مقالها عن الصهيونية الذي كتبته عام ١٩٤٥، والذي يضم عدداً من النبوءات الصادقة، إن موقف الصهيونية الممالئ للاستعمار هو أمر حتمي؛ لأن الصهيونية حين عدَّت نفسها «حركة قومية»، باعت نفسها منذ اللحظة الأولى إلى أصحاب السلطة والنفوذ. فشعار الدولة اليهودية كان يعني - في واقع الأمر - أن اليهود ينوون أن يتستروا بستار القومية، وأن يقدموا أنفسهم على أنهم «مجال نفوذ» لأي قوة كبرى[١].

ويبدو أن التعاون بين الصهيونية والاستعمار الغربي من أول وأكثر الموضوعات إلحاحاً في الأدبيات الصهيونية (اليهودية وغير اليهودية). فقد استشهد سوكولوف، في الجزء الثاني من كتابه **تاريخ الصهيونية**، بخطاب مؤرخ عام ١٧٩٨ بعث به يهودي إلى بني ملته يدعوهم فيه إلى العودة إلى بلاد تمتد من صعيد مصر إلى البحر الميت، الأمر الذي سيجعلهم متحكمين في "تجارة الهند والعرب وجنوب وشرق أفريقيا"[٢]. ثم أضاف كاتب الخطاب قائلاً إن مجلس اليهود سيعرض على الحكومة الفرنسية حماية الشعب اليهودي، نظير أن يشارك تجار فرنسا وحدهم في تجارة الهند وخلافها[٣].

والموضوع نفسه يتكرر في كتاب المفكر الصهيوني موسى هس، الذي دعا إلى إنشاء مستعمرات يهودية "من السويس حتى القدس، ومن ضفتي نهر الأردن حتى شاطئ البحر المتوسط" تحت رعاية فرنسا، ثم يتحول المصطلح السياسي الاستعماري إلى مصطلح غنائي، شبه ديني؛ فيقول: "ستكون فرنسا صديقتنا الحبيبة، المخلص الذي سيعيد لشعبنا مكانته في تاريخ العالم"[٤].

وحروب إسرائيل المتكررة لا يمكن فهمها فهماً كاملاً إلا بوضعها داخل إطار المصالح والتحركات الإمبريالية في الشرق الأوسط، فهي لا تنبع من التوراة أو

---

(1) Michael Selzer (Ed.), **Zionism Reconsidered: The Rejection of Jewish Normalcy** (New York: The Macmillan Company, 1970), p. 247.

(2) Nahum Sokolov, **History of Zionism**, Vol. II, p. 221.

(3) **Ibid.**, p. 222. Emphasis in the Original.

(٤) العابد وعنز، **الفكرة الصهيونية**، ص ٣٦.

التلمود أو **البروتوكولات**. وإنما تنبع من كونها جيباً استيطانياً إحلالياً غربياً تم غرسه في وسط العالم العربي، وعلى الأرض الفلسطينية.

ويبدو أن المخطط الصهيوني لم يكن يهدف إلى تسخير المستوطنين الصهاينة في فلسطين كخدمة للإمبريالية وحسب، بل كان يأمل - على ما يبدو - في تسخير كل التجمعات اليهودية في جميع أنحاء العالم (أين هذا من الزعم البروتوكولي بأن اليهود سيسيطرون على العالم وسيسخرون البشر في خدمتهم؟). ففي اجتماع بين هرتزل وفيكتور إيمانويل الثالث، استخدم الزعيم الصهيوني مصطلحاً رومانسياً خطابياً، يشبه مصطلح الاسترجاعيين، ليصف المشروع الصهيوني؛ فأشار إلى أن نابليون قد دعا إلى عودة اليهود إلى فلسطين؛ فرد عليه ملك إيطاليا بأدب وحزم قائلاً: "إن ما كان يريده، هو أن يجعل اليهود المشتتين في جميع أنحاء العالم عملاء له". عندئذ اضطر هرتزل إلى أن يعترف بأن تشمبرلين، وزير الخارجية البريطاني، كانت لديه أيضاً أفكار مماثلة. فرد الملك، ربما بعد أن تملَّكه الضجر من الحديث، قائلاً: "إنها فكرة واضحة"[1]. ولم يكن رد الملك على هرتزل مفاجأة له، لأنه كان قد وعد بأنه إذا وافقت إنجلترا على مشروعه الصهيوني فإنها ستحصل، "في ضربة واحدة"، على عشرة ملايين تابع (عميل) سري... في جميع أنحاء العالم، يتسمون بالإخلاص والنشاط... وبإشارة واحدة سيضع كل واحد منهم نفسه في خدمة الدولة التي تقدم لهم العون. إن إنجلترا ستحصل على عشرة ملايين عميل يضعون أنفسهم في خدمة جلالتها ونفوذها". ثم أعرب الزعيم الصهيوني عن أمله في أن تدرك إنجلترا مدى القيمة والفائدة التي ستعود عليها من وراء كسبها للشعب اليهودي[2].

إنَّ الخطة الصهيونية الخاصة بتخليص أوربا من الشعب اليهودي ونقله إلى فلسطين وتسخيره في خدمة العالم الغربي نقطة انطلاق من الأيديولوچية الصهيونية؛ في عام ١٩٢٠ عبَّر ماكس نوردو عن تفهمه العميق للدوافع التي

(1) Patai, The Complete Diaries, Vol. IV, p. 1600.

(2) Ibid., p. 1367.

حرّكت رجال السياسة اليريطانيين الذين كانت تواجههم مشكلة التوازنات الدولية. وبعد القيام بحساباتهم، توصل هؤلاء الساسة إلى أن اليهود يعتبرون في الحقيقة «مصدر قوة» وربما «مصدر نفع» أيضاً لبريطانيا وحلفائها، ومن ثمّ عرضوا عليهم فلسطين(١).

وثمة موضوع آخر يتكرر بصفة منتظمة في كتابات المفكرين والزعماء الصهاينة، هو أن «يهودية» الدولة التي ستنشأ على أرض فلسطين هي الضمان الأكيد لولائها وعمالتها للقوى الاستعمارية. فقد كان نوردو ـ على سبيل المثال ـ يرى أن بريطانيا مهدّدة من الاتحاد السوفيتي وبسبب ظهور القومية العربية وتطلعات العرب نحو الوحدة، وبيّن أن العامل الأخير بخاصة سيعرّض سيطرة بريطانيا على قناة السويس للخطر. ولذا أكد نوردو أن وجود حليف موثوق به أمر يجب أن يلقى الترحيب، فالصهيونية تعرض أن تكون هذا الحليف بشرط أن تمنحها بريطانيا الفرصة لأن تكوّن دولة يهودية قوية في أرض الآباء(٢).

وأكد فلاديمير جابوتنسكي أهمية فلسطين من وجهة نظر المصالح الإمبريالية البريطانية، التي عدها «حقيقة بديهية معروفة». بيد أن هذه الحقيقة تستند إلى "شرط مهم، وهو أن فلسطين يجب ألا تظل بلداً عربياً"، فمن رأيه "أن ثمة عيباً أساسياً في كل معاقل [أي مستعمرات] إنجلترا في البحر المتوسط" هو أنها جميعاً "آهلة بالسكان الذين لهم مراكز جذب قومية مختلفة" يتوجهون إليها "بشكل عضوي لا يمكن علاجه". فكل هؤلاء السكان ـ إن عاجلاً أو آجلاً ـ سيسعون للحصول على استقلالهم مبتعدين بذلك عن إنجلترا. وسينطبق هذا القانون على عرب فلسطين الذي سيدخلون "فلك المصير العربي؛ اتحاد الدول العربية، وإزالة كل أثر من آثار النفوذ الأوربي". وقد قارن جابوتنسكي بين هذه الصورة السلبية لفلسطين العربية ـ التي تنتمي إلى عالم عربي موحد ـ وصورة فلسطين اليهودية التي

(1) A Speech in London, on 16 July 1920. Cited in Nordau, **Max Nordau to His Pople**, p. 208.

(2) Meir Ben-Horin, **Max Nordau: Philosopher of Human Solidarity** (New York: Conference of Jewish Social Studies, 1956), p. 201.

لا تنتمي إلى المنطقة والموالية بشكل دائم لبريطانيا[1]. وقد استخدم وايزمان الحجة نفسها حين حذَّر القوى الاستعمارية الغربية من الاعتماد على "هذا الولاء العربي المشكوك في أمره، والذي يقع قريباً للغاية من طرق المواصلات الحيوية عبر شريط السويس الضيق". ثم قال: "إن الحركة العربية تقود المرء للاعتقاد بأنها مناهضة لأوربا... ولذا يجب الاعتماد على اليهود لضمان وجود عنصر موالٍ (للغرب)"[2].

ويثير بعض البروتوكوليين وغيرهم عدة اعتراضات على هذا الطرح الذي يجعل من الصهيونية جزءاً من تاريخ التشكيل الحضاري والاستعماري الغربي وليست جزءاً من تاريخ يهودي عالمي، والذي يؤكد أنه في علاقة الغرب بالدولة الصهيونية (بالذات الولايات المتحدة) فإن الإمبراطورية الأمريكية هي التي توظِّف إسرائيل وتتحكَّم فيها، فيقول البروتوكوليون إن هذا الطرح "يُبرئ" ساحة اليهود لأنه يجعل من اليهود مجرد ضحية مستغَلة من قبَل الغرب. والرد على هذا أننا لسنا في مجال "محاكمة" اليهود أو الصهاينة، وإنما نحاول فهمهم وفهم دوافعهم ورؤيتهم ومخططاتهم وسلوكهم ومواطن قوتهم وضعفهم وحدود حركتهم، فإن اكتشفنا أن إسرائيل دولة وظيفية عميلة أُسِّست لتقوم على خدمة الغرب والدفاع عن مصالحه، فعلينا أن نتحرك في إطار هذا الإدراك، ونحدِّد منْ هو العدو المباشر ومَنْ هو العدو غير المباشر الذي يقوم بدعم عدونا وضمان بقائه واستمراره وقوته، ثم نحدِّد أولوياتنا وأساليبنا النضالية بما يتفق مع إدراكنا وتحليلنا للموقف.

وعلى كلٍّ، إن عرفنا أن العدو مكوَّن من مجموعة من المرتزقة فإن هذا لا يعفيهم من مسئولية اغتصاب الأرض وطرد بعض أصحابها منها وإبادة البعض الآخر، ولا يعفينا من واجب التصدي لهم. ومنذ متى كان إدراكنا أن هناك مرتزقة في الجيش الذي يحاربنا تثير شفقتنا وتعاطفنا؟ على سبيل المثال كانت الفرقة الأجنبية (الفرنسية) مكوَّنة أساساً من مرتزقة من جنسيات مختلفة،

(1) Quoted in Draper, Zionism, Israel and the Arabs, p. 27.

(2) Cited in Crossman, A Nation Reborn, pp. 131-132.

وكان بها عدد كبير من أعضاء الجماعة اليهودية، واستخدمها المستعمر الفرنسي في البطش بالشعوب، كما فعل في الثورة الجزائرية، فهل قوَّض هذا من عزم المجاهدين؟ وهل جعلتهم معرفتهم بهذه الحقيقة يحجمون عن مهاجمة هؤلاء المرتزقة؟

والاعتراض الآخر هو أننا حين نبيِّن أن إسرائيل دولة وظيفية عميلة، يسخِّرها الغرب لمصلحته، فإننا نجعل المواجهة في واقع الأمر مع الولايات المتحدة، بكل بطشها وقوتها، بدلاً من مواجهة الدولة الصهيونية وحسب. والرد على هذا بسيط: إن قادنا تحليلنا إلى استخلاص نتائج معينة بخصوص العدو المباشر والعدو غير المباشر، فعلينا أن نتحرك في إطارها، لأننا إن تجاهلناها لن يمكننا التعامل مع الواقع.

والطرح البروتوكولي يجعل مواجهتنا وكأنها مع عدو أخطبوطي هُلامي لا يمكن معرفة دوافعه (سوى أنه الشر الخالص المفطور في نفسه) ولا طريقة حركته (فهو صاحب مؤامرة سرية شيطانية) ولا كيفية التصدي له (إذ كيف يمكن التصدي لأخطبوط هلامي شيطاني له أذرع عديدة مثل الإله فشنو؟). أما الطرح الذي نقترحه فيصف الظاهرة الصهيونية بدقة، ويضعها داخل نمط متكرر (الجيوب الاستعمارية الاستيطانية الإحلالية مثل الجزائر وجنوب أفريقيا)، ومن ثَمَّ يمكننا تطوير أسلوب محدَّد للنضال ضدها، مستفيدين من التجارب النضالية المماثلة دون أن نكررها بالضرورة.

وإذا وضعنا الجيب الصهيوني داخل نمط متكرر فسوف ندرك إسرائيل في خصوصيتها وعموميتها، فهي جيب استيطاني مثل كل الجيوب الاستيطانية الأخرى في أنه يلجأ للبطش والعنف حتى يمكنه نقل كتلة بشرية من أوربا ويوطِّنها في أرض في آسيا وأفريقيا رغم أنف أصحابها من السكان الأصليين. ولكنه في ذات الوقت مختلف عن الجيوب الاستيطانية الأخرى في أنه يضم مجموعات بشرية مختلفة صُنِّفت تحت مصطلح "يهودي" رغم اختلافها وعدم تجانسها، وهي لا تتبع دولة إمبريالية واحدة، وإنما تنقل ولاءها من دولة لأخرى حسب انتقال موازين القوى.

وهي جيب استيطاني لم ينجح في إبادة السكان الأصليين (كما حدث في أمريكا الشمالية واستراليا). وحين حاول تسخيرهم واستعبادهم ووجه بمقاومة شرسة، وخاصةً أن هذا الشعب جزء من التشكيل الحضاري العربي والإسلامي الذي يسانده معنوياً ومادياً!

وإدراك أن الدولة الصهيونية ليست جزءاً من مؤامرة عالمية يهودية أزلية يفتح كوة عريضة من النور والأمل. فبعد دراسة تاريخ الجيوب الاستيطانية يمكننا القول إن الجيوب الاستيطانية الإحلالية التي كُتب لها البقاء هي الجيوب التي أبادت السكان الأصليين، أم تلك التي لم تفعل فقد زالت وبادت (وهذا ما حدث للجيب الاستيطاني في الجزائر وجنوب أفريقيا وفي فلسطين من قبل [ممالك الفرنجة]). ولا أعتقد أن الدولة الصهيونية تشكل استثناءً لهذه القاعدة ولهذا النمط.

الفصل الخامس
الصهيونية ذات الديباجات اليهودية

أشرنا من قبل إلى أن صهيونية غير اليهود تنبع من كُره عميق لليهود ورغبة في التخلص منهم وتوظيفهم لصالح الغرب في مكان يقع خارجه، وأن صهيونية اليهود لم تكن سوى عملية تسويق لصهيونية غير اليهود. ويمكن أن نضيف هنا أن صهيونية اليهود هي الأخرى تنبع من كراهية عميقة لليهود واليهودية ورغبة في تخليص أوربا منهم.

رفض اليهودية

يلاحظ أن مؤسسي الحركة الصهيونية لم يعيروا اليهودية أي التفات إلا باعتبارها مشكلة تبحث عن حل، بل أظهر بعضهم عداءً واضحاً لها. فتيودور هرتزل تعمّد انتهاك العديد من الشعائر الدينية اليهودية حين قام بزيارة المدينة المقدسة، كي يؤكد أن رؤيته الصهيونية هي رؤية لادينية. وكان ماكس نوردو، صديق هرتزل وساعده الأيمن، ملحداً يجهر بإلحاده، كما كان يؤمن بأن التوراة «طفولية بوصفها فلسفة، ومقززة بوصفها نظاماً أخلاقياً»[1]. بل إنه وصل إلى حدّ القول بأنه سيأتي اليوم الذي سيحتل فيه كتاب هرتزل **دولة اليهود** مكانة تساوي مكانة الكتاب المقدس ذاته، حتى بالنسبة لليهود المتدينين[2]. وكان حاييم وايزمان، أول رئيس للدولة الصهيونية، يتلذذ، في بعض الأحيان «بمضايقة الحاخامات بشأن الطعام المباح شرعاً»[3].

(1) Desmond Stewart, **Theodore Herzl** (Garden City, New York: Doubleday, 1974), p. 178.
(2) Block, "Notes on Zionism by Max Nordau", **Herzl Year Book**, Vol. 7, p. 34.
(3) Richard Crossman, **A Nation Reborn: The Israel of Weizman, Bevin and Ben Gurion** (London: Hamish Hamilton, 1964), p. 23.

وعني المستوطنون الصهاينة عناية غير عادية بالتأكيد على الطبيعة اللادينية وغير التقليدية لمشروعهم. ولعل هذا هو ما دفعهم إلى التخلي عن لقب «اليهود»، وتبني لقب «العبرانيين» بدلاً منه، أي أنهم حاولوا إعادة تعريف أنفسهم على أساس قومي يحل محل الأساس الديني التقليدي. وقد استخدم بعضهم هذا الاصطلاح في حملاتهم، التي قاموا بها في الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات، مطالبين بإقامة «دولة عبرانية»، لا «دولة يهودية». فالاستيطان الصهيوني كان يهدف إلى إعلان مولد أول عبراني وموت آخر يهودي (كما صرَّح أحد زعماء المستوطنين). وقد اضطر الصهاينة لاستخدام لفظ «يهودي» فيما بعد، بسبب مقدرته التعبوية. ولكن حتى حين يستخدمون اصطلاح «يهودي»، فإنهم يفرغونه تماماً من أي محتوى ديني.

وفي أوائل العشرينيات قامت مجموعة من الرواد الصهاينة بمسيرة تحدوا فيها الشرائع اليهودية الخاصة بالطعام، حيث ساروا إلى «حائط المبكى [أقدس الأماكن من منظور ديني يهودي] في يوم الغفران [أقدس الأيام من نفس المنظور] وهم يقضمون شطائر من لحم الخنزير»[1]. وقد قام أحد الباحثين بإجراء دراسة عن مجموعة من الصهاينة من يهود شرق أوربا كوَّنوا كيبوتساً خاصاً بهم في فلسطين، وخلص إلى أن الصهيونية، بالنسبة لهذه المجموعة، كانت تمثل هروباً من اليهودية «ولم تكن تعبيراً عنها»[2]، فهؤلاء الصهاينة لم يظهروا أي اعتزاز بتقاليدهم الدينية والثقافية، وأظهروا ـ بدلاً من ذلك ـ تفهماً عميقاً واستجابةً قوية للمُثُل الأوربية القومية اللادينية.

ولو استعرضنا موقف الصهاينة من بعض المفاهيم الدينية الأساسية، لاكتشفنا أنهم قد أخفقوا بالفعل في فهمها، فقاموا برفضها أو إعادة صياغتها بطريقة جوهرية

(1) Amos Elon, The Israelis: Founders and Sons (New York: Holt, Rinchart, and Winston, 1971), p. 324.

(2) Melford E. Sprio, Kibbutz: Venture in Utopia (Cambridge, Mass: Harvard University Press, 1956), p. 49.

بحيث يمكن توظيفها في تسويق الأيديولوجية الصهيونية. ولنأخذ مفهوم صه
مثلاً على هذا؛ فحسب التفسير الديني التقليدي الأرثوذكسي (حتى نهاية ال
التاسع عشر)، نجد أن صهيون أو فلسطين هي المكان الذي اختاره الله واصه
(بالمعنى الديني)؛ فارتباط اليهودي بها هو ارتباط ديني وحسب، يشبه في كثير
الوجوه ارتباط المسلم بأرضه المقدسة، ولذا عُدَّ الاستيطان في الأرض المقد
«متسفاه»، أي عملاً خيرياً، بالمعنى الديني للكلمة، وقد ذهب بعض الأتقياء
اليهود للعيش بجوار الأماكن المقدسة لديهم، وهم في هذا لا يختلفون كثيراً عن
مؤمن يدين بدين ما يقرر أن "يجاور" الأماكن المقدسة لديه. وقد وضّح ال
اليهودي ناثان برنباوم في مقال بعنوان «في عبودية لإخوتنا اليهود» أن أر
إسرائيل ليست «وطناً جديداً» لليهود [يستوطنون فيه على الطريقة الصهيوني
وإنما هي كيان ديني لم يتوقفوا قط عن حبه والحنين إليه وتذكُّره[1]. ومن الطر
في هذا المضمار أن نذكر أن المهاتما غاندي (وكان يعرف اليهود واليهودية عن قر
نتيجةً لنشاطه السياسي في جنوب أفريقيا وتحالفه مع اليهود هناك) قد تصور ع
اليهودي المتدين بفلسطين في نفس الإطار، إذ يقول: "إن فلسطين ـ بالمعنى الدي
ليست موقعاً جغرافياً، وإنما هي في قلوب اليهود"[2]. إن «صهيون» هنا مف
ديني، يتجاوز حدود الطبيعة والتاريخ وكل ما فيها من نظام أو فوضى.

والتميز الدقيق بين صهيون كواقع مادي ورقعة للاستيطان وصهيون كمف
ديني يتجاوز حدود الطبيعة والتاريخ ولا يتفق مع الرؤية الصهيونية. فنوردو ـ
سبيل المثال ـ أصابته الحيرة عندما اكتشف معارضة الحاخامات للدعوة الصهي
الخاصة بالعودة «المادية» والجسدية إلى صهيون، فاحتج على هذه المعارضة بقو
"يجب أن تكون أول مهمة لهم (أي الحاخامات) هي المحافظة على حب الي
لشعبهم ولأرض إسرائيل"[3]. وما لم يدركه نوردو أن الحاخامات كانوا يح

Michael Selzer (Ed.), **Zionism Reconsidered: The Rejection of Jewish Normalcy** (New York: The Macmillan Company, 1970), p. 55.

D.G. Tendulkar, **Mahatma: Life of Mohandas Karamchand Gandi**, 8 Vols. (New Delhi: Patalia House, 1961), Vol. IV, p. 314.

Block, "Notes on Zionism", p. 32.

اليهودي بالفعل على حب صهيون، ولكن بالمعنى الديني للكلمة. . ولذا قمت بإهداء كتابي **أرض الوعد The Land of Promise** الذي صدر بالإنجليزية عام ١٩٧٧ إلى الحاخام يوسف بيخر باعتباره "محباً لصهيون". وحب صهيون هو تطلُّع ديني لا يمكنني كمسلم رفضه. والحاخام بيخر عضو جماعة الناطوري كارتا يعارض الصهيونية انطلاقاً من حبه هذا وليس رغماً عنها، وهو في عدائه للصهيونية أثبت أنه أكثر ثباتاً وصموداً من كثير من القادة العرب.

وقد لاحظ الحاخام شتيرسون ـ المعادي للصهيونية ـ سنة ١٩٠٣ عدم وجود «حب حقيقي لصهيون» لدى الصهاينة[1] وحتى نوردو نفسه كان صريحاً بالقدر الذي جعله يعترف أمام المؤتمر الصهيوني الرابع (١٩٠٠) بأن الصهاينة ليس عندهم «أي حنين صوفي إلى صهيون» وأكد للجميع «أن معظمنا ليس لديهم هذا الحنين»[2].

أما بالنسبة لهرتزل، فلم تكن صهيون مرتبطة في ذهنه برؤية الخلاص، وإنما هي مجرد فرصة للاستيطان والاستثمار. وكان هذا هو السبب في إيمانه بأنه يجب تحديد موقع صهيون الجديدة بأسلوب وضعي على أنه قضية «علمية خالصة». وكتب يقول: "ينبغي علينا أن نضع في حسباننا العوامل الچيولوچية والمناخية، أي باختصار، العوامل الطبيعية [المادية] بجميع أنواعها، مع مراعاة الحذر الكامل، واضعين في حسباننا أحدث الأبحاث العلمية"[3]. وقد ترك الصهاينة، في بداية الأمر، قضية مكان الدولة متوقفاً على عوامل مناخية واقتصادية، فكتب هرتزل في يومياته أن اهتمامه كان مركزاً على إقامة الدول في منطقة "ذات مناخ متنوع يوافق اليهود الذي اعتادوا العيش في مناطق أكثر برودة أو أكثر دفئاً". واقترح أن يكون "موقعنا على البحر [لتسهيل عمليات الاستيراد والتصدير]، كما يجب أن تكون

---

(1) Selzer, **Zionism Reconsidered**, p. 13.

(2) Meir Ben-Horin, **Max Nordau: Philosopher of Human Solidarity** (New York: Conference of Jewish Social Studies, 1956), p. 199.

(3) Raphael Patai (Ed.), **The Complete Diaries of Theodore Herzl**, Trans. Harry Zohn, 5 Vols (New York: Herzl Press and Thomas Yoseloff, 1960), Vol. I, p. 133.

لدينا مساحات واسعة من الأراضي تحت تصرفنا حتى نتمكن من استخدام الميكنة الزراعية على نطاق واسع ". ولأن هرتزل كان رافضاً للدين، فإن موقفه تجاه مشروعه الصهيوني كان موقفاً مادياً، إذ نصح الصهاينة بالاتجاه إلى "العلماء ليزودونا بالمعلومات"[1]. ولنلاحظ أن أساس اختيار فلسطين ليس دينياً وإنما علمانياً مادياً محضاً.

ولم يهتم ليو بنسكر، المفكر والزعيم الصهيوني الروسي، كثيراً بالموقع الفعلي للمنطقة التي تُختار للاستيطان اليهودي. فقد كان مؤمناً بأن هذا الاستيطان يمكن أن يتم "في أي من نصفي الكرة الأرضية. وهذه القطعة من الأرض يمكن أن تكون رقعة في الولايات المتحدة أو ولاية كتلك التي تقوم عليها مقاطعات باشاوات آسيا التركية"[2]. بل وصل بنسكر إلى حدِّ القول بأن اليهود يجب ألا يتعلقوا بفلسطين و"ألا يحلموا باستعادة يهودا القديمة". وطبقاً لتعريفه، فإن الهدف "لا ينبغي أن يكون [الحصول على] الأرض المقدسة، وإنما أي أرض نملكها"[3]. وقد أورد بنسكر - مثله في هذا مثل هرتزل - ملاحظات عملية كثيرة مختلفة. فقد كان من الواجب أن تكون الأرض المختارة أرضاً "منتجة وذات موقع جيد"، وأن تكون مساحتها كافية بحيث تسمح بأن يستوطنها عدة ملايين. وأصر بنسكر على أن الاختيار لا يجب أن يتم على أساس "قرارات مرتجلة"، بل لابد من وجود "لجنة من الخبراء تقوِّم وتوازن بين بدائل الاختيار المتاحة"[4].

وحتى عندما وقع الاختيار على فلسطين، فلم يألُ هرتزل جهداً في تأكيد الطبيعة اللادينية لهذا الاختيار. إذ أخبر البابا بيوس العاشر أن الصهاينة "لا يطالبون بالقدس" أو مثل هذه الأماكن المقدسة، وإنما ينصب جُلّ اهتمامهم على

---

(1) Ibid.

(٢) لطفي العابد وموسى عنز (مترجمان)، **الفكرة الصهيونية: النصوص الأساسية**، إشراف أنيس صايغ، تعريف د. أسعد رزوق (بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٧٠)، ص ٩٥.

(٣) المرجع السابق، ص ٩٢.

(٤) المرجع السابق، ص ٩٥.

" الأرض العلمانية فقط "[1] . وكانت كلماته قاطعة بشكل أكبر عندما أكد لأحد الكاردينالات أنه لا يتطلع إلى أرض إسرائيل التاريخية، بل "يطالب فقط بالأرض الدنيوية "[2] .

ويُعدُّ مشروع شرق أفريقيا (أوغندا) الذي قبله هرتزل ونوردو، والذي لم يرفضه المؤتمر الصهيوني السادس (١٩٠٣)، مثالاً جيداً في هذا الصدد. فقد وافقت إنجلترا على توطين بعض اليهود في تلك الرقعة من أفريقيا. وقد وافق المؤتمر بأغلبية ٢٩٥ صوتاً مقابل ١٧ صوتاً على تشكيل لجنة لتقصي الحقائق "لدراسة إمكانيات الاستيطان اليهودي هناك" . وعندما انسحب بعض أعضاء الوفود احتجاجاً على القرار، أعيد التصويت مرةً أخرى ليحصل القرار المقترح على موافقة الأغلبية مرةً ثانية (وهذا ما لا تذكره المراجع الصهيونية ليبينوا مدى تمسك اليهود بأرض الميعاد)[3]. وكان من بين مؤيدي مشروع أوغندا في المؤتمر الأعضاء الذين مثَّلوا المستوطنين الصهاينة في فلسطين. وفي المؤتمر الصهيوني السابع (١٩٠٥) رفض المجتمعون مشروع أوغندا "بعد أن قدمت لجنة تقصي الحقائق، التي بعث بها المؤتمر السادس إلى المنطقة، تقريراً سلبياً"[4]، أي أن أساس الرفض لم يكن دينياً، ولا يعبِّر عن تمسُّك ديني بأرض الميعاد! ويمكن تسمية الاتجاه اللاديني الذي كان يمثله هؤلاء الزعماء الصهاينة الأوائل «صهيونية بدون صهيون»، وذلك لأن «صهيون» مكان يمكن أن يُستبدل به مكان آخر.

ولو نظرنا لعقيدة الماشيَّح والعودة إلى أرض الميعاد وموقف الصهاينة منها لوجدنا نفس الرفض للمفهوم الديني. ومن المعروف أن التصور الأرثوذكسي التقليدي ركز على الجانب الإلهي لعودة الماشيَّح وعلى الماشيَّح بوصفه أداة الإله في الخلاص وجعل العودة في آخر الأيام، الأمر الذي أدى إلى تهدئة حدة التطلعات

---

(1) Patai, The Complete Diaries, Vol. IV, p. 1604.

(2) Ibid., p. 594.

(3) Encyclopedia of Zionism and Israel, 2 Vols., Vol. I "East Africa Project".

(4) Cecil Roth (Ed.), Encyclopedia Judnica, 17 Vols. (New York: The Macmillan Company, 1971), Vol. XV, "Uganda Project".

الماشيحانية عند اليهود والمرتبطة بالعودة. وبناءً عليه، أصبح من الواجب على اليهود - حسب هذا التصور أو التفسير - انتظار عودة الماشيَّح في صبر وأناة ليقود الشعب إلى أرض الميعاد، فمشيئة الإله وحدها هي التي ستُرسل به، ويصبح من الكفر بمكان أن يحاول فرد أو جماعة ما تحقيق الإرادة الإلهية بأنفسهم، آخذين زمام المبادرة ويقرروا أن التاريخ قد انتهى الآن وهنا، وأن العصر المشيحاني قد ابتدأ. ويقول الحاخام إلمر برجر إن الماشيَّح سيأتي حسب الرؤية الدينية التقليدية في الوقت الذي يحدده الرب وبالطريقة التي يراها، ولا يملك الإنسان القاصر بطبيعته سوى الانتظار[١]؛ ولذا نجد أن بعض نصوص التلمود تعتبر العودة إلى فلسطين مخالفة أكيدة للوصايا الإلهية وكل من يفعل ذلك هو مهرطق يرتكب جريمة «دحيكات هاكتس» أي التعجيل بالنهاية[٢]. وقد جاء مثل هذا المعنى في رسالة بعث بها صحفي يهودي إلى هرتزل يذكِّره فيها بأن تعاليم التلمود "تحظر على اليهود أن يأخذوا فلسطين بالقوة أو يقيموا لهم دولة هناك"[٣]. بل أكد أحد الحاخامات أنه "لا توجد أية إشارة لمبدأ أو عقيدة العودة إلى فلسطين في كل المحاولات التي تمت في العصور الوسطى لصياغة عقيدة يهودية"[٤]. وفي مطلع القرن العشرين شعر الحاخام شنيرسون بالحنين إلى زيارة صهيون، أي فلسطين، ولكنه امتنع عن ذلك حتى لا يُفهم من زيارته أنه يؤيد العودة بالمعنى الصهيوني العلماني المادي: "في السماء شهودي، لو كان الأمر بيدي لاندفعت كالسهم إلى القدس. ولكني لن أفعل، حتى لا يُفهم من ذلك أنني أؤيِّد الصهاينة الكفار".

ومن الواضح أن الصهاينة يرفضون فكرة عودة الماشيَّح في آخر الأيام أيضاً؛ فعندما سأل الملك فيكتور إمانويل الثالث، ملك إيطاليا، هرتزل عما إذا كان لا يزال يتوقع عودة الماشيَّح، أجاب الزعيم الصهيوني، في حرج واضح مؤكداً للملك أنهم

(1) Gary Smith (Ed.), **Zionism: The Dream and Reality: A Jewish Critique** (New York: Barnes and Noble, 1974), p. 231.

(2) Philip Sigal, "Reflections on Jewish Nationalism", **Issues**, Vol. XV (Fall, 1961), p. 21.

(3) Stewart, **Theodore Herzl**, p. 325.

(4) Sigal, "Reflections on Jewish Nationalism", p. 21.

يؤمنون بهذه الفكرة في الأوساط الدينية وحدها، "أما في دوائرنا الأكاديمية المستنيرة فليس لمثل هذه الفكرة من وجود بطبيعة الحال"[١]. وقد وصف بن جوريون فكرة عودة الماشيَّح من وجهة نظر الصهيونية بأنها شديدة «السلبية»[٢]. ويرى بيرتيس سمولنسكين، المفكر الصهيوني الروسي، أن الصهاينة لا علاقة لهم بعودة الماشيَّح المخلِّص، فهم يرون أن العودة في إطار الاستعمار الاستيطاني الإحلالي باعتبارها عودة "لإيجاد الرزق في أرض نأمل منها أن توفر الراحة [المادية] للذين يعملون عليها"[٣]. ويفرِّق نوردو بين الصهيونية الحديثة والصهيونية الدينية القديمة (أو حب صهيون التقليدي وفكرة الماشيَّح والعودة) قائلاً إن الصهيونية الحديثة "سياسية، وليست كالأخرى دينية صوفية؛ فهي غير مرتبطة بالرؤى الماشيحانية، ولا تتوقع العودة إلى فلسطين بمعجزة، بل ترغب في إعداد طريق العودة بجهودها الخاصة"[٤]، وبذا يمكن أن تتم العودة عن طريق المناورات الساسية أو العنف أو القهر أو أي طريقة علمانية أخرى.

وقد خضعت فكرة «الشعب اليهودي»، وهي فكرة محورية في العقيدة اليهودية، هي ذاتها لعملية التفسير هذه. إذ بيَّن بعض المفسرين أن الشعب المختار هو - في نهاية الأمر - من نسل آدم أبي البشرية جمعاء، وأن الإله - حسب التصور اليهودي - هو رب الجميع، يبارك كل الشعوب. ولذا - طبقاً لهذا التفسير - تضم رؤية الخلاص كافة الشعوب، حتى لو كان الشعب اليهودي هو محورها. ويرسم النبي أشعيا في نبوءته صورة لسلام عالمي يشمل «الأمم جمعاء»، حين "لا ترفع أمة على أمة سيفاً ولا يتعلمون الحرب فيما بعد" (أشعيا ٥ : ٤). وسوف يشمل السلام الجميع لأن الشعوب كافة أبناء الرب. وبطبيعة الحال لم يكن هذا هو التفسير الوحيد، فهناك تفسيرات عنصرية (كما بيَّنا من قبل).

---

(1) Patai, **The Complete Diaries**, Vol. IV, p. 1599.

(2) Moshe Pearlman, **Ben Gurion Looks Back in Talks with Moshe Pearlman** (New York: Siman and Schuster, 1965), p. 230.

(٣) العابد وعنز، **الفكرة الصهيونية**، ص ٥١.

(٤) **المرجع السابق**، ص ١٣٧.

ولكن، بغض النظر عن تفسير فكرة الشعب المختار، إنسانياً كان أم عنصرياً، فثمة إجماع بين الحاخامات الأرثوذكس على أن تعبير «الشعب اليهودي» في اليهودية تعبير ديني، يشير إلى طائفة المؤمنين المخلصين الذين يتوجهون بإيمانهم إلى الإله الواحد، بل إن انتمائهم مشروط بمدى طاعتهم للإله[1] (كما بيّن المؤرخ توينبي). إن المفهوم الأرثوذكسي يرى الشعب على أنه طائفة من المؤمنين، الذين يقوم إيمانهم على العهد الديني بين الإله والشعب، ولذا فبقاء اليهود مشروط بمدى إخلاصهم للإله (وهذا التصور في بعض جوانبه لا يختلف عن التصور الإسلامي والمسيحي). وكثيراً ما تشير الكتابات الدينية لليهود على أنهم شعب التوراة، بمعنى أنهم شعب مجموعة من القيم الدينية لا ينتمي لأرض معينة، ولذا فالحديث عن الولاء السياسي والقومي - من وجهة نظر هذا التفسير - هو تزييف للواقع الديني اليهودي. وتأسيساً على هذا يصبح واجب اليهودي أن ينتمي للبلد الذي يعيش فيه، وأن يحيا في سلام مع «مدينة الأرض»، شأنه في هذا شأن جميع البشر (أي أن الاندماج يصبح واجباً دينياً من هذا المنظور). وقد قال النبي إرميا "لتسع إلى ما فيه خير المدينة [أي الوطن الذي تعيش فيه] ولتصل للرب من أجلها، لأنه في خيرها ستحيا أنت حياة طيبة"[2].

ولكن هذه الرؤية الدينية لم تلق قبولاً لدى الزعماء والمفكرين الصهاينة؛ فالكاتب الصهيوني الروسي بيرديشفسكي أكد بصورة قاطعة أنه يجب على اليهود "أن يتوقفوا عن أن يكونوا يهوداً بفضل يهودية مجردة، وأن يصبحوا . . . شعباً حياً آخذاً في التطور"[3]. وكرّر ماكس نوردو نفس النغمة الصهيونية عندما قال "إننا لا نريد أن نكون مجرد طائفة دينية، بل نريد أن نكون شعباً كبقية الشعوب"[4]. وعندما قيل لنوردو "إن اليهود مختلفون عن بقية أبناء أوطانهم في الدين وحسب،

---

(1) Elmer Berger, **Prophecy, Zionism and the State of Israel**, (New York: American Jewish Alternative to Zionism, N.D.), p. 3.

(2) Quoted in: Rabinovich, "Political Zionism and the State of Israel: Moral Issues," **The Jewish Guardian** (February 1975), p. 9.

(٣) العابد وعنز، **الفكرة الصهيونية**، ص ص ١٨٣، ١٨٤.

(4) Block, "Notes on Zionism", p. 29.

وليس في الانتماء القومي " ، أجاب إن مهمة الصهيونية إذن يجب أن تكون " تحويل اليهود إلى شعب متميز بالمعنى القومي للكلمة "[١].

ويؤكد المفكر الصهيوني والفيلسوف البرجماتي الأمريكي، هوراس كالن، أن الصهيونية هي إعادة إحياء فكرة القومية اليهودية على أساس مدني علماني مثل بقية القوميات الأوربية[٢]، لأن الحياة اليهودية حياة قومية لا يشكل الدين سوى جزء منها. ويكرر كلاتزين الفكرة نفسها في كتاباته؛ فهو يعتقد أن التعريف الديني لليهودي تعريف ذاتي، وهو يرى أن الصهيونية حاولت أن تضع تعريفاً علمانياً للهُوية اليهودية، كما أنها حاولت أن " تنكر أي مفهوم لهذه الهُوية على أساس مقاييس روحية "[٣]. هذا لا يعني أن الصهيونية "تنكر القيم الروحية اليهودية "[٤]. لكل هذا "ليس من الضروري أن يؤمن الفرد بالدين اليهودي أو بالنظرة الروحية العامة لليهود لكي يصبح جزءاً من الأمة "[٥]. ويشارك سمولنسكين كلاتزكين في موقفه، " فإذا كان الشعور القومي هو أساس وجوده، فليس هناك أي داعٍ للاختلاف على قوانين وعادات دينية سخيفة. مهما كانت خطايا اليهودي ضد دينه فهي لا تهم، لأن كل يهودي ينتمي إلى شعبه طالما أنه لا يخونه "[٦].

ولكن على الرغم من هذا الهروب من اليهودية والرفض لها، فإن الصهيونية، كأي أيديولوچية علمانية تود أن تكتسب شرعية وأن تجند الجماهير وراءها، تستغل اليهودية لتضفي على نفسها صبغة دينية تضمن الحصول على تأييد الجماهير، وتظهر الصهيونية كما لو كانت امتداداً لليهودية وليست نقيضها. وهذا ما عبَّر عنه كلاتزين حين قال إن الدين اليهودي يمكن أن يساهم في بلورة الروح القومية للشعب اليهودي[٧].

---

(1) **Ibid.**, p. 31.

(٢) العابد وعنز، **الفكرة الصهيونية**، ص ٣٩٦.
(٣) المرجع السابق، ص ٢٠٠.
(٤) المرجع السابق، ص ٢٠٣.
(٥) المرجع السابق، ص ٢٠٢.
(٦) المرجع السابق، ص ٤٣.
(٧) المرجع السابق، ص ٢٠٧.

وكان الحاخام شنيرسون واعياً بهذا التصور الصهيوني للدين اليهودي بوصفه أداة ووسيلة، حين أشار إلى أن الصهاينة كانوا يرون في التوراة والوصايا العشر مجرد وسائل ملائمة "لتقوية الشعور الجماعي"[١]. وكان ماكس نوردو من الواقعية بحيث إنه أدرك أهمية كل من "العناصر العقلانية واللاعقلانية في الحضارة الإنسانية"، حيث يكون الدين "مصدراً لطاقة بناء كامنة"[٢]. وحينما بُحثت خطة الاستيطان في العراق كان الصهاينة مدركين «للعناصر الصوفية» المرتبطة بالتجربة اليهودية في تلك الأرض القديمة "وإمكان الاستفادة منها"[٣]. وكان من دوافع اختيار فلسطين موقعاً للاستيطان "قوة الأسطورة، أي الاسم في حد ذاته"[٤]؛ ففلسطين هي "صرخة عظيمة تجمع اليهود"[٥].

رفض يهود العالم (الشتات)

ينطلق الصهاينة اليهود مما يسمَّى «نفي الدياسبورا» (بالإنجليزية: نيجيش أوف ذا دياسبورا negation of the diaspora) أي رفض الوجود اليهودي خارج فلسطين، أي رفض كل يهودي لا يهاجر إلى فلسطين ويستوطن فيها. وهذه النغمة الصهيونية عن انعدام قيمة الشتات، أي كل يهود العالم خارج إسرائيل (أي الغالبية الساحقة لليهود) هي أكثر الاتجاهات انتشاراً وثباتاً في الفكر الصهيوني. ففي ٤ مارس سنة ١٩٧٧ وصف الحاخام الجنرال موردخاي بيرون كبير حاخامات جيش الدفاع الإسرائيلي الشتات بأنه "لعنة إلى الأبد.. وهو دائماً لعنة". بل إنه لم يستثن حتى العصور الذهبية العديد للشتات[٦]. وفي خطاب استقالته من منصبه كأول رئيس لوزراء إسرائيل (١٩٥٣) تحدَّث بن جوريون عن الشتات فقال

---

(1) Selzer, **Zionism Reconsidered**, p. 13.

(2) Ben-Horin, **Max Nordau**, p. 199.

(3) Patai, **The Complete Diaries**, Vol. III, p. 899.

(4) Ibid., Vol.: I, p. 56.

(٥) العابد وعنتر، **الفكرة الصهيونية**، ص ١٢٠.

(6) **The Canadian Jewish News**, Cited by Special Interest Report, Vol. VIII (April, 1977).

إنه "غبار إنساني منتشر ومتغلغل في المنفيين"[1]. وقبلها بثلاثين عاماً، كان كلاتزين قد وصف الشتات بأنه لا يزيد على أن يكون "دماراً وانحلالاً وضعفاً أبدياً"[2].

وينكر الصهاينة كل إنجازات عصور الشتات، ويؤكدون أن المساهمات اليهودية التي تمت «على أرض أجنبية» هي محض خيانة للروح اليهودية النقية[3]. وفي **الكتاب السنوي** لحكومة إسرائيل سنة ١٩٦٥، يصوِّر ليفي أشكول الروح الخلاقة لدى يهود الشتات على أنها إخراج "القوت من أرض أجنبية و[إعطاء] الثمرة مرةً أخرى إلى تلك الأرض"[4]. والبديل الأفضل لهذا الشذوذ المفترض هو إقامة إسرائيل الصهيونية لتكون «مركزاً» طبيعياً نامياً يحل محل الشتات الذي يعد هامشياً وفي طريقه إلى الفناء.

ومثل هذا الوصف السلبي للشتات أمر جوهري بالنسبة للفكرة الصهيونية، لأنه إذا افترض أن حياة اليهود خارج إسرائيل صحية نشطة لها نصيبها الطبيعي من السعادة والمعاناة الإنسانيتين، فماذا يكون إذن مبرر وجود الدولة الصهيونية؟ ولماذا توجد الصهيونية أصلاً؟ وربما يكون بمقدورنا رسم صورة للاستراتيجية الصهيونية الخاصة بيهود العالم والمسألة اليهودية باعتبارها استراتيجية تعمل على أساس بديلين محتملين لاثالث لهما، وهما الاستيطان في الوطن القومي اليهودي للأقلية المختارة التي تذهب إلى هناك، واختفاء أولئك الذين يبقون في المنفى، إما من خلال استيعابهم، أو من خلال المذابح الجماعية التي يتعرضون لها حقاً (حسب التصوُّر الصهيوني). ويعتبر البديلان طريقاً إلى «تصفية» يهود الشتات[5].

---

(1) Ehud Ben-Ezer (Ed.), **Unease in Zion, With a Forward by Robert Alter** (New York: Quadrangle/The New York Times Book Co., 1974), p. 5.

(2) Arthur Hertzberg, (Ed.), The Zionisht Idea: A Historical Analysis and Reader (Westport, Conn.: Greenwood, 1959), p. 325.

(3) Cited in Michael Selzer, "Politics and Human Perfectibility: A Jewish Perspective", in Smith, **Zionism: The Dream and Reality**, p. 298, N. 30.

(4) Korn, "Eshkol's Official Plan for 'Israel and the Diaspora'", **Issues**, Vol. XIX (Winter 1965-1966), p. 15.

(5) Jacob Bernard Agus, **The Meaning of Jewish History**, 2 Vols. (London: Abelard-Schuman, 1963), Vol. II, p. 469.

وفي كتاب **أسس الثورة اليهودية** الذي صدر في حيفا سنة ١٩٤٤ دعا بن جوريون إلى حدوث «صدام راديكالي» مع يهود الشتات بسبب تبعيتهم [لأوطانهم] على أن يكون الهدف النهائي لهذا الصدام هو تصفية الدياسبورا(١). وقال المفكر الصهيوني الروسي، چيكوب كلاتزين، إنه ينبغي على يهود الشتات أن يكونوا «مصدر دعم» لحركة النهضة القومية وأن أي محاولة صهيونية لتأخير الانهيار التام لصرح الشتات ليست إلا مسألة نفعية مرحلية تهدف إلى إعطاء الصهاينة "الوقت الكافي لاستخلاص بعض اللبنات" لاستخدامها في إقامة "البناء القومي الجديد"(٢). فالجاليات اليهودية في العالم ليست إلا "وعاءً طبيعياً يمكن اجتذاب المهاجرين منه لتقوية الجماعة اليهودية في فلسطين"(٣). فالشتات في حد ذاته - حسب تصور كلاتزكين - لا يستحق البقاء، لكنه قد يكون مفيداً كوسيلة، "فالوجود المرحلي الانتقالي" للشتات هو بالتأكيد "أمر له أهميته، ولكنه وجود مرحلي وحسب"(٤).

ورسم الصهيوني الروسي الصوفي أهارون ديڤيد جوردون صورة لفلسطين اليهودية باعتبارها الوطن الأم ليهود العالم الذي ستكون جالياتهم عبارة عن "مستعمرات لها"(٥). ومن المثير للانتباه أنه بعد ذلك بنصف قرن، صرح أحد الصهاينة بضرورة فرض "سيطرة إسرائيل الاستعمارية على يهود العالم، حيث تحصل منهم على المادة التي تضعها في آلاتها كوقود"(٦).

ولم يكن باستطاعة الصهاينة - خاصةً الراديكاليين منهم - أن يستوعبوا الحقيقة القائلة بأن رفض الشتات يعادل رفض اليهودية واليهود. فكلاهما لم يكن له وجود

---

(1) Hertzberg, **The Zionist Idea**, p. 609.

(2) "Boundaries", in Hertzberg, **The Zionist Idea**, p. 324.

(3) Jon Kimche and David Kimche, **The Secret Roads: The "Illegal" Migration of a People, 1938-1948** (London: Secker and Warburg, 1954), p. 27.

(4) Boundaries", in Hertzberg, **The Zionist Idea**, p. 325.

(5) "Our Tasks Ahead," (1920), **Ibid.**, p. 382.

(6) Cited in Allan C. Brownfeld, "American Jews: Doubts about Zionism", **Middle East International** (September 1974), p. 13.

يُعتد به خارج ما يسمَّى «المنفى»، أي كل أنحاء العالم. فالغالبية الساحقة للكتب الدينية والأعمال الأدبية اليهودية من عمل يهود ينتمون إلى الشتات الذي يحاول الصهاينة تصفيته. ولذا قال المؤرخ اليهودي الروسي سيمون دبنوف "إن رفض كل ما حدث لليهود خلال الألفي سنة الماضية يعادل رفض اليهودية ذاتها"[١]. وبهذا المعنى، يصبح التصور الصهيوني ليهود العالم لا يتعارض مع التجربة الدينية اليهودية وحسب، وإنما مع التجارب التاريخية لأعضاء الجماعات اليهودية.

الصهيونية ومعاداة السامية

إن بحثنا عن أصول الصهيونية فلن نجدها في المبادئ الأساسية للشريعة اليهودية الدينية، ولا في تنوع التجارب التاريخية لأعضاء الجماعات اليهودية، وإنما في تراث معاداة اليهود واليهودية، أي ما يسمَّى «معاداة السامية». فقد سجل هرتزل في مذكراته أنه ونوردو كانا متفقين في أن معاداة السامية هي وحدها التي جعلتنا يهوداً[٢]، وتتبع هو بالتحديد أصول إدراكه للديانة اليهودية والعبرانية، إلى أن وصل بها إلى الأيام التي قرأ فيها كتاب إيوچين دهرنج المعادي للسامية. وقد أدرك هرتزل عُمق الرابطة بين إحساسه بهويته اليهودية وبين معاداة السامية ولذا سجَّل في الفصل الأول من مذكراته ـ التي كتبها للأجيال القادمة ـ أن "معاداة السامية قد نمت وما تزال مستمرة في النمو، وكذلك أنا"[٣].

ولا يستطيع أي قارئ للكتابات الصهيونية إلا أن يستنتج أن الصهاينة يضفون على معاداة السامية حتمية معينة ودرجة كبيرة من الأهمية في تجارب أعضاء الجماعات اليهودية في أنحاء العالم. وكتاب هرتزل **دولة اليهود** قائم على افتراض أنه أينما يعيش اليهود فإنهم "يتعرضون للاضطهاد بدرجات متفاوتة" فهناك "تاريخ كامل مؤسف من معاناة اليهود" يتراوح بين قتلهم في رومانيا من جهة

(1) Michael Selzer, **The Aryanization of the Jewish State** (New York: Black Star, 1968), p. 110.

(2) Patai, **The Complete Diaries**, Vol. 1, p. 196.

(3) **Ibid.**, p. 7.

وحرمانهم من الانضمام إلى النوادي في فرنسا من جهة أخرى[١]. ولكن بغض النظر عن الزمان أو المكان، "فحقيقة الأمر هي أن كُل شيء يؤدي إلى نفس النتيجة"[٢] وهي معاداة السامية. وقد وصف بنسكر كراهية اليهودي بأنها «انحراف نفسي» «وراثي» وبأنها نوع من "الأمراض المستعصية، انتقل عبر ألفي عام"[٣]. وهناك تصوير مثير لوصف معاداة السامية على أنها ظاهرة «عضوية»، وذلك في المحادثات التي تمت بين حاييم وايزمان وريتشارد كروسمان عضو البرلمان البريطاني العمالي والمتعاطف مع الصهيونية. فعندما سأل الزعيم الصهيوني كروسمان عما إذا كان معادياً للسامية، أجاب الأخير بلا تردد: "بطبيعة الحال" وبالنسبة لوايزمان الذي أصبح صديق عمر كروسمان، كانت هذه الإجابة تعبِّر عن إخلاص الرجل وأمانته، فقد كان الزعيم الصهيوني على اقتناع تام بأن معاداة السامية "جرثومة يحملها كل شخص غير يهودي"[٤]. وقد استخدم الزعيم الصهيوني نوردو نفس الصورة المجازية في وصفه لليهود إذ قال: "إن اليهود مثل أنواع معينة من الكائنات العضوية الدقيقة التي تظل غير مؤذية على الإطلاق طالما تعيش في الهواء الطلق، لكنها تسبب أفظع الأمراض إذا حُرمت من الأكسچين". ثم يستطرد هذا "العالم" ليحذِّر الحكومات والشعوب من أن اليهود يمكن أن يصبحوا "مثل هذا المصدر للخطر"[٥]. إن نظرة نوردو لليهود نظرة بروتوكولية صهيونية في ذات الوقت، فهو يبيِّن أن اليهود ميكروبات خطرة وعلى كل الشعوب أن تحذر منها، أي يجب طردهم من أوطانهم، وبالتالي يتحولون إلى مستوطنين في أوطاننا.

معاداة السامية إذن أمر حتمي، وجزء لا يتجزأ من طبيعة الأغيار البشرية، ولذا من الممكن اعتبارها من أكثر الظواهر «طبيعية». وبالفعل لم يكتف بنسكر وهرتزل بافتراض استحالة استيعاب اليهود، بل افترضا أيضاً «طبيعية» معاداة السامية،

---

(1) Hertzberg, The Zionist Idea: A Historical Analysis and Reader, p. 215.

(2) Ibid., p. 216.

(3) Ibid., p. 185.

(4) Crossman, A Nation Reborn, pp. 21-22.

(5) Stewart, Theodore Herzl, p. 178.

كنتيجة طبيعية حتمية منطقية للافتراض الأول، وذلك باعتبار أن معاداة السامية "الرفيق الذي لا مهرب منه" لليهودية على مدى التاريخ[1]، على حد تعبير بنسكر.

لكل هذا قال كلاتزين إنه يستطيع أن يفهم جيداً مشروعية «وعدالة» معاداة السامية التي يمارسها الأغيار، فهي في واقع الأمر، دفاع عن وحدة شعب وقف في حلقه شعب آخر (اليهود). وأكد كلاتزين بعد هذا على الرابطة العضوية بين الحركتين الصهيونية ومعادة السامية بقوله: "إذا لم نسلِّم بعدالة معاداة السامية، فإننا ننكر بهذا عدالة قوميتنا نحن ذاتها"[2].

وقد عبَّر أحد مشاهير المعادين للسامية أيام هرتزل - في دراسة له عن كتاب **دولة اليهود** - عن رضاه لأن اليهود (يعني الصهاينة) بدءوا يفهمون معاداة السامية فهماً صحيحاً ربما علمياً، فلم يعودوا يرون المعادين للسامية مجانين أو متعصبين، وإنما باعتبارهم "مواطنين يمارسون حقهم [المشروع] في الدفاع عن النفس"[3]. وكأن نوردو أراد أن يرد المجاملة العنصرية بمثلها، فعبَّر عن رضاه العميق "لرؤية الأمناء من المعادين للسامية يصفقون لحلنا [الصهيوني] المقترح للمسألة اليهودية"[4]، أي أن كلاً من المفكر المعادي للسامية والمفكر الصهيوني أدركا أن كُره اليهود هو نقطة الانطلاق لكليهما.

وكان هرتزل يعتنق نفس هذا الرأي إزاء حركة معاداة السامية الحديثة، حيث ميَّزها عن "التعصب الديني القديم" ووصفها بأنها "حركة بين الشعوب المتحضرة [هكذا] تحاول من خلالها التخلص من شبح يطاردها من ماضيها"[5]. وكتب هرتزل في مذكراته أن المعادين للسامية بطردهم اليهود كانوا ببساطة يحررون أنفسهم ويخلصون أنفسهم من السيطرة اليهودية، وقال: "لم يكن بمقدورهم أن

---

(1) Hertzberg, **The Zionist Idea**, p. 185.

(2) Agus, **The Meaning of Jewish History**, Vol. II, p. 425.

(3) **Ibid.**, p. 266.

(4) Stewart, **Theodore Herzl**, p. 251. Emphasis in the Original.

(5) Patai, **The Complete Diaries**, Vol. I, p. 171.

يدعونا نرأسهم في الجيش والحكومة وجميع مجالات التجارة "[١]. وسلَّم هرتزل أيضاً بأن إقامة الدولة اليهودية يعني انتصاراً للمعادين للسامية، ولكنه لم يبد أي قلق بسبب ذلك، حيث قال: "إن إنشاء الدولة الصهيونية تبين أنهم كانوا على حق لسبب بسيط وهو أنهم بالفعل محقين "[٢].

ومن المهم هنا أن نشير إلى أنه لكي يبرر الصهاينة قولهم بشذوذ يهود الشتات، فإنهم أقاموا نقدهم للشخصية اليهودية "على أساس من الاتهامات" المأخوذة من كتابات المعادين للسامية في العالم الغربي[٣]. والكتابات الصهيونية حافلة بمناقشة أساليب ووسائل "تحويل اليهود إلى منتجين" لجعلهم أقل «طفيلية» و«هامشية» وأقل تبعية، لأن اليهود في الكتابات الصهيونية مرابون «وشخصيات مريضة» يحيون مثل «الكلاب والنمل»[٤] يجمعون المال ويتبعون قيم السوق، وعليهم أن "يعترفوا ويسلِّموا بوضاعتهم منذ فجر التاريخ حتى الوقت الحاضر "[٥].

ويتحول النقد الصهيوني ليهود الشتات أحياناً إلى تصوير كاريكاتيري ينطوي على معاداة مباشرة للسامية. فكلاتزكين مثلاً وصف اليهود بأنهم شعب "قلق وبلا جذور يعيش حياة زائفة وفاسدة "[٦]. واليهودي - عند بنسكر وبنص كلماته - "ضيف في كل مكان" و "ليس في وطنه في أي مكان" و "ينتقل كشبح من بلد لآخر، كجسم غريب"، فهو نصف ميت، سيطر عليه مرض الترحال[٧]. ونجد نغمة معادية للسامية بوضوح تميِّز كتابات إسرائيل سنجر، الكاتب الصهيوني، وشقيق الكاتب المرموق إسحق باسيفيش سنجر. فاليهود عند إسرائيل سنجر شعب "منحط قانط يحيا في القذارة"، وهم "مجموعة من آسيا" تحيا وسط أوربا، وهم - ككيان مستقل - يمثلون "حدبة واحدة كبيرة "[٨].

---

(1) **Ibid.**, p. 182.

(2) Stewart, **Theodore Herzl**, p. 251. Emphasis in the Original.

(3) Block, "Notes on Zionism," p. 29.

(4) Yehezkel Kaufman, "The Ruin of the Soul," in Selzer, **Zionism Reconsidered**, p. 121.

(5) "Self-Criticism" (1914), in Hertzberg, **The Zionist Idea**, p. 392.

(6) "Boundaries", **Ibid.**, p. 323.

(7) **Ibid.**, p. 184.

(8) Words Reported by Issac Bashevis Singer **In My Father's Court**, Cited in Selzer, **The Aryanization of the Jewish State**, p. 35.

وفي مقال بعنوان "دمار الروح"[1]، جمع أحد الكُتّاب مجموعة من أوصاف اليهود في الكتابات الصهيونية، على الوجه التالي:

فريشمان: حياة اليهود حياة كلاب تثير الاشمئزاز.

برديشيفسكي: ليسوا أمة، وليسوا شعباً، وليسوا آدميين.

برينر: غجر وكلاب قذرة ـ كلاب جريحة لاإنسانية.

أ. د. جوردون: طفيليات ـ أناس لا فائدة منهم أساساً.

شوادرون: عبيد وبغايا.. أحط أنواع القذارة.. ديدان وطفيليات بخسة بلا جذور.

وهذه نغمة متكررة في أعمال هرتزل «الليبرالي»، وفي أعمال حاييم برينر غير الليبرالي. وإذا كان الأخير قد استخدم كلمات شديدة الوقع، فإن هرتزل هو الآخر ـ كما قال كاتب يهودي معاد للصهيونية ـ وضع قوالب معينة لو استخدمها أي كاتب غير يهودي لاتُّهم بلا جدّال بعنصرية تعادل عنصرية **بروتوكولات حكماء صهيون**[2].

وكلمات الصهيوني حاييم كابلان ـ الذي كان يكتب يومياته أثناء ثورة يهود جيتو وارسو أثناء الحرب العالمية الثانية ـ توضح هذا الموقف العنصري من اليهود، حيث قال: "لكل شعب في أوقات محنته متآمرون يعملون سراً، وفي حالتنا هذه نجد شعباً بأكمله قد تربى على التآمر. فالتآمر بالنسبة للآخرين مسألة سياسية، أما بالنسبة لنا فهو مسألة دينية وقومية". ثم أشار إلى يهود الأندلس الإسبان الذين اضطروا ـ حمايةً لعقيدتهم ـ التظاهر باعتناق المسيحية، وحافظوا على مظهر مسيحي للتغطية على عقيدتهم الدينية الأصلية[3]. وتدل هذه الأقوال على مدى جهل

---

(1) "Kaufman, in Selzer, **Zionism Reconsidered**, p. 121. No. 7.

(2) Benyamin Matovu, "Zionist and Anti-Semite: 'of Course'" **Issues**, Vol. XX (Spring 1966), p. 22.

(3) Chaim A. Kaplan, **The Scrolls of Agony: The Warsaw Dairy of Chaim A. Kaplan** (New York: The Macmillan Company, 1965), p. 174.

كابلان، فظاهرة التقية ظاهرة معروفة في كل المجتمعات وبين كل العقائد، وقد اضطر مسلمو الأندلس على سبيل المثال إلى التظاهر باعتناق المسيحية الكاثوليكية وأبطنوا الإسلام.

وقد أدى قبول الصهاينة لجوانب معينة من معاداة السامية إلى اعتبار المعادين للسامية حلفاء طبيعيين وقوة إيجابية في النضال الصهيوني لتحرير يهود الشتات من عبوديتهم المدعاة. وبدلاً من أن يصارع هرتزل معاداة السامية، قرر أن "المعادين للسامية سيكونون أكثر الأصدقاء يمكننا الاعتماد عليهم، وستكون الدول المعادية للسامية حليفة لنا"[١]. وهو قد تبيَّن من البداية التوازي القائم بين الصهيونية ومعاداة السامية، ورأى الإمكانيات الكامنة للتعاون بينهما. وفي فقرة كتبها في مذكراته سنة ١٨٩٥، وضع هرتزل الخطوط العامة لتصوره للأنشطة الصهيونية المستقبلية. فأشار إلى أن الخطوة التالية ستكون «بيع الصهيونية»، ثم أضاف بين قوسين أن هذا "لن يتكلف شيئاً، لأنه سيسعد المعادين للسامية"[٢]. وفي فقرة أخرى من مذكراته عدَّد هرتزل عناصر الرأي العام العالمي التي يستطيع حشدها لمناصرته في قتاله ضد «سجن» اليهود، فذكر من بينها المعادين للسامية كأحد العناصر التي يمكن أن تعمل نيابةً عن اليهود[٣].

وتكرر هذا التصور الخاص بالصورة المشتركة للصهاينة والمعادين للسامية في أقوال الزعماء الصهاينة في المراحل التالية. ففي سنة ١٩٢٥، قال كلاتزكين إنه "بدلاً من إقامة جمعيات لمناهضة المعادين للسامية الذين يريدون الانتقاص من حقوقنا، يجدر بنا أن نقيم جمعيات لمناهضة أصدقائنا الراغبين في الدفاع عن حقوقنا"[٤]، فكُره اليهود هو الذي يصب في الصهيونية ويدعمها، أما الدفاع عن حقوق اليهود في أوطانهم فإنه يقوضها ويزلزلها من جذورها ويسحب البساط من تحتها.

---

(1) Patai, The Complete Dairies, Vol. I, p. 84.

(2) Ibid., p. 34.

(3) Ibid., p. 51.

(4) Agus, The Meaning of Jewish History, Vol. II, p. 425.

وكان ناحوم جولدمان في أول حياته صهيونياً راديكالياً، يشعر أن اختفاء معاداة السامية ربما يفيد الطائفة اليهودية من الوجهتين الساسية والمادية، إلا أنه سيكون له "أثر سلبي للغاية على حياتنا الأبدية" (١).

وفي كتابه **نهاية الشعب اليهودي**، ذكر عالم الاجتماع اليهودي الفرنسي چورچ فريدمان أن اليهود الإشكناز في إسرائيل كان لهم رد فعل سلبي - وعدواني أحياناً - لأي قول بأن اليهود عاشوا حياة طبيعية في أي دولة دون أن يتعرضوا للاستفزازات المعادية للسامية (٢). وكان لنفس الأشخاص رد فعل «إيجابي» لدى سماعهم "أي نبأ يتحدث عن معاداة السامية في أي مكان من العالم" (٣).

وقد أكد أحد المستوطنين الصهاينة أن معاداة السامية ظاهرة «إيجابية» إلى درجة دفعته إلى الاعتقاد بأنها "مستوحاة من عقيدة إلهية" (٤). وهو في هذا يردِّد - دون أن يشعر - نفس آراء هرتزل الذي ادعى أن "معاداة السامية ربما تحتوي على إرادة الرب الإلهية، لأنها تجبرنا على توحيد صفوفنا". وقد وصف أحد المستوطنين الصهاينة نفسه بأنه "صهيوني معاد للسامية"، ثم أضاف أنه "لا يستطع أن يرى كيف يمكن لأي صهيوني أن يتجنبَ اتخاذ نفس الموقف". وقد علّق أحد اليهود الرافضين للصهيونية على هذا الرأي بقوله: "الكثير من الصهاينة على اقتناع تام بأنه لكي يصبحوا (صهاينة جيدين)"، لابد أن «يكرهوا» ذواتهم اليهودية (٥).

الصهيونية والنازية

الصهيونية إذن تنطلق من كُره عميق لليهود، ومن رغبة قوية لتخليص أوربا منهم. وقد عبَّر هذا الكُره عن نفسه في العلاقة القوية بين الصهيونية والنازية. وقد

(1) Moshe Menuhin, **Jewish Critics of Zionism: A Testamentary Essay with "The Stifling and Smearing of a Dissenter"** (New York: Arab Information Center, N.D.), p. 17.

(2) "Jews and the State of Israel", From "The End of The Jewish People?" in Smith, **Zionism: The Dream and Reality**, p. 142.

(3) **Ibid.**

(4) Michael Selzer, "The Jewishness of Zionism", **Issues**, Vol. XXI (Autumn 1967), p. 18.

(5) Selzer, **Zionism Reconsidered**, p. 128.

نشأنا في عالم يتحدّث عن الإبادة النازية لليهود، ورأينا الكثير من الأفلام، وقرأنا كثيراً من الدراسات التي تتناول هذا الموضوع، بعضها بشكل مركّب والآخر بشكل دعائي ساذج، ولكن الغالبية العظمى من هذه الأفلام والدراسات تركّز على حجم الجريمة النازية ضد الجماعات اليهودية في أوربا، ولكنها تتجاهل، في الوقت نفسه، عدة عناصر مهمة نذكر منها العناصر التالية:

١ ـ أن الأقليات اليهودية لم تكن هي وحدها ضحية العنف النازي، الذي نزل بكل الشعوب غير الآرية. فالشعوب السلافية أُبيدت منها الملايين أيضاً، وأُبيد أعضاء قبائل الغجر الذين وقعوا في براثن النازيين، كما أُبيد كثير من العجزة والمرضى الألمان، ويُقال إنه كانت توجد فصائل خاصة للإبادة تصاحب الفرق الألمانية المحاربة لإبادة الجنود الألمان الذين يقعون جرحى ولا يؤمل شفاؤهم.

٢ ـ تهمل هذه الدراسات كثيراً من الأسباب التي أدت إلى اختفاء اليهود مثل الاندماج والتنصُّر والزواج المختلط وقلة النسل والإحجام عن الإنجاب والأمراض والأوبئة التي انتشرت في أوربا إبّان الحرب العالمية الثانية. وعندما يُذكر أن هناك ستة ملايين يهودي قُتلوا أثناء الحُكم النازي، قد يكون الرقم صحيحاً، ولكن هل تم إبادة الستة ملايين عن طريق أفران الغاز، أم أن العوامل الأخرى التي ذكرناها كان لها دورها الملحوظ في عملية الاختفاء؟

٣ ـ تهمل هذه الدراسات إبراز حقيقة أن النازية لم تكن انحرافاً عن الحضارة الغربية، وإنما هي تيار أساسي فيها كالصهيونية تماماً. والحل النازي للمسألة اليهودية لا يختلف كثيراً عن الحلول الغربية الإمبريالية المطروحة للمشاكل المماثلة. فالنازية والإمبريالية يصدران عن الإيمان بتفوق الجنس الآري على الأجناس الأخرى، وأن هذا التفوق يعطي الحق للآريين في أن يتخلصوا من مشاكلهم عن طريق تصديرها للبلاد الأخرى، حتى ولو أدى هذا إلى إبادة السكان الأصليين. والحل النازي لا يختلف عن ذلك، فهو محاولة لتصدير المسألة اليهودية خارج ألمانيا، وقد حاول النازيون في أول الأمر تصديرها إلى الدول الأوربية الأخرى (حيث إن المجال الحيوي للاستعمار النازي كان في

أوربا) فأرسلوا بقطارات مُحمَّلة باليهود إلى بولندا التي أوصدت أبوابها دونهم. وبعد ذلك حاولوا تصدير المسألة اليهودية إلى إحدى المناطق خارج أوربا (سوريا ـ موزمبيق ـ إكوادور) لكن أخفق النازيون في مسعاهم، وخاصةً أن ألمانيا كانت قد حُرمت من مستعمراتها في أفريقيا بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى. وحين وجد النازيون أن الطريق مسدود أمامهم، قاموا بتصدير اليهود (والغجر والسلاف) إلى معسكرات الاعتقال لإبادتهم هناك. إن الجريمة النازية هي نتاج منطقي للحضارة الغربية الحديثة، وليست استثناء منها.

ولعل أكبر دليل على أن النازية جزء أصيل من الحضارة الغربية هو أن الرد الغربي على معسكرات الاعتقال والإبادة لليهود لم يكن مغايراً، في بنائه وفي سماته الجوهرية، للجريمة النازية. فالغرب يحاول حل المسألة اليهودية بإنشاء الدولة الصهيونية على جثث الفلسطينيين، وكأنه يمكن أن تُمحى جريمة أوشوفيتس بارتكاب جريمة دير ياسين أو مذابح صابرا وشاتيلا وقانا والخليل وجنين. والغرب الذي أفرز هتلر وغزواته هو نفسه الذي ينظر بإعجاب إلى الغزو الإسرائيلي لجنوب لبنان وبيروت وأنحاء أخرى من العالم العربي، وهو الذي ينظر بحياد وموضوعية للجرائم التي تُرتكب بشكل يومي وروتيني ضد الشعب الفلسطيني. إن الحضارة الغربية الحديثة هي التي أفرزت الإمبريالية والنازية والصهيونية، وهي إذ تنكر الآن النازية فهذا أمر مفهوم، لأن أبعاد الجريمة والفضيحة ضخمة، وخصوصاً أن الجريمة ارتُكبت ضد الشعوب الأوربية. ولكن يجب ألا يخفي هذا الوضع عن أنظارنا، أو عن أنظار الآخرين، الحقيقة الأساسية، التي تؤكد أن النازية جزء أساسي من الحضارة الغربية.

٤ ـ تهمل الدراسات الغربية للظاهرة النازية التشابه الفكري بين النازية والصهيونية والتعاون الفعلي بين النازيين والصهاينة. وسأحاول في بقية هذا الفصل أن ألقي الضوء على بعض جوانب هذا الموضوع.

على الرغم من أن هذا الموضوع يثير الآن شيئاً من الدهشة فإن الأمر لم يكن كذلك في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين، فكثير من المستوطنين

الصهاينة كانوا يكنون الإعجاب للنازية، وأظهروا تفهماً عميقاً لها ولُمُثلها ولنجاحها في «إنقاذ» ألمانيا[1]. بل عدّوا النازية حركة «تحرير وطني»[2] (ربما مثل الصهيونية، التي تزعم الآن أنها، هي الأخرى، حركة تحرير وطني للشعب اليهودي). ولذا كان الشباب الصهيوني والمراجعون يهتفون «ألمانيا لهتلر، إيطاليا لموسوليني، وفلسطين لجابوتنسكي»[3]. وقد سجل حاييم كابلان، وهو صهيوني كان موجوداً في جيتو وارسو أثناء حصار النازي له، أنه "لا يوجد أي تناقض بين رؤية الصهاينة والنازيين للعالم فيما يخص المسألة اليهودية، فكلتاهما تهدف إلى الهجرة، وكلتاهما ترى أنه لا مكان لليهود في الحضارات الأجنبية". وقد تصور كابلان أن هذه الكلمات كانت جديدة على النازيين تماماً، وأنهم لم يصدقوا آذانهم حينما سمعوها لأول مرة من أحد اليهود المحاصَرين[4]. ولكن كابلان كان مخطئاً تماماً كما سنبيِّن فيما بعد.

أدرك الصهاينة طبيعة العلاقة بين النازية والصهيونية، وهي علاقة ذات جذور مركَّبة، يمكن أن نعود بها إلى عدة عوامل، من بينها الأصول الألمانية للزعامات الصهيونية. فهرتزل ونوردو كانا يكتبان بالألمانية ويتحدثان بها، وكانا مُلمين بالتقاليد الحضارية الألمانية ويكنان لها الإعجاب. أما بخصوص الزعماء الصهاينة من شرق أوربا، فلغتهم كانت اليديشية، وهي رطانة ألمانية أساساً، كما كان اليهود مُعجبين للغاية بالحضارة البروسية النوردية أو الآرية، ولا يكنون احتراماً كبيراً للحضارات السلافية. ومن المعروف أنه حينما دخلت الجيوش الألمانية روسيا، أثناء الحرب العالمية الأولى، خف اليهود الروس لاستقبالها، بوصفها محرِّرة ومنقذة لليهود[5]. ومن المفارقات الطريفة التي تستحق الذكر أن أحد الجنرالات النازيين

---

(1) Walter Laquer, **A History of Zionism** (New York: Holt, Rinchart and Winston, 1972), pp. 361, 362.

(2) Joseph B. Schechtman, **Fighter and Prophet: The Vladimir Jabotinsky Story- The Last Years** (New York: Thomas Yoseloff, 1961), p. 216.

(3) **Ibid.**, p. 267.

(4) Kaplan, **The Scrolls of Agony**, p. 110.

(5) Agus, **The Meaning of Jewish History**, Vol. II. P. 94.

كان ضابطاً في الجيش الألماني الذي غزا بولندا في الحرب العالمية الأولى وكتب منشوراً توجَّه به إلى يهود اليديشية بدأه بعبارة "إخوتي اليهود"!

ولعله لم يكن من قبيل الصدفة أن لغة المؤتمرات الصهيونية الأولى كانت الألمانية، وأن هذه اللغة كانت تمثل تحدياً حقيقياً للعبرية حينما نوقشت مسألة لغة الوطن القومي، ونشب ما يسمَّى «حرب اللغة» في المستوطن الصهيوني. ولعله ليس من قبيل الصدفة أيضاً أن هرتزل ـ أثناء بحثه اللاهث عن قوة استعمارية تتبنى مشروعه الاستيطاني ـ توجه، في بادئ الأمر، لقيصر ألمانيا. وتزخر مذكرات هرتزل بعبارات الإعجاب والإشادة ببروسيا وبعبقريتها. بل إن جولدمان يرى عن حق أن هرتزل قد توصَّل إلى فكرته القومية من خلال معرفته بالفكر والحضارة الألمانية[1].

وقد تأثر كلٌّ من الفكر الصهيوني والنازي بالفكر الرومانتيكي الألماني (وإن كان يجب ألا ننسى أن ثمة مصادر فكرية مشتركة أخرى بين الفكرين: أساطير العهد القديم وتحويلها من أساطير دينية إلى عقائد سياسية ـ الفكر الإمبريالي ـ النظريات العرْقية). ولعل أهم الأفكار الأساسية في الفكر الألماني الرومانتيكي، هو رفضه للعَقل الإنساني وفعاليته، بوصفه أداة ناقصة قاصرة عن فَهم العالم وتغييره. وبدلاً من العقل تحل الرومانتيكية فكرة الخيال، والحدس، والعقل الجمعي، والماضي المشترك، والجماعة العضوية والأساطير العرْقية.

وتعبِّر هذه اللاعقلانية عن نفسها في أشكال وطرق كثيرة أهمها فكرة «الفولك»، وروابط الدم والتراب العضوية. و«الفولك»، أو الشعب العضوي، هو كيان عضوي متكامل، "أبدي، ونتاج للنمو الحتمي للسمات الفطرية"، يحاول التعبير عن عبقريته الخاصة من خلال وحدته القومية وأنساقه السياسية وأشكاله الفنية الخاصة به. وفكرة الفولك تتضمن وجود علاقة عضوية بين الدم والتراب وبين الإنسان والأرض. ويمكن القول إن الحركة الصهيونية بدأت تاريخها مع

(1) Laquer, A History of Zionism, P. 64.

اكتشافها لليهود «كفولك» أو كشعب عضوي: كيان جماعي له تاريخه الخاص وتراثه الحضاري المتميز بل وسماته البيولوچية الخاصة به. وقد استفاد مارتن بوبر (أهم مفكر ديني يهودي في العصر الحديث) استفادة كبيرة من هذا المفهوم وأعاد صياغة التراث اليهودي من منظوره، ونسب إلى اليهود كل السمات الصوفية، كالانفصال والتفوق، التي ينسبها الرومانتيكيون الأوربيون إلى أممهم، واستخدم عبارات وشعارات مثل «التراب والدم»[1]. وكان كل من بيرديشڤسكي وشاؤول تشرنحوڤسكي (الشاعر الروسي الصهيوني) يتحدثان عن الشعب اليهودي بالعبارات نفسها وينسبان له الخصائص نفسها.

ويفترض التصوُّر الرومانتيكي أن اليهودي والألماني هم يهود وألمان، بغض النظر عن الزمان والمكان، وبغض النظر عن الحدود والمؤسسات السياسية التي يتواجدون داخلها، لأن انتماء الإنسان السياسي ليس أمراً ذا بال. إن عقائد الإنسان السياسية - من منظور عقلاني - هي أمر من اختياره، بينما علاقة الإنسان «بالفولك» هي شيء يعلو على الإرادة والوعي الفرديين. وهذا يعني عدم احترام الحدود السياسية وضرورة التعامل مع الواقع من منظور "المجال الحيوي". ولذا يذهب النازيون إلى أن جميع الأشخاص المنحدرين من العرْق الألماني، أو الذين تربطهم قرابة الدم بالأصل الألماني يكون ولاؤهم الأول لألمانيا، ويجب أن يصبحوا مواطنين في الدولة الألمانية، وطنهم الحقيقي. وحتى إذا كانوا قد نشئوا وترعرعوا، هم وآبائهم وأجدادهم تحت سماوات أجنبية أو في بيئات غربية، فإن حقيقتهم الأساسية تبقى ألمانية. وقد عرَّف سترايخر ألمانيا العظمى بأنها أرض يمكن أن يعيش فيها كل الألمان، وكل المتحدثين بالألمانية، وكل الشعوب التي تجري في عروقهم دماء ألمانية[2]. ويرى الصهاينة أن اليهود شعب عضوي جذوره في فلسطين، ولذا مهما كان وطن اليهود الأصلي فإن جوهره يظل يهودياً ثابتاً لا يتغيَّر.

---

(1) Agus, The Meaning of Jewish History, Vol. II, p. 421.

(2) Trial of the Major War Criminals Before the International Military Tribunal: Nuremberg 14 November 1945-1 October 1946 (Nuremberg, Germany, 1947), Vol. XII, p. 346.

وكان النازيون يؤمنون أيضاً بوجود دياسبورا ألمانية Auslandeutsch ، تربطها روابط عضوية بالأرض الألمانية ، وأعضاء هذا الشتات الألماني مثل أعضاء الشتات اليهودي تماماً ، يجب أن يعملوا من أجل الوطن الأم . وبما أن العودة للوطن أمر عسير ، كما هو الحال مع الصهاينة ، فقد اقترح النازيون ما يشبه «نازية الشتات» ، (مثل «صهيونية الشتات»)، عن طريق تشجيع الألمان في الخارج على دراسة الحضارة واللغة الألمانية ، وكان للصهاينة ما يشبه المنظمة النازية العالمية -Ausland or ganization التي كانت لها صلاحيات تشبه صلاحيات المنظمة الصهيونية العالمية ، ولها مكانة في ألمانيا تشبه من بعض الوجوه ، مكانة المنظمة الصهيونية في إسرائيل . وقد تعاون الألمان في كل أنحاء العالم مع السفراء والقناصل الألمان تماماً كما يتعاون اليهود الصهاينة مع سفراء وقناصل إسرائيل في بلادهم(١) .

وقد عمَّقت كلٌّ من النازية والصهيونية الاعتزاز بالخصوصية القومية وكُره الغير ، كما أكدتا النقاء الغنصري كتعبير عن البُعد عن الأغيار . وقد حوَّلت الصهيونية النبي عزرا إلى بطل قومي (بعد نزعه من سياقه الديني)، وتحوَّل هذا النبي ، الذي كان يعادي الزواج المختلط ، إلى بطل صهيوني يدافع عن الذات القومية . وقد أشار المنظِّر النازي سترايخر ، أثناء محاكمته ، إلى هذا التصور الصهيوني للنبي عزرا : " لقد أكدت دائماً أن اليهود يجب أن يكونوا النموذج الذي تحتذيه كل الأجناس ، فلقد خلقوا قانوناً عنصرياً لأنفسهم ، قانون موسى الذي يقول : "إذ دخلت بلداً أجنبياً ، فلن تتزوج من نساء أجنبيات "(٢) .

ومن الموضوعات المتشابكة مع فكرة «الفولك» فكرة الاختيار ، وقد تناولنا هذه الفكرة عند الصهاينة . وقد سُئل هتلر عن سبب معاداته لليهود ، فكانت إجابته قصيرة ، بقدر ماكانت قاسية وواضحة : " لا يمكن أن يكون هناك شعبان مختاران ، ونحن وحدنا شعب الله المختار . هل هذه إجابة شافية عن السؤال؟ "(٣) .

(1) **Encyclopedia Britanica**, 23 Vols. (Chicago: Encyclopedia Britanica, 1968), Vol. X "National Socialism".

(2) **Trial of the Major War Criminals**, Vol. VII, p. 315.

(3) Agus, **The Meaning of Jewish History**, Vol. II, p. 486.

وقد تأثر الصهاينة، مثل النازيين، بكتابات نيتشه، فآحاد هعام (أهم مفكر صهيوني) ومارتن بوبر وبيريشڤسكي، قرءوا أعمال الفيلسوف الألماني وتشربوها (وفي تصوري أن آحاد هعام وبوبر هما أهم مفكرين صهيونيين على الإطلاق). فنجد في كتابات النازيين والصهاينة كثيراً من الموضوعات التي تتواتر فيها كتابات نيتشه (السوبرمان ـ التركيز على الماضي والمستقبل دون الحاضر ـ احتقار أخلاق العبيد والدياسبورا ـ إنكار التاريخ ـ معاداة الفكر ـ دين دون إله).

ولكن العلاقة بين النازية والصهيونية تتعدى مجرد التماثل البنيوي، والتأثير والتأثُّر الفكري، إذ ثمة علاقة فعلية على مستويات عدة: ولنبدأ بأدناها، وهو كيفية استغلال النازيين للدعاية الصهيونية في الترويج لرؤيتهم الإجرامية. وقد تناول الكاتب الأمريكي اليهودي بنيامين ماتوفو هذا الجانب من العلاقة في دراسته **الرغبة الصهيونية والفعل النازي**[1]. ويؤكد الكاتب أن الصهيونية مسئولة، إلى حدٍّ كبير، عن الجريمة النازية لأن الصهاينة نشروا في ألمانيا ذاتها المزاعم الصهيونية الخاصة بالتميز اليهودي العرْقي والانفصال القومي عن كل أوربا. ويوثق الكاتب مقولته بالإشارة إلى عدد من التصريحات التي أدلى بها زعماء الصهاينة، فيشير ـ على سبيل المثال ـ إلى خطبة ألقاها ناحوم جولدمان في جامعة هايدلبرج عام ١٩٢٠ (ثلاثة عشر عاماً قبل ظهور كتاب هتلر **كفاحي**). وقد زعم جولدمان، في خطبته هذه "أن اليهود شاركوا، بشكل ملحوظ للغاية، في الحركات التخريبية، وفي إسقاط الحكومة في نوفمبر ١٩١٨". وقد أكد جولدمان أيضاً أنه لا توجد أية عوامل مشتركة بين يهود ألمانيا والألمان، وأن الألمان عندهم الحق في أن يمنعوا اليهود من الاشتراك في شئون «الفولك» الألماني.

وقد أدلى جولدمان وكلاتزكين بتصريحات عن ضعف ولاء اليهود لأوطانهم في ألمانيا في الفترة نفسها. وأكد كلاتزكين أن «اليهود» غرباء.. شعب أجنبي.. يود أن يبقى على هذه الحالة. ولكي يضرب مثلاً على انعزالية اليهود قال إن اليهود قد هوَّدوا حتى لغتهم، وهي تسمَّى يديش (أي يهودي). أما وايزمان

(1) B. Motavu, "Zionist Wish and Nazi Deed", Issues, Vol. 20 (Winter 1966-1967), p. 10.

فوصف علاقة الألمان باليهود، بصورة مجازية استقاها من عملية الهضم. فهو يرى أن كل بلد يمكنها استيعاب عدد محدود من اليهود، إذا كانت تود تحاشي الاضطرابات المعوية، وبحسب رأيه فإن ألمانيا "كانت تحتوي فعلاً على عدد أكثر من اللازم من اليهود".

وكان من شأن كل هذه التصريحات المعادية للسامية أن تخدم النازيين في حملة الكراهية التي شنوها ضد اليهود، إذ قاموا بطباعة التصريحات والكتيبات الصهيونية التي كانت تشكل الأساس الفكري «لهجمات النازية ضد اليهود» ووزعوها. وقد قال ألفريد روزنبرج، أهم المنظرين النازيين، والذي صدر عليه حكم الإعدام في محاكمات نورمبرج بعد الحرب، أنه جمع كثيراً من آرائه من الأدبيات الصهيونية، ومن المؤرخين الصهاينة، وأشار إلى دعوة مارتن بوبر لليهود أن يعودوا إلى أحضان آسيا: "بوبر، على وجه الخصوص، أعلن أن اليهود يجب أن يعودوا إلى أرض آسيا، لأن هناك، وهناك فقط، يمكن العثور على جذور الدم اليهودي والشخصية القومية اليهودية"[١]، أي أنه رأى اليهود باعتبارهم شعباً عضوياً (فولك).

ويمكن القول إن الزعماء الصهاينة، حينما أدلوا بهذه التصريحات، لم يكن يدور بخلدهم أن النازيين سيستغلونها. ولكن ثمة أشكالاً للعلاقة بين النازية والصهيونية تمت بشكل واعٍ بين الطرفين، إذ يبدو أن الصهاينة لم يظهروا حماساً كبيراً في حربهم ضد النازية، وأنهم لم يكترثوا بالمقاومة ضد النازيين. وقد حذر كارل كاوتسكي المفكر الاشتراكي من الآثار الضارة للصهيونية، التي توجه جهود اليهود وثرواتهم "في الاتجاه الخاطئ" (الاستيطان في فلسطين)، في وقت تتقرر فيه مصائرهم في مسرح مختلف تماماً (أوربا وألمانيا) يجب عليهم أن يركزوا فيه كل قواهم[٢]. وكان كاوتسكي يشير إلى ملايين اليهود في شرق أوربا (بين ثمانية وعشرة ملايين) الذي لم يكن من الممكن تهجيرهم إلى فلسطين، وبدلاً من

(1) Ahmed El-Kadsi and Eli Lobel, The Arab World and Israel (New York: Monthly Review Press, 1970), pp. 129, 130.

(2) The Guardian (February, 1975).

تنظيمهم وتوجيه طاقاتهم، حتى يكونوا مهيئين للدفاع عن أنفسهم حينما تقع الواقعة، كانت القيادات الصهيونية تركِّز على تهجير بضع مئات منهم إلى أرض الميعاد.

بل إن المسألة، كما يبدو، تتخطى مجرد عدم الاكتراث بمصير اليهود، إذ يبدو أن الصهاينة اكتشفوا، أثناء الإرهاب النازي ضد اليهود، ذلك التناقض العميق بين فكرة الدولة اليهودية ومحاولة إنقاذ اليهود. وفي حديث أدلى به أحد الزعماء الصهاينة، هو إسحق جرينباوم، رئيس لجنة الإنقاذ بالوكالة اليهودية، أمام اللجنة التنفيذية الصهيونية، في ١٨ فبراير ١٩٤٣، قال إنه لو سُئل عما إذا كان من الممكن التبرع ببعض أموال النداء اليهودي الموحَّد «لإنقاذ اليهود» فإن إجابته ستكون قاطعة "كلا، ثم كلا. يجب أن نقاوم.. هذا الاتجاه نحو وضع النشاط الصهيوني في المرتبة الثانية"، "فبقرة واحدة في فلسطين أثمن من كل اليهود في بولندا"[١]، وكان وايزمان قد عبَّر عن نفس الفكرة النفعية عام ١٩٣٧ حينما قال "إن العجائز سيموتون.. فهم تراب.. وسيتحملون مصيرهم.. وينبغي عليهم أن يفعلوا ذلك"[٢]. إن المادة البشرية اليهودية الاستيطانية أثمن من يهود العالم.

واكتشف النازيون أيضاً عمق التناقض بين مصالح الصهاينة ومصالح اليهود. ولعل هذا يفسر أن الصهاينة كانوا يرون أن عدوهم الحقيقي هم اليهود الأرثوذكس و"الجماعة المركزية للمواطنين اليهود من أتباع العقيدة الموسوية"[٣] (التي يدل اسمها على اتجاهها الإصلاحي). ولعله يفسر أيضاً لِمَ كانت علاقة الدولة النازية بالمنظمات الصهيونية تتسم بشيء من الود والتفاهم، فاليهود الأرثوذكس آنذاك كانوا يرفضون "العودة" إلى فلسطين على أساس ديني، وكان اليهود الإصلاحيون يرفضونها على أساس ديني وعلماني، ولذا كان كل فريق يطالب اليهود بالاندماج

(1) **Ibid.**

(2) Hannah Arendt, **Eichman in Jerusalem: A Report on the Banality of Evil.** (New York: The Viking Press, 1963), p. 59.

(3) Arie Bober (Ed.), **The Other Israel: The Radical Case Against Zionism** (Garden City, New York: Doubleday, 1972), p. 171.

في مجتمعاتهم، والدفاع عن حقوقهم الدينية والمدنية في مجتمعاتهم. أما الصهاينة فيعارضون الاندماج، ويعارضون منح اليهود أي حق، إلا حق الهجرة إلى الوطن القومي اليهودي. وقد جاء في دراسة إسرائيلية أن المنظمات والأفراد غير الصهاينة هم الذين أخذوا زمام المبادرة في حركة المقاومة ضد النازيين، وتحملوا عبئها، وأنه كلما كان النضال أشد ضراوة، كان الصهاينة يزدادون ابتعاداً عن بقية اليهود[1]. ومن المعروف أن القوات النازية كانت تقيم مجالس لليهود في البلاد التي تحتلها بعد حل كل التنظيمات اليهودية، ويقال إن غالبية أعضاء هذه المجالس كانوا من الصهاينة.

بل يبدو أن النظام النازي لم يسمح إلا للصهاينة وحدهم بمزاولة نشاطهم، ومنع الإصلاحيين والأرثوذكس من إلقاء الخطب، أو الإدلاء بتصريحات، أو جمع التبرعات أو مزاولة أي نشاط آخر. وقد قام كورت جروسمان، في **كتاب هرتزل السنوي** (الجزء الرابع)، بدراسة الموضوع، ونشره تحت عنوان "الصهاينة وغير الصهاينة تحت حكم النازي في الثلاثينيات". وألحق الكاتب بالمقال ثماني وثائق نازية تحمل كلها توجيهات للشرطة خاصة بتنظيم النشاط اليهودي في ألمانيا النازية. وأول هذه التوجيهات (رقم ٣٥٤٢٠/ ١٨١٣٤) صادرة من الشرطة السياسية في بافاريا (بتاريخ ٢٨ يناير ١٩٣٥) وهي خاصة بمنظمات الشباب اليهودي، وجاء فيها أن إعادة بعث المنظمات الصهيونية "التي تدرب اليهود تدريباً مهنياً على الزراعة والحرف، قبل هجرتهم وإلى فلسطين، هو أمر في صالح الدولة النازية، وهذا أمر بديهي لأنها ستخلّص ألمانيا من اليهود. بينما جاء في توجيه آخر (رقم ١٧١٨٦/ ١٨١٣٥ بتاريخ ٢٠ فبراير ١٩٣٥)، أنه "يجب حل المنظمات اليهودية التي تدعو إلى بقاء اليهود في ألمانيا" وقد مُنع مواطن ألماني صهيوني، اسمه چورچ لوبنسكر، من إلقاء الخطب عن طريق الخطأ، ولذا قام التوجيه رقم ٩١٩١٠٦/ ١٣٥١-١ب بتصحيح هذا الوضع، إذ صدر أمر بالسماح له بممارسة نشاطه، لأنه "مدافع بليغ عن الفكرة الصهيونية.. وتعهد بأن يساعد على هجرة اليهود في المستقبل دون أي عوائق"، فالصهيونية تخلص ألمانيا من اليهود.

---

(1) Arendt, Eichman in Jerusalem, p. 42.

وكان النازيون مهتمين كثيراً بنشاط الصهاينة المراجعين من أتباع جابوتنسكي، ولذا صدر تصريح (رقم ١٧٩٢٩/ ١٣٥ـ١ب) لمنظمتي "الشباب القومي الهرتزلي" و"بيت هاشموريم" بأن يرتدوا أزياءهم الرسمية أثناء اجتماعاتهم. وقد أعطى التصريح، كما جاء في التوجيه، بشكل استثنائي لأن صهاينة الدولة (أي الصهاينة المراجعين) "قد برهنوا على أنهم المنظمة التي تحاول، بكل السُبل، حتى غير الشرعية منها، أن ترسل أعضاءها إلى فلسطين.. والتصريح بارتداء الزي سيكون حافزاً لأعضاء المنظمات اليهودية الألمانية أن ينضموا إلى منظمة الشباب الخاصة بصهاينة الدولة حيث سيتم حثهم بشكل أكثر كفاءة، على الهجرة إلى فلسطين". وقد صدر تصريح (بتاريخ ٩ يوليو ١٩٣٥. ١٩٠٥٢/ ١٣٥ ١ب) للمنظمات الصهيونية بجمع التبرعات من أجل تشجيع الهجرة والاستقرار في فلسطين، ولشراء الأراضي هناك، وقد مُنح التصريح "لأن هذه التبرعات تساهم في الحل العملي للمسألة اليهودية".

وقد كشفت لنا محاكمة أيخمان عن بعض جوانب العلاقة بين النازيين والصهاينة، فأيخمان كان معجباً، أيما إعجاب، بالصهيونية. إذ كان ـ على حد قوله ـ مثالياً، والمثالي ليس ذلك الإنسان الذي يؤمن بفكرته وحسب، بل هو الرجل الذي يعيش من أجل فكرته، ولذلك فهو كان على استعداد للتضحية بكل شيء، بل وبالجميع، من أجلها[1]. وقد وجد أن الصهاينة ينتمون لهذا النمط المثالي نفسه، وحينما تولى مسئولية الإشراف على اليهود أوصاه رئيسه بقراءة **دولة اليهود**، وفور انتهائه من قراءة الكتاب أصبح أيخمان ـ على حد قوله ـ صهيونياً، يطالب بوضع "شيء من الأرض الراسخة تحت أقدام اليهود". وقد بلغ إعجاب أيخمان بهرتزل أن عبّر عن استيائه الشديد من الذين دنّسوا مقبرته وشوهوها[2]. ولم يكن أيخمان صهيونياً فكرياً وحسب (مثل بعض صهاينة الشتات)، بل كان صهيونياً عملياً وفعالاً، فقد كان على استعداد للعمل من أجل تحويل فكرة «العودة»

(1) Ibid, p. 41.
(2) Ibid, p. 62.

إلى أرض الميعاد إلى حقيقة وواقع. وقد دعاه بعض الصهاينة لزيارة الكيبوتسات في فلسطين، محاولين بذلك كسبه لصفهم، فوصل إلى حيفا فعلاً، ولكن السلطات الإنجليزية رحّلته على الفور. وقد ساعد أيخمان الصهاينة على تأسيس معسكرات تدريبية للمهاجرين اليهود، بل إنه طرد مرة مجموعة من الراهبات من ديرهن حتى يزود بعض الشباب اليهود بمزرعة تدريبية[1].

وأشكال التعاون بين النازيين والصهاينة، التي تناولناها حتى الآن، تمت بشكل غير مقصود (تصريحات صهيونية يستفيد منها النازيون)، أو التقاء عفوي في منتصف الطريق (نشاط صهيوني يشجعه النازيون). ولكن ثمة أشكالاً أخرى من التعاون الواعي، الذي تم عن طريق المفاوضات، وانتهى بعقد اتفاقية بين الطرفين. هذه الاتفاقية هي «الهعفراه»[2]، وهي كلمة عبرية تعني «نقل» - أي نقل السكان اليهود من ألمانيا إلى فلسطين، وهو المثل الأعلى للنازيين والصهاينة معاً. وقد عُقدت هذه الاتفاقية بين النازيين والمستوطنين الصهاينة في فلسطين، وبمقتضاها صرح النازيون لليهود بالهجرة، ووافقوا على الإفراج عن أموالهم على أن تودع في أحد البنوك الألمانية وأن يتم إنفاقها داخل ألمانيا ذاتها، عن طريق شراء البضائع والآلات، وذلك مقابل كسر المنظمة الصهيونية العالمية للحصار الاقتصادي الذي فرضه يهود العالم على البضائع الألمانية. وقد احتج بعض المندوبين في المؤتمر الصهيوني التاسع عشر (١٩٣٥) على هذا التعامل بين الطرفين، ولكن لم يُتخذ أي قرار في هذا الشأن. وقد منحت ألمانيا لمؤسسة الهعفراه الصهيونية حق احتكار البضائع الألمانية المصدّرة إلى فلسطين. وكان من نتائج هذه الاتفاقية استيراد خبرة الفنيين اليهود الألمان والآلات الألمانية التي كانت تحتاجها المستوطنات الصهيونية، كما زادت الصادرات الألمانية إلى فلسطين ثلاثة أضعاف من عام ١٩٣٢ إلي عام ١٩٣٧ (من ١١ مليون مارك إلى ٣٢ مليون مارك). وعند نشوب الحرب العالمية الثانية، كان لمؤسسة الهعفراه ١٢ ألف حساب مصرفي،

(1) Ibid, pp. 60, 61.

(2) Roth, Encyclopedia Judaica, Vol. VII "Haavrah".

وكانت قد تعاملت مع ١٦٠ بنكاً، وقامت بنصف مليون عملية، وبلغ مجموع ما حوّلته الهعفراه ما يعادل ١٤٠ مليون مارك. وقد أنعش هذا اقتصاديات المستوطن الصهيوني، فشاهد فترة رخاء، ويقال إن هذه الفترة هي التي تدعم فيها الأساس الاقتصادي للمستوطن الصهيوني، وهي الفترة التي أدت أيضاً إلى إفساد البناء الاقتصادي للمجتمع الفلسطيني. وليس من قبيل الصدفة أن ثورة ١٩٣٩ الفلسطينية جاءت في أعقاب تنفيذ اتفاقية الهعفراه. كما كان لتنفيذها انعكاسات طيبة على الاقتصاد النازي أيضاً، وخاصةً أنها نجحت في كسر الحصار اليهودي العالمي على السلع النازية.

ولكن الأهم من هذا كله كان في مجال الهجرة الصهيونية، فتهجير اليهود هو الأرضية الأيديولوچية المشتركة بين الصهاينة والنازيين، وقد ساهم الجستابو وفرق الإس. إس. في عمليات الهجرة الصهيونية. وحينما حددت سلطات الانتداب عدد اليهود المسموح بدخولهم فلسطين، ساهمت وزارة الاقتصاد في عملية تهجير اليهود على النحو التالي: تودع أموال المواطنين اليهود، الراغبين في الهجرة؛ في أحد البنوك كما بيّنا من قبل، ثم تقوم المنظمة الصهيونية/ الوكالة اليهودية بشراء بضائع بقيمة هذه الأموال. عندئذ تقوم المنظمة بدفع مبلغ من المال للمهاجر اليهودي، مما يجعل من السهل تصنيفه على أنه «رأسمالي» الأمر الذي ييسر له دخول فلسطين تحت نسبة الرأسماليين، إذ كانت النسب الأخرى لا تسمح بذلك. وقد هاجر حوالي ٦٠ ألف يهودي، بمقتضى معاهدة الهعفراه، بين عامي ١٩٣٣ - ١٩٣٩.

وإلى جانب التعاون التنظيمي المعلن، توجد حالات من التعاون الفردي غير المعلن، مثل حالة كاستنر ونوسيج[1]. أما رودولف كاستنر (١٩٠٦ - ١٩٥٧) فهو أحد زعماء الحركة الصهيونية في رومانيا والمجر، وشخصية قيادية في حزب الماباي، ترأس عدداً من المنظمات الشبابية الصهيونية، ورأس تحرير بعض المجلات الصهيونية، وكان نائب رئيس المنظمة الصهيونية في المجر، ثم أصبح مسئولاً عن

(1) Encyclopedia of Zionism and Israel, 2 Vols., Vol. II "Kastner".

«إنقاذ» المهاجرين اليهود من بولندا وتشيكوسلوفاكيا. وقام بالاتصال بالمخابرات المجرية والنازية (التي كان لها عملاء يعملون داخل المجر، حتى قبل احتلال القوات الألمانية لها) لتحقيق أهدافه، وقد زادت محاولات «الإنقاذ» هذه بعد الاحتلال النازي في إطار تبادل المهاجرين اليهود في مقابل البضائع.

وقد زاد التعاون بين كاستنر والنازيين حتى وصل إلى درجة العلاقة المباشرة التي ربطته بأيخمان. فزار كاستنر ألمانيا عدة مرات، و«نجحت» جهوده حينما سمح النازيون عام ١٩١٤ بإرسال ٣١٨ يهودياً ثم ١٣٨٦ يهودياً من أحد معسكرات الاعتقال إلى فلسطين. ("يهود من أفضل المواد البيولوچية" ـ على حد قول أيخمان) في سبيل أن يسود الهدوء بين اليهود المرحلين إلى معسكرات الإبادة حيث تنتظرهم أفران الغاز. ويبدو أن كاستنر قد نفذ ما يخصه من الصفقة، حين أقنع اليهود الذين تقلهم القطارات إلى معسكرات الإبادة بأنهم ذاهبون في الواقع إلى أماكن أخرى يستقرون فيها أو أنهم كانوا في طريقهم إلى معسكرات تدريب مهني. وثمة نظرية تقول إنه كان من المستحيل على النازي شحن هذه الآلاف المؤلفة من اليهود دون تعاون القيادات الصهيونية.

وقد استوطن كاستنر في إسرائيل، وأصبح محرراً لإحدى مجلات الماباي الناطقة باللغة المجرية، ولكن في عام ١٩٥٣، وزع أحد المواطنين الإسرائيليين منشوراً بيَّن فيه مدى تعاون كاستنر مع النازيين، ودفاعه عن أحد الضباط النازيين أثناء محاكمة نورمبرج، الأمر الذي أدى إلى الإفراج عنه (أي أن حماس كاستنر للنازيين استمر حتى بعد سقوط النظام النازي). وقد قام الحزب الحاكم في إسرائيل بمحاولات مضنية لإنقاذ كاستنر، ولكن إحدى المحاكم الإسرائيلية حكمت بأن معظم ما جاء في المنشور يتطابق مع الواقع، وبعد إشكالات قضائية كثيرة حسمت المسألة (لحسن حظ الحزب الحاكم) حينما أطلق أحدهم الرصاص على كاستنر وهو يسير في الشارع.

وأما ألفريد نوسيج (١٨٦٤-١٩٤٣) فهو فنان نمساوي، وكان من أوائل الدعاة للصهيونية، ففي كتاب له، عنوانه **محاولة لحل المسألة اليهودية** (١٨٨٧)، طالب

بإنشاء دولة يهودية كحل وحيد لهذه المسألة. وقد حضر المؤتمر الصهيوني الأول، ولكنه اختلف مع هرتزل على مواضيع تفصيلية. وقد أقام نوسيج عدة تماثيل ذوات طابع صهيوني واضح، وكان نوسيج متشرباً بالثقافة الألمانية، متحمساً لها، كما هو الحال مع معظم الزعماء الصهاينة، فعمل جاسوساً للألمان أثناء الحرب العالمية الثانية، ووضع خطة لإبادة اليهود الألمان المسنين والفقراء. وحينما وصلت القوات النازية إلى بولندا، قام نوسيج بتقديم عدة خطط للهجرة اليهودية، فعيَّنه النازيون عضواً في قسم الشئون اليهودية، ورئيساً لقسم الفنون (اليهودي) التابع له. وقد اكتشفت المقاومة اليهودية في جيتو وارسو تعاونه مع النازيين، وأنه عضو في الجستابو، فأطلقت عليه النار عام ١٩٤٣ وختمت حياته.

الفصل السادس

سيطرة اليهود على الإعلام ونفوذ اللوبي الصهيوني

تشير كلمة «لوبي»، بالمعنى المحدَّد والضيق للكلمة إلى جماعات الضغط التي تسجل نفسها رسمياً باعتبارها كذلك. ولكنها، بالمعنى العام، تشير إلى مجموعة من المنظمات والهيئات وجماعات المصالح والاتجاهات السياسية التي قد لا تكون مسجلة بشكل رسمي، ولكنها تمارس الضغط على الحكام وصناع القرار.

واللوبي الصهيوني بالمعنى العام لا يتكون من عناصر يهودية وحسب وإنما يضم عناصر غير يهودية أيضاً، وهو يضم كل أصحاب المصالح الاقتصادية وأصحاب الرؤى الاستراتيجية الذين يرون أن تفتيت العالم العربي والإسلامي يخدم مصالحهم، وأعضاء النخبة السياسية والعسكرية ممن يتبنون وجهة نظرهم. كما يضم اللوبي الصهيوني كثيراً من الليبراليين ممن كانوا يدعون إلى اتخاذ سياسة ردع نشطة ضد الاتحاد السوفيتي (سابقاً)، وكثيراً من المحافظين الذين يرون في إسرائيل قاعدة للحضارة الغربية وقاعدة لمصالحها، كما يضم جماعات الأصوليين (الحَرْفيين) ممن يرون في دولة إسرائيل إحدى بشائر الخلاص. ولا يُوظِّف اللوبي اليهودي الصهيوني العناصر اليهودية والصهيونية وحسب، وإنما يُوظِّف عناصر ليست يهودية ولا صهيونية (بل وقد تكون معادية لليهود واليهودية) ولكنها مع هذا تُوظِّف نفسها دفاعاً عنه وعن مصالحه، بسبب الدور الذي تؤديه الدولة الصهيونية في الشرق الأوسط وبسبب تلاقي المصالح الإستراتيجية الغربية والصهيونية.

وقد أصبح الحديث عن سيطرة اليهود على الإعلام وعن نفوذ اللوبي

الصهيوني (المتغلغل تماماً في مؤسسات صنع القرار في الغرب) من ثوابت الخطاب السياسي والإعلامي العربي، بل وأصبح أسطورة أساسية فيه، لا تختلف كثيراً عن الإيمان **بالبروتوكولات**، فاللوبي، مثل **البرتوكولات** يفسِّر كل شيء بأن ينسب لليهود قوة خارقة مكَّنتهم من الهيمنة الكاملة على الولايات المتحدة والعالم الغربي! ولا توجد سوى قلة قليلة من المحللين السياسيين والإعلاميين ممن لا يقبلون هذه المقولة التي سنحاول اختبار مقدرتها التفسيرية في هذا الفصل.

تلاقي المصالح الاستراتيجية بين العالم الغربي والدولة الصهيونية

يُعَدُّ اللوبي اليهودي والصهيوني (بالمعنى الشائع) أداة ضغط فعالة في يد من يمثلون مصالح الدولة الإسرائيلية. ولا يستطيع أي دارس أن ينكر قوة اللوبي الذاتية التي يمكن تلخيص مصادرها فيما يلي:

١ - يستند اللوبي اليهودي والصهيوني إلى قاعدة واسعة من الناخبين من أعضاء الجماعة اليهودية.

٢ - توجد بين هؤلاء الناخبين نسبة عالية من الأثرياء يُقدَّر أنهم يتبرعون بأكثر من نصف مجموع الهبات الكبرى للحملة الانتخابية للحزب الديموقراطي، إضافة إلى مبالغ ضخمة لحملات الحزب الجمهوري.

٣ - ازدادت أهمية هؤلاء الناخبين بعد الزيادة الهائلة في كلفة الحملات الانتخابية.

٤ - من أسباب قوة اللوبي اليهودي والصهيوني ارتفاع المستوى التعليمي لأعضاء الجماعات اليهودية.

٥ - يوجد عدد كبير من المثقفين الأمريكيين اليهود الذين أصبحوا جزءاً عضوياً من النخبة الحاكمة، فهم أبناء حقيقيون للمجتمع الأمريكي لا يعيشون على هامشه أو "في مسامه" وإنما في صلبه، وهو ما يجعلهم قادرين على ممارسة الضغط والتأثير بشكل مباشر.

٦ - الجماعة اليهودية جماعة منظمة لدرجة كبيرة، وهذا يجعلها قادرة على مضاعفة قوتها وزيادة نفوذها لدرجة لا تتناسب مع أعداد أعضائها.

٧ـ ساعد نظام الانتخابات في الولايات المتحدة على أن يلعب اليهود دوراً ملحوظاً في الانتخابات بسبب تركُّزهم في بعض أهم الولايات التي تقرر مصير الانتخابات الأمريكية (نيويورك ـ كاليفورنيا ـ فلوريدا).

٨ـ لا يهتم الناخب الأمريكي كثيراً بقضايا السياسة الخارجية ولا يفهمها كثيراً، ولذا فإن أقلية مثل الجماعة اليهودية عندها هذا الاهتمام بإسرائيل وسياسة الولايات المتحدة تجاهها يمكنها أن تمارس نفوذاً قوياً في تحديد السياسة الخارجية الأمريكية.

والافتراض الكامن في كثير من الأدبيات العربية أن اللوبي اليهودي الصهيوني (بالمعنى الشائع) هو الذي يؤثر في صناع القرار الأمريكي، بل ويرى البعض أنه يسيطر سيطرة تامة على مراكز صنع السياسة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط، وأنه يدفع هذه السياسة في اتجاه التناقض مع المصالح القومية الأمريكية الحقيقية بما يخدم مصلحة الدولة الصهيونية (وينسب البعض للوبي مقدرات بروتوكولية رهيبة). وهذا يعني بطبيعة الحال أن اللوبي الصهيوني هو لوبي يهودي وأن اليهود يشكلون قوة سياسية وكتلة اقتصادية موحدة خاضعة بشكل شبه كامل للسيطرة الصهيونية ويتحركون وفق توجيهاتها، وأن بإمكان أقلية قوامها ٤ ,٢٪ من السكان وآخذة في التناقص أن تتحكَّم في سياسة إمبراطورية عظمى مثل الولايات المتحدة.

كما يفترض المفهوم أن العلاقة بين إسرائيل والولايات المتحدة علاقة عارضة متغيرة وليست إستراتيجية مستقرة، وأن تأييد الولايات المتحدة لإسرائيل ناجم عن عملية ضغط عليها "من الخارج" تقوم به قوة مستقلة لها آلياتها المستقلة وحركياتها الذاتية ومصلحتها الخاصة، وليس نابعاً من مصالح الولايات المتحدة أو من إدراكها لهذه المصالح.

ويستند إدراك كثير من المنادين بمقولة قوة اللوبي الصهيوني إلى مجموعة من المقدمات المنطقية المعقولة والتي تكاد تكون بدهية، ومن وجهة نظرهم. فنحن إذا حكَّمنا العقل ودرسنا الواقع بشكل موضوعي لتوصلنا إلى أنه ليس من صالح الولايات المتحدة الأمريكية أن تدخل في معركة مع الشعب العربي، بل ومن

صالحها أن تتعاون معه في كل المجالات الممكنة، لأن مثل هذا التعاون سيؤدي إلى استقرار المنطقة العربية وسيعود على الولايات المتحدة بالفائدة. فالعالم العربي يشغل موقعاً إستراتيجياً مهماً، فهو يقع في وسط أفريقيا وآسيا، وله امتداد حضاري وسكاني في كليهما، وهو شريك أوربا في حوض البحر الأبيض المتوسط، ويشكل نواة العالم الإسلامي. ولذا فمن صالح الولايات المتحدة أن تكون علاقاتها جيدة مع شعب يشغل مثل هذا الموقع الإستراتيجي، وألا يزاحمها أحد في مثل هذه المكانة. علاوة على هذا، يضم العالم العربي نسبة ضخمة من بترول العالم ومن مخزونه الإستراتيجي المعروف، وهذا البترول ـ كما هو معروف ـ أمر حيوي بالنسبة للمنظومة الصناعية في الغرب. كما أن الأسواق العربية من أهم الأسواق من منظور تسويق السلع وكذلك استثمار رأس المال. والعلاقة الطيبة بين الدول العربية والولايات المتحدة ستؤدي حتماً إلى تحسين صورتها لا في العالم العربي وحسب، بل في العالم الثالث بأسره.

ولكن الولايات المتحدة، هذا البلد العقلاني الذي تحكمه معايير عملية عقلانية مادية باردة، لا تسلك حسب هذه المعايير المعقولة البديهية، فهي تتمادى في تأييد إسرائيل وتقف وراءها بكل قوة وتستجلب على نفسها عداء العرب. مثل هذا الوضع شاذ وغير عقلاني لا يمكن تفسيره إلا بافتراض وجود قوة خارجية، ذات مقدرة ضخمة، قادرة على أن تضغط على الولايات المتحدة بحيث تتصرف، لا بحسب ما تمليه عليها مصالحها الموضوعية، وإنما حسبما تمليه عليها مصالح هذه القوة، أي المصالح اليهودية والصهيونية والإسرائيلية التي يمثلها اللوبي اليهودي والصهيوني (بالمعنى الشائع).

ولكن ما لم يطرأ لمثل هؤلاء على بال أن من المحتمل أن الولايات المتحدة لا تدرك "مصالحها" بهذه الطريقة التي يتصورون أنها عقلانية بل لعلها ترى أن "عدم الاستقرار أو عدم الاستقرار المحكوم" (بالإنجليزية: كونترولد إنستابيليتي Controlled instability) أفضل وضع بالنسبة لها، وأن وضع التجزئة العربية هو ما يخدم "مصالحها"، وأن إسرائيل هي أداتها في خلق حالة عدم الاستقرار المحكوم هذه، والخادم الحقيقي "لمصالحها".

ومفهوم «المصلحة الإستراتيجية» ليس مفهوماً بسيطاً أو عقلانياً. ومما لا شك فيه أن عملية اتخاذ القرار السياسي في العالم الغربي مركبة لأقصى حد، فهي تتم من خلال مؤسسات يديرها علماء متخصصون (تكنوقراط) بطريقة "رشيدة"، بمعنى أنها تتبع إجراءات معروفة ومحددة لا تخضع للأهواء الشخصية، ولذا لا يُتخذ القرار إلا بعد توفير المعلومات اللازمة وإشراك المستشارين والمتخصصين. ثم بعد ذلك تتم عملية موازنات صعبة ودقيقة بشأن حساب المكسب والخسارة وجدوى القرار وقوة العدو ونقط ضعفه. وعلى سبيل المثال، حينما قرَّر كيسنجر التخلص من حكم الليندي في تشيلي الذي كان قد وصل إلى سدة الحكم من خلال انتخابات نزيهة، وأحل محله حكماً عسكرياً شرساً. وحينما قررت الولايات المتحدة دعم الكونترا وهو ما يعني التدخل في الشئون الداخلية لنيكاراجوا وإثارة حفيظة دول أمريكا اللاتينية التي كانت تعلم تماماً أن نظام الساندنيستا ليس نظاماً شيوعياً كما تزعم الولايات المتحدة وإنما نظام وطني ينحو منحى يسارياً. نقول، حينما قررت الولايات المتحدة أن تفعل ذلك، فإنها كانت مدركة تماماً أن ثمة خسارة ما ولكن حساب المكسب والخسارة كان واضحاً، فالعائد السياسي (القضاء على نظم قومية تحاول أن تحرز نمواً اقتصادياً خارج نطاق المنظومة الرأسمالية والهيمنة الأمريكية والغربية) كان أعلى كثيراً من العادم (تدعيم صورة اليانكي القبيح المستغل وترسيخها في الوجدان اللاتيني). والشيء نفسه ينطبق على قرار غزو بنما والقضاء على عميل مهم للولايات المتحدة، فنروييجا كان مخلوق أمريكا القبيح. وحينما أرسلت الولايات المتحدة قوتها للقيام بعملية الغزو فإنها كانت مدركة أن العائد الاجتماعي السياسي (القضاء على واحد من أهم مصادر المخدرات، وبالتالي حل مشكلة المخدرات التي تهدد نسيج المجتمع الأمريكي وأمنه القومي ودعم صورة المؤسسة الحاكمة أمام جماهيرها، على أنها مؤسسة جادة في عملية محاربة المخدرات) كان أعلى كثيراً في تصوُّرها من العادم (تدخُّل قوة عظمى في شئون دولة صغيرة والقضاء على عميل نافع مفيد).

ولكن، إذا كان التكنوقراط يتخذون القرار حسب إجراءات موضوعية ومعايير محسوبة تضمن توظيف الوسائل على أحسن وجه في خدمة الأهداف، فإن

الأهداف الإستراتيجية نفسها لا تحددها اللجان التكنوقراطية، فهذه العملية تتم على أعلى المستويات وتصبح جزءاً من العقد الاجتماعي الذي يستند إليه المجتمع ككل، كما أن تغيير هذه الأهداف لايتم إلا بثورة اجتماعية شاملة. وحساب المكسب والخسارة والعائد والعادم يتم في إطار مايُسمَّى «مصلحة الدولة العليا». وهذه المصلحة ليست قضية بسيطة يمكن تحديدها موضوعياً ورياضياً وبشكل إجرائي غير شخصي، فرؤية أعضاء النخبة الحاكمة لمصالحهم، والمصالح الفعلية التي يحاولون الحفاظ عليها، والإطار الرمزي الذي يدركون من خلاله هذه المصالح، والعقيدة السياسية والدينية التي تستند إليها شرعية النخبة، تساهم كلها، بشكل أو بآخر، في تحديد «مصلحة الدولة العليا»، فما يرى أعضاء النخبة أنه مصلحة الدولة العليا قد يكون مصلحتهم هم كجماعة أو طبقة ولا يمثل بالضرورة صالح الدولة ككل أو صالح أغلبية أعضاء المجتمع. وما قد يكون رشيداً من وجهة نظر إنسانية عامة قد لا يكون رشيداً من وجهة نظر أصحاب القرار.

وما نود تأكيده هنا أن سلوك دولة عظمى مثل الولايات المتحدة ليس مسألة تتم حسب قواعد رشيدة بسيطة، وإنما هو نتيجة عملية مركبة تدخل فيها عناصر "ذاتية" وعقائدية ومادية وغير مادية، قد لا تنضوي بالضرورة داخل إطار الرشد كما نتخيله (وهنا يأتي دور الصور الذهنية وعالم الرموز والتراث المسيحي اليهودي والذاكرة التاريخية... إلخ). وإن لم يكن الأمر على هذا النحو، فكيف نفسِّر دخول الولايات المتحدة حرباً ضروساً في فيتنام (بعد هزيمة فرنسا فيها)، وتورطها في هذه الحرب لعشرات السنين، وإنفاقها بلايين الدولارات وإهدارها دماء عشرات الألوف من الأمريكيين والفيتناميين، في حرب كان يعرف الجميع أنها خاسرة، واعترف بذلك ـ فيما بعد ـ مهندس الحرب الحقيقي روبرت ماكنمارا؟ ولماذا لم تخرج هذه الدولة العقلانية من الحرب إلا بعد تصاعُد المظاهرات في الولايات المتحدة لما يزيد على عشرة أعوام؟

وأعتقد أن الغرب قد عرَّف مصلحته الإستراتيجية منذ بداية القرن التاسع عشر بطريقة تجعله ينظر للمنطقة العربية باعتبارها مصدراً هائلاً للمواد الخام (الرخيصة)

ومجالاً خصباً للاستثمارات الهائلة (التي تعود عليه وحده بالربح) وسوقاً عظيمة لسلعه (التي ينتجها ويصرفها فيزداد هو ثراءً)، أو قاعدة إستراتيجية شديدة الخطورة والأهمية (بالنسبة لأمنه هو) إن لم يتحكم فيها قامت قوى معادية (مثل الاتحاد السوفيتي في الماضي) باستخدامها ضده، ويعبِّر هذا الموقف عن نفسه في مصطلح مثل «الفراغ» الذي كثيراً ما يُستخدَم للإشارة إلى شرقنا العربي وكأن وطننا رقعة أرض أو مساحة لا يقطنها شعب عريق له امتداده الحضاري، وكأن أوطاننا هي وجود جغرافي رحب مجرد من التاريخ، أي أننا في الإدراك الغربي مجرد شيء قد يصلح للاستخدام أو الاستعمال.

وحتى حينما نتحول إلى أكثر من مجرد مساحة، فإن الإدراك الغربي للمنطقة (وهو إدراك تحدده مصلحته كما يراها هو أو كما تراها نخبته الحاكمة ومؤسسات صنع القرار فيه) يرى وطننا العربي على أنه منطقة مأهولة بشعوب وقبائل وأقليات معظمها يتحدث العربية وتدين بديانات مختلفة لا يربطها رابط حضاري أو اجتماعي واحد لكلٍّ مصلحته الاقتصادية ومستقبله السياسي المستقل (وتفتُّتها يُسهِّل عملية تحويلها إلى مادة استعمالية) وتكمن مصلحة الغرب (كتشكيل حضاري نهم يود استغلال الشرق والاستثمار فيه بما يعود عليه هو بالربح وبتوجيهه لما يخدم أمنه) في الحفاظ على عدم الترابط الحضاري أو الاجتماعي في عالمنا العربي. وهذه هي مصلحة الغرب كما يدركها أهله، وهذا هو الإطار الذي يتم اتخاذ القرار من خلاله.

والمفهوم الصهيوني لعالمنا العربي يتفق تمام الاتفاق مع المفهوم الغربي، فالصهاينة يشيرون إلى فلسطين باعتبارها «أرضاً بلا شعب»، وإلى الضفة الغربية باعتبارها «يهودا والسامرة»، وهي مصطلحات تلغي التاريخ العربي تماماً. وهم يشيرون إلي الشرق الأوسط على أنه «المنطقة» وهو اصطلاح يشبه في كثير من الوجوه اصطلاح «الفراغ»، فكلاهما يؤكد فكرة أن عالمنا العربي مكان بلا زمان، وجغرافيا بلا تاريخ، أو مساحة تسكنها شعوب عديدة متفرقة متناثرة، والصهيونية في نهاية الأمر وليدة التراث الفكري الاستعماري الغربي في القرنين التاسع عشر

والعشرين، وهي أداته في المنطقة، وقد بدأ الاهتمام الغربي بالصهيونية كفكر
القرن السابع عشر، ولكن الاهتمام الفكري تحوَّل إلى فكر سياسي ثم إلى خ
سياسي ثم إلى مُخطَّط استعماري ثابت بعد ظهور محمد علي الذي كان
المصالح الغربية لأنه كان قادراً على ملء «الفراغ» في المنطقة إما عن طريق
نفسه على أنه القوة الجديدة، أو عن طريق إدخال العافية على رجل أوربا المري
ومن هنا كانت فكرة الدولة الصهيونية التي وُلدت داخل الخطاب السياسي الغر
ومن هنا الدعم الغربي الحاسم للمشروع الصهيوني، أداة الغرب في خَلْق ال
والحفاظ عليه كوسيلة للدفاع عن أمن الغرب لا عن أهل المنطقة، وعن مص
الغرب لا مصالح العرب. ولا يمكن إنكار دور الصهاينة في ترسيخ هذا الإ
الغربي للشرق الأوسط، ولكن تظل العلاقة بين الصهيونية والتشكيل الاستعم
الغربي تدور في إطار المصالح الإستراتيجية الثابتة التي تشكلت داخل الحض
الغربية قبل ظهور الجماعات اليهودية كقوة سياسية فاعلة في الغرب.

هذا هو السر الحقيقي للنجاح الصهيوني في الغرب، فهو لا يعود إلى س
اليهود على الإعلام، أو لباقة المتحدثين الصهاينة، أو إلى مقدرتهم العالية
الإقناع والإتيان بالحجج والبراهين، أو إلى ثراء اليهود وسيطرتهم المزعومة
التجارة والصناعة، وإنما يعود إلى أن صهيون الجديدة جزء من التش
الاستعماري الغربي، وإلى أنه لا يمكن الحديث عن مصالح يهودية وصهيونية م
مصالح غربية، وإلى أن الإعلام واللوبي الصهيونيين يمثلان أداة الغرب الرخيص
دولة وظيفية عميلة للولايات المتحدة تؤدي كل مايوكل إليها من مهام بنج
وتنصاع تماماً للأوامر، ولا توجد سوى مناطق اختلاف صغيرة بينها وبين الولا
المتحدة (لا تختلف كثيراً عن الاختلافات التي تنشأ بين الدولة الإمبريالية
والجيوب الاستيطانية التابعة لها، كما حدث بين فرنسا والمستوطنين الفرنسيين
الجزائر، وبين إنجلترا من جهة والمستوطنين الإنجليز في روديسيا والمستو
الصهاينة في فلسطين من جهة أخرى). وتنصرف هذه الاختلافات أساساً
الأسلوب والإجراءات لا إلى الأهداف النهائية، اختلافات يمكن حسمها عن ط
الإقناع والضغط كما يحدث عندما تطلب السعودية صفقة أسلحة ولا تر

إسرائيل عن ذلك، أو عندما تريد إسرائيل توسيع رقعة استقلالها قليلاً عن طريق إنتاج سلاح مثل طائرة اللافي ولا ترضى المؤسسة العسكرية الصناعية الأمريكية عن ذلك. فالاختلاف ينصرف إلى التفاصيل لا إلى "المصلحة" وإدراكها، ومن هنا يمكن إدارة الحوار حسب قوانين اللعبة المتعارف عليها وتتم ممارسة الضغط داخل إطار من التفاهم بشأن المبادئ الأساسية ومن داخل النسق لا من خارجه.

إن قوة الحركة الصهيونية تنبع من أنها تخدم المصالح الأمريكية لا لأنها تقف ضدها. وهكذا يجب أن نفهم سر سطوة الإعلام الصهيوني وسر نفوذ اللوبي، وقد جاء في مقال في **الواشنطن بوست** بقلم ريتشارد شتراوس (٢٧ أبريل ١٩٨٦) أن السوبر لوبي الصهيوني الجديد في واشنطن هو ريجان - إلى درجة أن اللوبي الصهيوني الآن يجلس لا يفعل شيئاً. بل إن معاداة العرب أصبحت لها حركية مستقلة عن اللوبي الصهيوني حتى أنه تنشأ الآن مواقف جديدة تماماً، ففي إحدى صفقات الأسلحة السعودية تصاعدت المعارضة في مجلس الشيوخ ومجلس النواب للصفقة على الرغم من أن اللوبي الصهيوني كان قد قرر عدم التصدي لها بالاتفاق مع المؤسسة الحاكمة. وكما قال ريجان "إسرائيل تحمي آبار البترول ومصالحنا في المنطقة".

ولعل ما ورد في مقال ليندا فيلمان "جنود كسر العظام يحطمون الصلة مع يهود العالم" في الكريستيان سانيس مونيتور (نُشرت في **الوطن** ١٧ مارس ١٩٨٨) يبيِّن أن مصلحة الولايات المتحدة في نهاية الأمر هي اللوبي الحقيقي إذ تشير كاتبة المقال "للدور المحتمل لليهود الأمريكيين بما يتمتعون به من مهارات وقوة ضغط هائلة في دفع عملية السلام". ولكنها تشير إلى محللين آخرين يشكُّون في أن يشكل اليهود الأمريكيون عاملاً حاسماً في عملية السلام وفي الضغط على إسرائيل، إذ إنه بسبب تحركات إسبانيا واليونان لإغلاق القواعد الأمريكية بالإضافة إلى سقوط شاه إيران، تعاظمت الأهمية الإستراتيجية لإسرائيل بالنسبة للولايات المتحدة «وهذا العنصر الأخير» سيقلِّل من أهمية رأي اليهود الأمريكيين في صياغة الاتجاه السياسي، أي أن مصلحة الولايات المتحدة لااللوبي الصهيوني ولا القرار

الإسرائيلي هو الذي يحدد القرار الأمريكي في نهاية الأمر. وهذا أمر طبيعي ومنطقي بالنسبة لدولة عظمى مثل الولايات المتحدة لها مصالح إستراتيجية في كل أنحاء العالم، ولا يمكن لها أن تخضع لضغوط هذه الأقلية أو تلك. وهاهي لحظة زمنية تتخذ فيها الجماعة اليهودية الأمريكية موقفاً غير متفق تماماً مع موقف الدولة الصهيونية والجماعة اليهودية مشغولة بصورتها الإعلامية وبوضع أعضائها اليهود داخل المجتمع الأمريكي الديمقراطي، وأسلوب إسرائيل في هذا السياق يسبِّب لها كثيراً من الحرج، أما الدولة الصهيونية فلا تكترث كثيراً بذلك إذ إنها مشغولة بالدفاع عن مصالحها وبقائها عن طريق العنف والبطش وضرب حقوق الإنسان. والجماعة اليهودية الأمريكية في هذا أشبه بالجماعة اليهودية في إنجلترا عند صدور وعد بلفور. فالجماعة اليهودية كانت قد تبنت المُثُل الليبرالية الاندماجية المعادية للصهيونية وكانت تكمن مصلحتها في تأكيد انتمائها للمجتمع الإنجليزي، ولذا كانت تمارس الضغط ضد إصدار وعد بلفور الذي كانت ترى أنه سيعرِّض وضعها ومكانتها داخل المجتمع الإنجليزي للخطر. ولكن المصالح الإمبريالية تجاوزت رأي أعضاء الجماعة اليهودية فنصحت الحكومة الإنجليزية قيادات هذه الجماعة بالامتناع عن توجيه النقد، وصدر الوعد رغم أنفهم لابسببهم. وها نحن نجد نفس الوضع بالنسبة ليهود أمريكا إن اتفقت مصلحتهم مع مصالح الإمبريالية فإن مقدرتهم على الضغط تصبح هائلة، وإن اختلفت مصلحتهم عن المصالح الإمبريالية فإنهم يصبحون غير مؤثرين.

ويجب ألا يثير هذا الوضع دهشتنا فتاريخ الحركة الصهيونية ليس جزءاً من «تاريخ يهودي عالمي وهمي» ولا هو جزء من التوراة والتلمود (رغم استخدام الديباجات التوراتية والتلمودية) وإنما هو جزء من تاريخ الإمبريالية الغربية فهي الحل الاستعماري للمسألة اليهودية (كما بيَّنا من قبل). ولذا فالصهيونية لم تظهر بين يهود اليمن أو الهند أو المغرب وإنما ظهرت بين يهود العالم الغربي، وهي لم تظهر في العصور الوسطى، على سبيل المثال، وإنما في أواخر القرن السابع عشر مع ظهور التشكيل الاستعماري الغربي وبدايات استيطان الإنسان الغربي في العالم الجديد وفي بعض المدن الساحلية في أفريقيا وآسيا. وقد ظهرت في بداية الأمر بين

مفكرين استعماريين غير يهود ثم تبناها بعض المثقفين اليهود من شرق أوربا ووسطها.

ويدرك الساسة الإسرائيليون هذه الحقائق إدراكاً كاملاً، ولذا فهم لا يكفون عن الحديث عن أهمية إسرائيل كقاعدة عسكرية وحضارية وأمنية للغرب، وأنها، علاوة على ذلك، قاعدة رخيصة، أرخص بكثير من ١٠ حاملات طائرات تبلغ تكاليفها ٥٠ بليون دولار، كانت الولايات المتحدة ستضطر لبنائها وإرسالها للبحر الأبيض المتوسط وللبحر الأحمر لحماية "المصالح" الأمريكية. إن إسرائيل بالنسبة للولايات المتحدة "كنز إستراتيجي" (أو دولة وظيفية في مُصطلَحنا)، وهذا ما يؤكده المتحدثون الإسرائيليون في واشنطن، قبل الدخول في أية مفاوضات. وقد جاء في إحدى إعلانات **النيويورك تايمز** (الذي مولته إحدى الهيئات الصهيونية) أنه إذا ما تهددت مصالح الولايات المتحدة في الشرق الأوسط فإن وضع قوة لها شأنها هناك يحتاج إلى "أشهر، أما مع إسرائيل كحليف فإنه لا يحتاج إلا بضعة أيام". إن هذه العبارة تتحدث عن إجراءات القمع والتأديب ضد العالم العربي وتبين مدى كفاءة الدولة الوظيفية في إنجاز مهمتها، ولا تتحدث عن نقطة الانطلاق ولا عن الأسباب الداعية للقمع والتأديب وهي أن مصلحة الغرب تتطلب مثل هذا القمع لأنها مسألة مستقرة مفروغ منها في الفكر الإستراتيجي الغربي.

اللوبي اليهودي والصهيوني: أوربا الغربية

نذهب إذن إلى أن "سر" نجاح اللوبي اليهودي والصهيوني هو أنه يدور في إطار المصالح الإستراتيجية الغربية وأنه يعرض دولته الصهيونية باعتبارها أداة، أي أن مصدر نجاحه لا يعود لقوته الذاتية أو لعناصر كامنة فيه، وإنما بسبب اتفاق مصلحته مع مصلحة الغرب الإستراتيجية. والنموذج السائد في الخطاب التحليلي العربي (الرسمي والشعبي) هو عكس هذا، فهو يفترض أن نجاح الصهاينة يعود لقوتهم الذاتية ومن ثَمَّ يُفسَّر تزايُد الدعم الغربي لإسرائيل على أساس تعاظُم النفوذ اليهودي والصهيوني، فإن زاد الثاني زاد الأول. ولاختبار هذه الأطروحة الشائعة،

ولتوضيح ضعف مقدرتها التفسيرية، سنورد بعض الشواهد والقرائن التاريخية والحديثة:

١ ـ أشرنا من قبل إلى أن أول من دعى لإنشاء دولة يهودية في فلسطين في العصر الحديث هو نابليون بونابرت، وهو أيضاً أول غاز غربي للشرق العربي في العصر الحديث. ومما يجدر ذكره أن نابليون كان معادياً لليهود، كما يدل على ذلك سجله في فرنسا. ولايمكن الحديث عن وجود لوبي يهودي أو صهيوني قوي أو ضعيف حين أطلق نابليون دعوته، فقد كانت نابعة من إدراكه لمصالح فرنسا الإستراتيجية.

٢ ـ هناك حشد هائل من الساسة البريطانيين (بالمرستون ـ شافتسبري ـ أوليفانت ـ بسمارك ـ لويد جورج ـ بلفور) دعوا لإقامة دولة يهودية في فلسطين، إما قبل ظهور الحركة الصهيونية بين اليهود أو في غياب لوبي يهودي أو صهيوني. ومما يجدر ذكره أن كل هؤلاء الساسة ـ كما أسلفنا ـ كانوا ممن يكرهون اليهود، وبخاصة بلفور، ولكنهم جميعاً وجدوا أن ثمة فائدة إستراتيجية تعود على إنجلترا لو أسِّست دولة صهيونية.

٣ ـ لا شك في أن صدور وعد بلفور هو أهم حدث في تاريخ الصهيونية ودراسة الظروف المحيطة بصدوره. ولذا فهو يزودنا بلحظة نادرة لاختبار نموذج الضغط اليهودي والصهيوني. ولإنجاز هذا سنعقد مقارنة بين "قوة" الجماعتين اليهوديتين في ألمانيا وإنجلترا من منظور مقدرتهما على الضغط:

(أ) فمن المعروف أن الوجود اليهودي في ألمانيا قبل الحرب العالمية الأولى كان قوياً للغاية، وكان اليهود يشغلون مناصب حكومية مهمة، ويوجدون في مواقع اقتصادية ذات طبيعة إستراتيجية، فكان أهم ثلاثة بنوك يملكها بعض أعضاء الجماعة اليهودية في ألمانيا، كما كانوا متغلغلين في الإعلام وقيادات الأحزاب السياسية، وكان منهم كثير من المؤلفين والفنانين. وقد حققوا معدلات عالية للغاية من الاندماج، وهو ما يسَّر لهم عملية التحرك داخل المجتمع الألماني، كما أن اليهود الألمان اشتركوا بأعداد كبيرة في الحرب تفوق نسبتهم القومية.

والحركة الصهيونية حتى ذلك الوقت كانت حركة ألمانية في توجهها الثقافي، فكانت لغة المؤتمرات الصهيونية هي الألمانية، كما كانت برلين مقر المنظمة الصهيونية العالمية. وكان الصهاينة على أتم استعداد لأن يجعلوا مشروعهم الصهيوني جزءاً من المشروع الألماني الاستعماري.

(ب) مقابل هذا كانت توجد في إنجلترا جماعة يهودية صغيرة للغاية ليست لها القوة المالية أو الثقافية للجماعة اليهودية في ألمانيا، وكانت جماعة مندمجة تماماً ومعادية للصهيونية (كان وايزمان والقيادات الصهيونية من شرق أوربا).

مع هذا نجح الصهاينة في إنجلترا في استصدار وعد بلفور، رغم ضعفهم وعزلتهم، بينما فشل صهاينة ألمانيا في ذلك رغم قوتهم وارتباطهم بالمجتمع. ولا يمكن العودة إلى **البروتوكولات** أو اللوبي الصهيوني وما شابه من نماذج تفسيرية. وإنما علينا أن نعود إلى المصالح الإستراتيجية الإمبريالية الإنجليزية مقابل المصالح الإستراتيجية الإمبريالية الألمانية. أما الإمبريالية الألمانية فكانت متحالفة مع الدولة العثمانية، ولذا لم يكن هناك مجال لإعطاء أي وعود للصهاينة على حساب هذه الدولة. لكن الوضع كان مختلفاً بالنسبة للإمبريالية الإنجليزية فقد ظل التحالف قائماً بينها وبين الدولة العثمانية حتى اندلاع الحرب، ولذا حينما صدر أول وعد بلفوري إنجليزي وهو الخاص بمشروع شرق أفريقيا فقد كان وعداً بقطعة أرض **خارج** الدولة العثمانية. ولكن بعد أن قررت الإمبريالية الإنجليزية تقسيم الدولة العثمانية أصبح من الممكن إصدار وعد بلفور لمجموعة من الصهاينة ليسوا من الإنجليز. وكان على الموجودين في إنجلترا أن يقطعوا علاقتهم مع المنظمة الخاضعة لنفوذ ألمانيا آنذاك، وكان الوعد هذه المرة وعداً بقطعة أرض **داخل** الدولة العثمانية. إن وعد بلفور والدعم البريطاني للمشروع الصهيوني لا علاقة له بأي لوبي يهودي أو صهيوني قوي أو ضعيف.

٤ - إذا نظرنا إلى سياسة كل من إنجلترا وفرنسا في الوقت الحالي تجاه الشرق الأوسط لوجدنا أنها تتفق مع السياسة الأمريكية والتوجه الإستراتيجي الغربي بشكل عام مع اختلافات طفيفة. ويستطيع الباحث المدقق أن يجد أن سياسة

إنجلترا أكثر اقتراباً من السياسة الأمريكية وأكثر دعماً لإسرائيل، وأن السياسة الفرنسية أكثر ابتعاداً وربما اعتدالاً (من وجهة نظر عربية). ولو حاول تفسير هذا الاختلاف على أساس النفوذ الصهيوني لباءت محاولته بالفشل:

(أ) فالجماعة اليهودية في إنجلترا ضعيفة لأقصى حد من الناحية الكمية، أما من الناحية الكيفية فهي من أكثر الجماعات اندماجاً وهي آخذة في التناقص (إن لم يكن أيضاً الاختفاء). وعند وقوع مذبحة صبرا وشاتيلا لم يجد التليفزيون البريطاني مفكراً بريطانياً يهودياً واحداً يدافع عن الموقف الصهيوني، فاضطروا إلى إحضار نورمان بودوريتس رئيس مجلة **كومنتاري** من الولايات المتحدة لتقديم وجهة النظر الصهيونية.

(ب) أما في فرنسا فتوجد جماعة يهودية يبلغ تعدادها ٧٠٠ ألف، وهي جماعة اكتسبت لوناً يهودياً قوياً نوعاً ما بعد هجرة يهود المغرب العربي، وهي جماعة ذات نفوذ قوي في الإعلام وغيره.

وأعتقد أنه لتفسير موقف كلا البلدين يجب ألا نعود إلى قوة أو ضعف الجماعة اليهودية في كلٍّ منهما وإنما إلى موقف كليهما من التحالف الغربي وإلى رؤية كل منهما له. فإنجلترا أكثر ارتباطاً بالولايات المتحدة من فرنسا داخل هذا التحالف، بينما تحاول فرنسا أن تحافظ على مساحة من الاستقلال الأوربي لا تهتم بها إنجلترا بالدرجة نفسها، ولعل هذا هو مصدر اختلاف سياسة البلدين تجاه قضية الشرق الأوسط.

٥ - وإذا نظرنا إلى دول مثل هولندا وبلجيكا فلا يمكن تفسير تأييدها لإسرائيل استناداً إلى مقولة اللوبي اليهودي الصهيوني، فالوجود اليهودي في كثير من هذه البلدان يكاد يكون منعدماً.

اللوبي اليهودي والصهيوني: الولايات المتحدة الأمريكية

يمكن القول بأن كل الأمثلة التي وردت من قبل مستمدة من تاريخ إنجلترا أو فرنسا أو الاتحاد السوفيتي وأن الولايات المتحدة حالة مختلفة تماماً وأن النفوذ

الصهيوني مُسيطر عليها بشكل لم يحدث من قبل أو بعد. ولذا فلنحاول اختبار نموذجنا التفسيري الأساسي: إن المصالح الإستراتيجية/ الغربية (الأمريكية في هذه الحالة) هي التي تحدد القرار الأمريكي، وأن الضغوط الصهيونية ـ من خلال اللوبي أو الإعلام ـ ذات أهمية ثانوية، فهي قد تُؤخر القرار قليلاً، وقد تُعدل شكله ولكنها لا تُحدِّده أو تُعدِّل اتجاهه الأساسي. ويمكننا أن نذكر الأحداث المهمة التالية للتدليل على مقولتنا:

١ ـ هناك عدد كبير من رؤساء الجمهورية في الولايات المتحدة ممن دعوا لإنشاء دولة يهودية في فلسطين، حتى قبل أن توجد جماعة يهودية ذات وزن من الناحية العددية والنوعية في أمريكا الشمالية. ويمكن أن نذكر ـ في هذا المضمار ـ الرئيس جاكسون (والذي كان قد لعب دوراً أساسياً في عملية الإجهاز على البقية الباقية من السكان الأصليين في الولايات المتحدة الأمريكية).

٢ ـ المؤسِّس الحقيقي للوبي الصهيوني في الولايات المتحدة (بالمعنى العام غير الشائع الذي نطرحه) هو وليام بلاكستون (١٨٤١ ـ ١٩٣٥) الصهيوني غير اليهودي، الذي أرسل عام ١٨٩١ التماساً إلى الرئيس الأمريكي هاريسون يحثه فيه على "إعادة" فلسطين لليهود. وقد وقَّع على هذا الالتماس عدد من الشخصيات المسيحية واليهودية. ولكن كانت هناك معارضة يهودية قوية لمثل هذه الاتجاهات الصهيونية، إما من منظور ديني أو منظور اندماجي. وقد تصاعدت الاتجاهات الصهيونية (الاستعمارية الغربية غير اليهودية) بين أعضاء النخبة الحاكمة الأمريكية (البروتستانتية) مع تزايُد اهتمام الولايات المتحدة بالشرق الأوسط. فأيَّدت الولايات المتحدة وعد بلفور، وحنث الرئيس ولسون بوعوده الخاصة بحق تقرير المصير، لا رضوخاً لأي ضغط صهيوني أو يهودي وإنما لأنه رأى أن مصير الشرق الأوسط لا يمكن أن يُصاغ دون أن يكون للولايات المتحدة دخل فيه، ووجد أن تأييده لوعد بلفور هو وسيلته لذلك. (وقد فعل ذلك رغم احتجاج عدد كبير من أعضاء الجماعة اليهودية).

٣ ـ كانت الأقلية اليهودية في الولايات المتحدة في منتصف القرن التاسع عشر أقلية

تؤمن باليهودية الإصلاحية التي تشجع الاندماج. وهذه الأقلية كانت تشكل نخبة ثرية مندمجة من أصل ألماني ولذا لم تكن متحمسة لهجرة يهود شرق أوربا الأرثوذكس السلاف «المتخلفين» المتحدثين باليديشية. ومع هذا اتُخذ القرار الأمريكي بفتح أبواب الولايات المتحدة لجميع المهاجرين لأن هذا ما كانت تتطلبه المصالح الأمريكية، وبالفعل هاجر الملايين من يهود شرق أوربا حتى أصبحوا يُشكِّلون غالبية يهود أمريكا.

٤ ـ في عام ١٩٢٤ قررت الولايات المتحدة أن تحد من عدد المهاجرين بسبب الأزمة الاقتصادية فأصدرت قانون النصاب عام ١٩٢٣، ثم قانون جونسون عام ١٩٢٤، فانخفض عدد المهاجرين اليهود انخفاضاً ملحوظاً (من ١١٩ ألفاً عام ١٩٢١، و٤٩ ألفاً عام ١٩٢٤ إلى ١٠ آلاف عام ١٩٢٥، و٢,٧٥٥ عام ١٩٣٢). وبعد أن كانت الولايات المتحدة تستوعب ٨٥٪ من المهاجرين اليهود أصبحت تستوعب ما يقل عن ٢٥٪ وأحياناً عن ١٠٪. ويجب أن نُذكِّر أنفسنا بأن القرارات الخاصة بالهجرة في الولايات المتحدة هي قرارات ذات طابع إستراتيجي، فالولايات المتحدة دولة استيطانية، وكانت حينذاك لا تزال في طور التشكيل، وتشكل المادة الاستيطانية الإنتاجية القتالية بالنسبة لها عنصراً إستراتيجياً، وبالتالي فالقرارات كانت تُتخذ في ضوء المصالح الأمريكية وحدها، وسواء سعد اليهود بهذا القرار أم ابتأسوا له فهذه مسألة ثانوية تماماً.

٥ ـ أثناء ما يمكن تسميته بالمرحلة النازية (١٩٣٣ ـ ١٩٤٨) رفضت الولايات المتحدة ومعظم بلاد أوربا فتح أبوابها للمهاجرين اليهود (رغم كل التباكي في الوقت الحالي على ضحايا الإبادة). ويُفسَّر هذا الوضع على أساس حالة الاقتصاد الأمريكي المتردية والخوف من تَسلُّل الجواسيس الألمان، بل إن القوات الأمريكية بقيادة أيزنهاور رفضت ضرب قضبان السكك الحديدية المؤدية لمعسكرات الإبادة لوقف عملية نقل اليهود إليها. ويُقال في تفسير هذا إن أيزنهاور قائد القوات الأمريكية كان لا يريد تبديد طاقته العسكرية في

هذا العمل الجانبي. ومهما كانت التفسيرات التي تُساق فإن القرار كان أمريكياً والمصالح كانت أمريكية.

٦ ـ حينما أُعلنت دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ اعترفت الولايات المتحدة بها فوراً، ولم يكن اللوبي الصهيوني قوياً أخطبوطياً بروتوكولياً بعد، حتى باعتراف أولئك الذين يروجون لأسطورة قوته وأخطبوطيته. كما أن اللوبي اليهودي المعادي للصهيونية كان لا يزال قوياً إذ كان يضم عدداً كبيراً من أثرياء اليهود المندمجين، وهو ما يعني أن مسارعة الولايات المتحدة بالاعتراف لا يمكن تفسيرها إلا على أساس المصالح الأمريكية وليس لها علاقة بالضغوط اليهودية أو الحملات الإعلامية.

٧ ـ حينما تحالفت إسرائيل مع إنجلترا وفرنسا عام ١٩٥٦ وشنت العدوان الثلاثي على مصر، دون موافقة الولايات المتحدة، عوقبت أشد العقاب، إذ إن الإستراتيجية الأمريكية حينذاك كانت أنْ تلعب الإمبريالية الأمريكية دوراً نشطاً في الشرق الأوسط وتحل محل الاستعمار التقليدي (الإنجليزي والفرنسي) وتملأ هي "الفراغ" الناجم عن انسحابهما منه. والدولة الصهيونية باشتراكها في هذه المغامرة وقفت ضد المخطط الأمريكي ولذا كان من الضروري تأديبها، ومن هنا موقف أيزنهاور "النزيه" و"العادل" و"المحايد".

٨ ـ لم تشن إسرائيل حرب عام ١٩٦٧ إلا بموافقة صريحة من الولايات المتحدة التي وجدت أن من صالحها تصفية حكم عبد الناصر آنذاك، وعلى كلٍّ ليس بإمكان إسرائيل أن تشن أي حرب أو تدخل أي مغامرة عسكرية إلا بموافقة الولايات المتحدة التي تمدها بالسلاح والدعم والمظلة الأمنية.

٩ ـ شاهدت الفترة من ١٩٦٧ ـ ١٩٧٤ تنامي العلاقة بين إسرائيل والولايات المتحدة وذلك قبل أنْ يُعاد تنظيم إيباك، وفي فترة حكم نيكسون الذي كان لا يكن حباً خاصاً لليهود.

١٠ ـ حينما حاولت إسرائيل أن تؤكد استقلالها النسبي في الآونة الأخيرة جاءتها الرسالة واضحة من واشنطن ألا تتجاوز حدودها:

(أ) وأولى المحاولات الإسرائيلية لتأكيد شيء من الاستقلال كان في حادثة جوناثان بولارد وهو موظف أمريكي يهودي تجسَّس على الولايات المتحدة لحساب إسرائيل، وكان رد المؤسسة الأمريكية الحاكمة حاسماً، إذ قُبض على بولارد وأُدخل السجن لمدة عشرين عاماً وأُجري تحقيق في إسرائيل لتحديد المسئولية، كما أن الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة ثارت ثائرتها ضد الدولة الصهيونية. وصرح جيكوب نيوزنر، أهم عالم تلمودي في العالم ومن زعماء يهود الولايات المتحدة، أن يهود أمريكا يؤمنون بأرض ميعاد واحدة هي الولايات المتحدة وأن عاصمتهم هي واشنطن وحسب. بل إن موظفاً مدنياً يهودياً يعمل في وزارة الخارجية الأمريكية منذ ٢٥ عاماً سُحب منه تصريحه الأمني (الذي يمكن بمقتضاه أن يطَّلع على وثائق سرية) لأن ثلاثة من أولاده يعيشون في إسرائيل وذلك بعد حادثة بولارد وزيادة الاحتياطات الأمنية (**جيرو ساليم بوست** ١١ فبراير ١٩٨٩). ولو حدث شيء مماثل في أي بلد آخر لاتُّهم هذا البلد على الفور بأنه معاد لليهود. ولكن الإعلام الصهيوني لزم الصمت لأن الجميع يعرف أن هذا هو الخط الذي لا يستطيع أحد عبوره، فهو خط إستراتيجي أحمر راسخ واضح. وقد حاول اللوبي الصهيوني أن يستفيد من قرار بوش بالعفو عن المتهمين في قضية إيران ـ كونترا عند انتهاء مدة رئاسته وحاولوا استصدار عفو عن بولارد ولكن الطلب رُفض. وقد رفض كلينتون أيضاً طلب عفو مماثل من نتنياهو. بل يبدو أنه وافق في البداية، ولكن المؤسسة العسكرية الاستخبارية رفضت الطلب، فسحب كلينتون موافقته.

(ب) أما الواقعة الثانية فهي إلغاء مشروع طائرة اللافي. فالمؤسسة الحاكمة الصهيونية كانت حريصة كل الحرص على إنتاج هذه الطائرة محلياً في إسرائيل (بعون أمريكي) لأسباب عديدة من بينها تحقيق شيء من الاستقلال الإسرائيلي في مجال صناعة السلاح وتحسين صورة إسرائيل القومية أمام المستوطنين الصهاينة الذين يشعرون باعتماد دولتهم المذل على الولايات المتحدة. كما أن طائرة اللافي كانت تعني أيضاً إنشاء صناعة طائرات محلية تخلق عشرات الوظائف للمهندسين والفنيين الإسرائيليين بأمل أن يحد ذلك

بعض الشيء من ظاهرة هجرة العقول من إسرائيل ونزوح عناصر النخبة الفنية منها. ولكن المؤسسة الصناعية العسكرية في الولايات المتحدة وجدت أنه ليس من صالحها السماح لإسرائيل بإنتاج اللافي فأُلغي المشروع رغم المحاولات اليائسة والمريرة لمدة عامين، ولم ينجح اللوبي الصهيوني أو غيره في أن يؤثر على القرار الأمريكي. وقد تزايد عدد النازحين بالفعل عن الدولة الصهيونية، كما أنه قلل مقدرة إسرائيل الاستيعابية للمهاجرين الجدد، بخاصة من ذوي المؤهلات العالية، وهو الأمر الذي شكَّل مشكلة خطيرة مع هجرة اليهود السوفييت.

١١ - لوحظ أن بعض الإسرائيليين واليهود السوفييت المقيمين في الولايات المتحدة قد أسسوا عصابات تمارس الجريمة المنظمة (المافيا) ولها نشاط في عالم المخدرات والجنس وتزييف النقود. ولم يتردد الكونجرس الأمريكي في إجراء تحقيق في الموضوع ونشر نتائج التحقيق، وهو ما أساء لصورة اليهود الإعلامية (**جيروساليم بوست** ١٩ أبريل ١٩٨٨) ولكنه فعل ذلك دون تردُّد لأن الجريمة تهدِّد أمن الولايات المتحدة القومي، ولم يخش أحد من سطوة الإعلام الصهيوني.

١٢ - ثم جاءت حرب الخليج فأثبتت بما لا يقبل أي شك أن الدولة الصهيونية تتحرك داخل إطار المصالح الإستراتيجية الغربية وليس داخل إطار المصالح اليهودية أو الصهيونية الوهمية، فالدولة الصهيونية قد أُعدت عبر تاريخها للاضطلاع بدور الأداة العسكرية الكفء، وقد موَّلها الغرب لهذا السبب، وهذا السبب وحده. ولكن تبيَّن للغرب أن اشتراكها في القتال سيُسبِّب خسارة للمصالح الغربية، فاسم إسرائيل لا يزال كريهاً لدى الجماهير العربية التي تدرك بفطرتها السليمة طبيعة هذه الدولة الاستعمارية، ووقوف أي دولة عربية في القتال جنباً إلى جنب مع إسرائيل (حتى ولو كان ضد العراق) كان سيؤدي إلى غضب هذه الجماهير وثورتها. ولذا طلبت الولايات المتحدة من الدولة الصهيونية أن تتنحى عن دورها التقليدي وأن تلزم القوات الإسرائيلية ثكناتها

وأن تتلقى الصواريخ العراقية دون أن تحرك ساكناً. وقد امتثلت الدولة الصهيونية لهذه الأوامر، وسُمِّي هذا «ضبط النفس». وسلوك الدولة الصهيونية - مرةً أخرى - يبيِّن مدى ذكاء أهل الحكم فيها ومعرفتهم تماماً بقوانين اللعبة.

ولعل التنازل الوحيد الذي قدمه الأمريكيون للإسرائيليين في هذه الحالة هو اختيار كولونيل يهودي ليترأس طاقم صواريخ باتريوت الذي أُرسل لحماية الدولة الصهيونية من الصواريخ العراقية، وكان ضمن الطاقم عشرون يهودياً! وهو تنازل له طابع رمزي وحسب ولا يمتد بأي حال للأهداف النهائية.

١٣ - أثناء إحدى المعارك الانتخابية للرئاسة الأمريكية ادعى مدير إيباك في مكالمة تليفونية مع أحد المليونيرات اليهود أن كلينتون يقوم باستشارته بشأن المرشحين لمنصب وزير الخارجية (وذلك بهدف تضخيم دور اللوبي). ولكن المليونير كان قد قام بتسجيل المكالمة وسربها للصحف التي قامت بنشرها. ويُعدُّ مثل هذا التصريح خرقاً للعقد الاجتماعي الأمريكي الذي يسمح لأعضاء الأقليات بالتعبير عن هويتهم الإثنية بشرط ألا يتناقض هذا مع الصالح الأمريكي العام وأن يأتي الولاء للولايات المتحدة في المقام الأول. وقد اعتذر مدير إيباك عما بدر منه وأكد أن ما قاله في المكالمة التليفونية بشأن تعيين وزير الخارجية لم يكن إلا من قبيل الدعاية للإيباك لحث المليونير اليهودي على أن يجزل العطاء للإيباك، وقدَّم المدير استقالته بعد ذلك.

إلى جانب هذه الوقائع التاريخية التي تثبت أن المرجعية النهائية هي المصلحة الإستراتيجية الغربية، يمكننا أن نتكشف بعض جوانب آليات الضغط اليهودي الصهيوني لنرى مدى علاقتها بالمصالح اليهودية والصهيونية المستقلة:

١ - ويمكن أن نثير قضية سيطرة رأس المال اليهودي وهيمنته. ولنا أن نشير هنا إلى أن حجم رأس المال الذي يتحكم فيه بعض أعضاء الجماعات اليهودية يشكل نسبة ضئيلة للغاية بالنسبة لرأس المال الكلي للولايات المتحدة. والمنظومة الرأسمالية - كما هو معروف - منظومة متكاملة متداخلة، لها قوانينها وآلياتها التي تتجاوز إلى حدٍّ كبير إرادة الأفراد وأهواءهم. ويمكن أن نضيف هنا أنه على

الرغم من ثراء يهود الولايات المتحدة (يوجد ١٤٠ يهودي بين أكثر من ٤٠٠ شخص يُعَدون الأكثر ثراء) فإنه لا يوجد رأس مال يهودي في الصناعات الأساسية (الحديد ـ الصلب ـ السيارات)، كما أن المصارف الأساسية لا تزال في أيدي الواسب (البروتستانت). وعلى المنادين بأطروحة السيطرة اليهودية أن يبينوا أن ثمة علاقة طردية بين تزايد رأس المال المتوفر في أيدي اليهود والانحياز الأمريكي لإسرائيل.

٢ ـ وقل الشيء نفسه عن الإعلام وسيطرة اليهود عليه. فثمة وجود يهودي ملحوظ في قطاع الإعلام. ولكن هل تزايد هذا النفوذ أم تراجع في الأعوام العشرين الماضية ؟ وهل زادت نسبة ملكية اليهود لوسائل الإعلام أم قلت ؟ وهل هناك علاقة واضحة بين تزايد الهيمنة اليهودية على الإعلام ومنحنى الانحياز ؟ كل المؤشرات تدل على أن العناصر غير اليهودية التي دخلت مجال الإعلام الأمريكي أعلى بكثير من العناصر اليهودية، ومع هذا لم يتغيَّر منحنى الانحياز المتزايد.

٣ ـ ويمكن أن نثير قضية أن أعضاء الجماعة اليهودية يلعبون دوراً متميِّزاً داخل المؤسسات الأمريكية لصنع القرار. وفي تقرير كُتب في السبعينيات، أُشير إلى أن ٩,٢٠٪ من كل أعضاء هيئات التدريس في الجامعات و٨,٢٥٪ من مجموع العاملين في الإعلام من اليهود، وأن هناك بين ٥٤٥ شخصية قيادية حوالي ٤,١١٪ من اليهود. وقد تزايد عدد اليهود في إدارة كلينتون الأخيرة (١٩٩٦) بخاصة في المراكز الحساسة مثل وزير الخارجية ووزير الدفاع وعضوية مجلس الأمن القومي. ويشار إلى كل هذا باعتباره دليلاً على مدى سيطرة اليهود. ولكن عملية صنع القرار في الولايات المتحدة ـ كما أسلفنا ـ عملية مؤسسية في غاية التركيب، ولا تستطيع أية أقلية واحدة التحكُّم فيها. كما أن اليهود لا يشكلون الأقلية الوحيدة داخل مؤسسات صنع القرار، إذ توجد أقليات وجماعات ضغط أخرى كبيرة ومهمة مثل جماعة الضغط الكاثوليكية. ويلاحظ أن عدد اليهود في إدارة چورچ بوش الابن قد تراجع بشكل ملحوظ، ومع هذا

تزايد الدعم الأمريكي لإسرائيل وازدادت الولايات المتحدة شراسة وعنصرية في موقفها من العالم العربي ككل، والفلسطينيين على وجه الخصوص.

٤ ـ يمكن أن نطرح تساؤلاً بشأن مدى تأثير الصوت اليهودي في سياسات الولايات المتحدة وانحيازها لإسرائيل وهل ثمة علاقة طردية بين عدد الأصوات التي يحصل عليها المرشّح ودرجة تأييده لإسرائيل؟ والإجابة بالنفي. فنيكسون حصل على ٢٠٪ من أصوات اليهود ومع هذا حققت العلاقة بين إسرائيل والولايات المتحدة أثناء فترة رئاسته قفزة نوعية، ومنحنى التأييد الأمريكي لإسرائيل آخذ في التصاعد ولا علاقة له بتذبذب الصوت اليهودي وتأرجحه.

ويمكن تشبيه اليهودي داخل مؤسسات صُنع القرار الأمريكية بالموظف الحركي النشط في إحدى الشركات الكبرى الأمريكية. فهذا الموظف إن أبدى ذكاءً غير عادي في فهم أهداف المؤسسة التي يعمل فيها وأخذ بزمام المبادرة وتحرك نحو تنفيذها، فلابد أنه سيترقى ويتحرك نحو القمة، ولكن حركته الصاعدة تظل في نهاية الأمر محكومة بالهدف المؤسسي الذي يتم تحديده بشكل مؤسسي، كما أن من الصعب على فرد أو مجموعة أفراد تغييره.

٥ ـ ونحب أن نثير قضية مبدئية وهي قضية مصطلح «يهودي» نفسه، ومدى "صهيونية" هؤلاء اليهود؟ وهل يَصدُر يهود الولايات المتحدة عن رؤية يهودية وصهيونية لأنفسهم، أم يَصدُرون عن رؤية أمريكية؟. تدل كل المؤشرات على أن يهود الولايات المتحدة قد اندمجوا إلى حدٍّ كبير في المجتمع الأمريكي (رغم كل الثرثرة عن الشخصية اليهودية والجيتو اليهودي). وحسب دراسات علم الاجتماع الأمريكي تُعَد الأقلية اليهودية من أكثر الأقليات اندماجاً وقبولاً للعقد الاجتماعي الأمريكي وقيم هذا المجتمع البرجماتية. ومنذ أمد طويل عرَّف أحد الزعماء الصهاينة في الولايات المتحدة البرنامج الصهيوني بأنه تداخل صهيونية اليهودي مع أمريكيته، حتى لا ينفصل الواحد عن الآخر.

ومن المعروف أن عدد اليهود في كليات إدارة الأعمال في الجامعات الأساسية في أمريكا (هارفارد ـ برنستون) حتى منتصف الستينيات كان صغيراً للغاية، إذ إنه

لم يكن بإمكان اليهودي أن يصبح مديراً في الشركات الكبرى (التي تحكم أمريكا)، كما أن المناصب الوزارية المهمة التي كانوا يتقلدونها كانت دائماً هامشية. ولكن في عام ١٩٧٤ حدث تغيُّر جوهري إذ شهد هذا العام تعيين كيسنجر وزيراً للخارجية الأمريكية، وعُيِّن شابيرو مديراً لشركة دي بونت للكيماويات. ويبدو أن النخبة الحاكمة في أمريكا قد وجدت أن يهود أمريكا أصبحوا أمريكيين لهم مصالح أمريكية، أي ليسوا مجرد يهود لهم مصالح يهودية، وأنه تم دمجهم وأمركتهم تماماً، بحيث أصبحوا جزءاً لا يتجزأ من المجتمع الأمريكي خاضعين لحركيات المجتمع الأمريكي (الذي لا يمانع في الحفاظ على بعض معالم الهوية الإثنية، طالما أنها لا تؤثر في ولاء اليهودي وفي سلوكه في رقعة الحياة العامة).

وقد أثبت يهود أمريكا صدق حدس النخبة الحاكمة. فرغم الهستريا الواضحة في تأييد الدولة الصهيونية (الذي لا يختلف في واقع الأمر عن تأييد المواطن الأمريكي العادي لها إلا في النبرة وهو أقل بكثير من تأييد ما يسمَّى «الصهاينة المسيحيين») فثمة انصراف واضح عن المنظمة الصهيونية وعن التبرع لها وعن حضور مؤتمراتها وانتخاباتها. وقد ظهر ولاء يهود الولايات المتحدة بشكل واضح لا مراء فيه ـ كما أسلفنا ـ في حادثة جوناثان بولارد (حيث جنَّدت المخابرات الإسرائيلية مواطناً أمريكياً يهودياً للتجسس على الولايات المتحدة) إذ ثارت ثائرة المتحدثين باسم يهود أمريكا ضد إسرائيل لأنها تُعرِّض وضعهم داخل مجتمعهم للخطر.

٦ ـ بل يمكن القول بأن هناك عناصر تسبب بعض التوتر بين يهود الولايات المتحدة والدولة الصهيونية، فالصورة الإعلامية للدولة الصهيونية ليست صورة رائعة طيلة الوقت (حرب لبنان ـ الانتفاضة ـ التشدد الصهيوني ـ بناء المستوطنات). وكثيراً ما يجد يهود أمريكا، الذين يعيشون في مجتمع ليبرالي يدَّعي الدفاع عن حقوق الإنسان، أنه ليس من صالحهم أن يُوحَّد فيما بينهم وبين الكيان الصهيوني، ولذا تتخذ قيادات الأمريكيين اليهود أحياناً موقفاً مستقلاً عن الدولة الصهيونية وناقداً له. ويُلاحَظ كذلك أن سقوط الإجماع القومي في إسرائيل

حول المستوطنات انعكس على الأمريكيين اليهود، إذ إن ذلك أعطاهم حرية حركة لم تكن متاحة لهم من قبل. فنجد أن حركة السلام الآن لها فروع في الولايات المتحدة بل ولها صندوق جباية مستقل عن الصندوق القومي اليهودي. كما أن الصراع بين الدينيين الأرثوذكس واللادينيين يجد صداه بين الأمريكيين اليهود ذوي الاتجاهات الليبرالية والإصلاحية، ويقلّل التفافهم حول الدولة الصهيونية التي تتحكم فيها المؤسسة الأرثوذكسية التي لا تعترف بهم كيهود.

إذن ثمة عناصر، داخل المجتمع الأمريكي، بعضها يزيد من اقتراب الأمريكيين اليهود من الفكرة الصهيونية، والبعض الآخر يبعدهم عنها. ولكن، مهما كانت الصورة مركبة، فإن العنصر الأساسي في تحديد سلوك اليهود السياسي، سلباً أم إيجاباً، اقتراباً أم ابتعاداً من الصهيونية، هو كونهم مواطنين أمريكيين لهم مصالحهم الخاصة والمباشرة التي تفوق ولاءهم العقائدي للصهيونية. بل إن تأييد الأمريكيين اليهود لسياسة بلادهم في الشرق الأوسط لا تختلف كثيراً عن تأييد الأمريكيين البروتستانت لها لا في النسبة ولا في الحدة. ولعل يهودية الأمريكي اليهودي تفسر علو النبرة فقط. ومما يجدر ذكره أن بعض المحللين السياسيين يرون أن التظاهر السياسي لصالح إسرائيل، وارتفاع النبرة، هو شكل من أشكال التملُّص اليهودي من الصهيونية. فالأمريكي اليهودي يدفع الأموال للدولة الصهيونية ويمارس الضغط السياسي من أجلها خوفاً منها وليس حباً فيها (حتى يرضي ضميره) فهو يرفض الهجرة الاستيطانية تماماً.

كما أن هناك من المحللين من يذهب إلى أن نفوذ الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة يستند إلى قوة إسرائيل وليس العكس. فاعتماد الولايات المتحدة على إسرائيل في كثير من الأمور الأمنية وحاجتها إليها كقاعدة عسكرية وحاملة طائرات، يجعلها توسّع رقعة حركة المنظمات الصهيونية حتى تقوم بعملية تعبئة الرأي العام الأمريكي (بما في ذلك الرأي العام الأمريكي اليهودي) ليساند الولايات المتحدة في دعمها الدائم والمستمر للكيان الصهيوني بما يتضمنه ذلك من دعم مالي قد يبدو باهظاً من منظور الإنسان العادي ولكنه استثمار إستراتيجي جيد من منظور

المؤسسة الحاكمة، الأمر الذي يتطلب عملية قومية سياسية تقوم بها المنظمات الصهيونية على أكمل وجه. كما أن المنظمات الصهيونية تساهم، عن طريق عمليات جمع التبرعات، في دفع الفاتورة. والنفوذ الصهيوني، من هذا المنظور، ليس سبباً لسياسات الولايات المتحدة وإنما هو نتيجة لهما. ولاستيعاب هذه النقطة، يمكن مقارنة النفوذ الصهيوني ومدى نجاحه بفشل الجماعات الأيرلندية في جمع الدعم والأسلحة لجيش التحرير الأيرلندي رغم قوة الجماعة الأيرلندية، النوعية والعددية، ورغم أن أحد رؤساء الولايات المتحدة (كنيدي) كان من أصل أيرلندي!

أسباب ازدهار الأسطورة البروتوكولية

يمكننا القول إن تضخيم قوة اللوبي والإعلام الصهيوني وجعلهما مسئولين عن كل مايحدث في الغرب هي أسطورة قد يكون لها علاقة ما بالواقع، ولكنها ذات مقدرة تفسيرية ضعيفة لعدم إحاطتها بكل جوانب هذا الواقع ولعجزها عن التمييز بين ما هو جوهري وماهو فرعي فيه. بل يمكن القول بأن هذه الأطروحة الشائعة في أشكالها المتطرفة، هي امتداد للرؤية التآمرية الاختزالية البروتوكولية (نسبة إلى **بروتوكولات حكماء صهيون**)، التي تجعل اليهود مسئولين عن كل شيء وتجعل الغرب ضحية للتلاعب اليهودي الصهيوني. وهذا تبسيط للأمور يعمي الأبصار، فهل يمكن أن يتصور أحد أن التشكيل الاستعماري الغربي الذي حوَّل العالم بأسره إلى ساحة لنشاطه من خلال جيوشه ومخابراته (والآن من خلال عملائه ومخابراته) والذي أسس تشكيلاً حضارياً وبنية اجتماعية ونظاماً سياسياً يهدف إلى استغلال المصادر البشرية والطبيعية للكون بأسره وتوظيفها لصالحه، نقول هل يمكن أن تُحدَّد سياسات هذا الكيان نتيجة تدخُّل قوة سياسية مثل اللوبي اليهودي الصهيوني، هل لو أن اليهود اختفوا تماماً ولم يَعُد لهم من أثر، ولو أن إسرائيل اختفت من على خريطة العالم، هل ستتغير سياسة الولايات المتحدة وتصبح قوة مسالمة تتصالح مع القوى القومية والداعية للسلام والبناء، أم أنها كانت ستبحث عن عملاء آخرين وعن أشكال أخرى من التدخل؟ هذا هو السؤال الذي وجهته مرة

للسناتور الأمريكي السابق جيمس أبو رزق (من أصل عربي) وكان رده أنه لا يمكن تخيُّل العالم بدون يهود أو الشرق الأوسط بدون إسرائيل! والإجابة لا تدل على عجز السناتور أبو رزق عن التخيل بقدر ما تدل على كفاءته النادر في المراوغة.

ورغم ضعف المقدرة التفسيرية لأسطورة نفوذ اللوبي الصهيوني إلا أنها تزدهر وتترعرع لعدة أسباب نورد بعضها فيما يلي:

١ - يروِّج الصهاينة أنفسهم لأسطورة اللوبي ويرسخونها في الأذهان. فكان وايزمان يتصور أن وعد بلفور قد مُنح لليهود بسبب اكتشاف الأسيتون، وكان اليهود يتصورون أن أول مندوب سامي بريطاني في فلسطين بعد فرض الانتداب، سير هربرت صمويل، هو أول ملك يهودي لفلسطين بعد هدم الهيكل! وقد ألقى أحد الحاخامات في معبد يهودي في واشنطن مؤخراً موعظة بدأها بالعبارة التالية: "الولايات المتحدة لم تَعُد حكومة للأغيار (أي غير اليهود) بل هي إدارة يشارك فيها اليهود بشكل كامل على كل المستويات". ولا شك في أن الصهاينة يستفيدون من مثل هذه الشائعات والأساطير، فهي تضفي عليهم أهمية لايستحقونها، وتنسب لهم قوة تزيد وزنهم وهو ما يُحسِّن وضعهم التفاوضي. وقد عششت أسطورة اللوبي اليهودي والصهيوني البروتوكولية في رؤوس بعض أعضاء النخب الحاكمة العربية، حتى أنهم يُحدِّدون سياساتهم انطلاقاً منها وتأسيساً عليها.

٢ - نجحت الدولة الصهيونية الوظيفية في إنجاز مهمتها باعتبارها قاعدة عسكرية رخيصة وحارس للمنطقة العربية، وقد دعَّم هذا من رواج أسطورة اللوبي. ويمكن القول بأن ثمة علاقة طردية بين قوة اللوبي الصهيوني وضعف العرب، فكلما ازداد العرب ضعفاً وغياباً ازداد اللوبي الصهيوني قوة وحضوراً وزاد تلاحم المصالح الغربية والمصالح الصهيونية. ولكن لو زادت تكلفة إسرائيل (من خلال المقاومة والمقاطعة والجهاد) لأعادت الولايات المتحدة حساباتها، ولأصبحت هذه الحسابات أكثر رشداً (من وجهة نظرنا) ولما استمرت الولايات المتحدة في انحيازها، ولما ازداد منحنى الانحناء انحناءً لصالح إسرائيل.

٣ ـ تروِّج الحكومة الأمريكية ذاتها لمثل هذه المزاعم البروتوكولية عن اللوبي الصهيوني للإيحاء بأنها ترغب في اتخاذ مواقف أكثر اعتدالاً تجاه القضايا العربية ولكنها لا تستطيع ذلك بسبب اللوبي الصهيوني، وبذا يصبح الدعم الأمريكي السخي والمستمر لإسرائيل أمر يتم رغم إرادة الولايات المتحدة وضد رغبتها، وتصبح هذه القوة العظمى الباطشة مجرد ضحية للنفوذ اليهودي وألعوبة في يد القوة الصهيونية التي لا تُقهَر. وهو يُحسِّن صورتها أمام زبائنها من العرب ويبرئها من كل ما تفعل.

٤ ـ تستفيد النظم العربية من أسطورة اللوبي اليهودي والصهيوني. فهي تبرر الهزيمة العربية إذ تجعلها شيئاً متوقَّعاً ومفهوماً، كما أن ساحة القتال تنتقل من فلسطين إلى غرف الكونجرس وشوارع واشنطن وباريس حتى يتسنى لهذه الأنظمة العربية ممارسة ضغط يشبه الضغط اليهودي!

إن توافق المصالح، وتوافق الإدراك الغربي والصهيوني، هو سر نجاح إسرائيل الإعلامي ومصدر قوة اللوبي الصهيوني وليس العكس، وهي العوامل التي تحدد في نهاية الأمر السلوك الغربي. فالإعلام واللوبي الصهيوني لا يستمدان قوتهما من كفاءة الصهاينة وإنما من أن إسرائيل وجدت لنفسها مكاناً داخل الإستراتيجية الغربية، ولأنها جعلت نفسها أداة طيعة رخيصة كفء لتحقيق هذه الإستراتيجية. وتحديد القضية على هذا النحو يعني أننا لا نقلِّل من أهمية اللوبي الصهيوني أو من مقدرته على تعبئة الرأي العام الأمريكي لصالح إسرائيل أو من فعاليته في التأثير على صانع القرار الأمريكي (بخاصة في أمور الشرق الأوسط والصراع العربي-الإسرائيلي). ولكننا مع هذا لا نفسر كل سلوك الغرب على أساسه، إذ تظل الأولويات الإستراتيجية التي حددها صانع القرار الغربي هي التي تفسر سلوكه. وإدراكنا لهذه الحقيقة سيُعمِّق إدراكنا للواقع وحركياته ويزيد مقدرتنا على التنبؤ والتصدي. إن النموذج التفسيري الذي نطرحه ليس مجرد تمرين أكاديمي، وإنما هو أمر أساسي في تحديد إستراتيجية التصدي لإسرائيل، وفي تحديد الأولويات.

ويمكننا القول في الختام إن تضخيم قوة اللوبي والإعلام الصهيوني وجعلهما مسئولين عن كل ما يحدث في الغرب هو امتداد للرؤية التآمرية الاختزالية

البروتوكولية، التي تجعل اليهود مسئولين عن كل شيء وتجعل من الغرب ضحية للتلاعب اليهودي الصهيوني. وهذا تبسيط للأمور يعمي الأبصار، فهل يمكن لأحد أن يتصور أن الطبيعة العدوانية الاستغلالية الشرسة للتشكيل الاستعماري الغربي (الذي حوَّل العالم بأسره إلى ساحة لنشاطه من خلال جيوشه ومخابراته، والآن من خلال عملائه ومخابراته)، والذي أسس تشكيلاً حضارياً وبنية اجتماعية مبنية على استغلال المصادر البشرية والطبيعية للكون بأسره وتوظيفها لصالحه. نقول هل يمكن لهذا التشكيل أن يغيِّر هويته لو أن اليهود اختفوا تماماً ولم يعد لهم من أثر؟ هل يمكن أن تتغيَّر سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط لو أن إسرائيل اختفت من الخريطة؟ هل ستتعاون الولايات المتحدة حينئذ مع القوى القومية والداعية للسلام والبناء، أم أنها كانت ستبحث عن عملاء آخرين وعن أشكال أخرى من التدخل؟

وقد ركَّز الإعلام العربي أثناء إحدى انتخابات الرئاسة الأمريكية على مسألة أن كيتي دوكاكيس زوجة المرشح الديمقراطي آنذاك يهودية، وأن هذا سيؤدي إلى تزايد نفوذ اللوبي الصهيوني. ولابد أن هذا الموقف شارك فيه بعض صانعي القرار العربي. ويقف هذا على الطرف النقيض من الموقف التركي، فحين سُئل المتحدث الرسمي التركي عن رأيه في مسألة ترشيح دوكاكيس للرئاسة، وهو من أصل يوناني، ومدى تأثير ذلك في الموقف الأمريكي من تركيا إن تم انتخابه، قال ببساطة إن الولايات المتحدة لها مصالح إستراتيجية ثابتة سيتمسك بها الرئيس المنتخب مهما كان أصله وفصله. فهذه المصالح الثابتة هي السبب الحقيقي الكامن وراء دعم الولايات المتحدة لتركيا وهي أيضاً وراء تأييد الولايات المتحدة للدولة الصهيونية، ولا يمكن تصوُّر أن كيتي دوكاكيس ستؤثر في ذلك الموقف بشكل جوهري! وهذه مقولة غير مريحة بالنسبة لمن استناموا لمقولة أخطبوطية اللوبي الصهيوني، إذ إنها تعني أن عدونا ليس الأفعى اليهودية الخيالية الميتافيزيقية التي لا يمكن الإمساك بها لأنها خفية رغم أنها في كل مكان (وهذه دعوة مقنعة للاستسلام) وإنما هو العالم الغربي الذي يدافع عن مصالحه الإستراتيجية التي يمكن تعريفها والتصدي لها ومحاربتها في كل مكان.

الفصل السابع

إخفاق الخطاب البروتوكولي من الناحية المعرفية والعملية والأخلاقية

تنتمي **البروتوكولات** إلى خطاب المؤامرة، الذي يذهب إلى أن اليهود يتسمون بكل مايخطر وما لا يخطر للإنسان على بال. فالشر والمكر والرغبة في التدمير أمور فُطرت في عقولهم، ومكوِّن أساسي وثابت من طبيعتهم التي لا تتغيَّر ولا تتحول، وسلوكهم هو تعبير عن مخطط جبار وضعه العقل اليهودي الشرير الذي يخطط ويدبر منذ بداية التاريخ، والذي وضع تفاصيل المؤامرة الكبرى العالمية لتخريب الأخلاق وإفساد النفوس حتى تزداد كل الشعوب ضعفاً ووهناً بينما يزداد اليهود قوة وبأساً، وذلك بهدف إنشاء حكومة يهودية عالمية تسيطر على العالم بقبضة حديدية. والتاريخ اليهودي بأسره إن هو إلا تعبير عن هذا النموذج وعن هذه المؤامرة الأزلية المستمرة، واليهود من ثَمَّ هم المسئولون في كل زمان ومكان عن كل الشرور والمنكرات. فهم، على سبيل المثال، الذين أراقوا دم المسيح (حسب الرواية المسيحية)، وهم الذين وضعوا السم للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وهم وراء مؤامرة عبد الله بن سبأ (ثم أتباعه من بعده) للقضاء على الإسلام، وهم الذين قاموا بدس الإسرائيليات دساً على الدين الحنيف، بل ويُنسب إليهم ذبح الأطفال واستخدام دمهم في صنع خبز الفطير الذي يأكلونه في عيد الفصح.

وفي العصر الحديث يرى حَمَلة الفكر البروتوكولي التآمري أن اليهود وراء أشكال الانحلال المعروفة والعلنية (وغير المعروفة والخفية) في العالم الغربي والعربي، بل وفي كل أرجاء العالم. فهم وراء المحافل الماسونية التي أسَّسوها أداة

لمؤامراتهم، وهم وراء البهائية التي تسعى لإفساد الإسلام وكل العقائد، بل وهم على اتصال بعالم الجريمة للمساعدة في إفساد العالم. وهم الذين أدوا إلى ظهور الرأسمالية بكل بشاعتها، والبلشفية بكل إرهابها، والإباحية بكل تدميريتها. وهم الذين أسقطوا الدولة العثمانية السنية (من خلال يهود الدونمة). وهم يسيطرون على رأس المال العالمي والحركة الشيوعية ويتحكمون في الصحافة ووسائل الإعلام. وهم الذين استفزوا الدول الغربية فاضطرت لطردهم، وهم الذين ضغطوا على الإمبراطورية الإنجليزية وجعلوها تصدر وعد بلفور. وهم الذين يحرّكون الآن اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة الأمريكية ويوجهون الإعلام الأمريكي ويجندون الصوت اليهودي ويتحكّمون في رأس المال الأمريكي، وذلك حتى يُسخِّروا الولايات المتحدة ويُرغموها، بما لديهم من نفوذ وسطوة وهيمنة، على تحقيق مآربهم وتنفيذ مصالحهم.

والصهيونية - من هذا المنظور - ليست ظاهرة مرتبطة بحركيات التاريخ والفكر الغربي، وليست مرتبطة بظهور الإمبريالية الغربية وبهيمنتها على العالم، وإنما هي مجرد تعبير عن هذا الشر الكامن في النفس اليهودية الذي يتبدّى في الغزو الصهيوني لفلسطين، وضرب المفاعل الذري العراقي، وغزو لبنان، وقمع الانتفاضة، والهجرة اليهودية السوفييتية إلى فلسطين، والسوق الشرق أوسطية. . . إلخ.

المستوى المعرفي

ويمكننا القول إن الفكر البروتوكولي التآمري يخفق على مستويات ثلاث: المعرفية والعملية الإجرائية والأخلاقية الدينية، ولنبدأ بالمستوى المعرفي.

الخطاب البروتوكولي التآمري هو نتيجة كسل فكري شامل وتعطيل كامل للعقل، ويتضح هذا في كثير من أوجه هذا الخطاب. فعلى سبيل المثال، يلاحظ أن **البروتوكولات**، وكل النصوص البروتوكولية التآمرية، تحتوي على آراء كثيرة عن الآخر واتهامات عريضة موجهة إليه وقصص وروايات وحواديت تبيِّن شره

المستفحل دون أن تأتي بأية أدلة أو براهين، وإن أتت بأدلة فهي عادةً واهية منفصلة عن أي سياق أو نمط متكرر. ولأضرب مثلاً: قرأت مرة دراسة "علمية" تتحدث عن النفوذ اليهودي في الولايات المتحدة، ومن الأدلة التي ساقها الباحث الألمعي أنه في أوائل شهر يونيو ١٩٦٧ كان يوجد في البيت الأبيض صديقة يهودية لليدي بيرد، زوجة الرئيس الأمريكي ليندون جونسون. وقد ساق السيد الباحث هذه الواقعة دليلاً قاطعاً على مدى التغلغل اليهودي! . وطبعاً تصوَّر هذا الباحث أن الضيفة اليهودية بعد أن تناولت طعام العشاء مع الرئيس جونسون وزوجته، وكانت تعرف أن فخامة الرئيس على وشك اتخاذ القرار الخاص بدعم إسرائيل في عدوانها على مصر، قامت بالتأثير عليه لصالح إسرائيل، وكأن مثل هذا القرار اتُّخذ بعد تناول طعام العشاء في البيت الأبيض في أوائل شهر يونيو وأثناء تناول القهوة أو أحد المشروبات الروحية، مع أنه من المعروف أن قرار دعم إسرائيل والإذن لها بشن العدوان قد اتُّخذ قبل ذلك بعدة شهور وربما سنوات، وسبقته دراسات عديدة وتقارير واجتماعات. فصُنع القرار في الولايات المتحدة يختلف عن طريقة صُنعه في بعض البلاد العربية وبلاد العالم الثالث، وفي هذا فليُسأل المختصون، بدلاً من إطلاق الكلام على عواهنه.

وقد تلقف البروتوكوليون قصة مونيكا لوينسكي وأشاروا بهدوء وموضوعية إلى أنها يهودية، ومن ثَمَّ فهي بلا شك جزء من المؤامرة اليهودية العالمية. والتصور هنا أن مونيكا بعد أن هيمنت على كلينتون بجسدها الذي لا يُقهر (وكأنها جيش الدفاع الإسرائيلي في الأدبيات البروتوكولية) أثرت على كلينتون وطلبت منه تأييد اليهود وهي تجلس على حجْره في الـ Oral office (التسمية الجديدة للـOval office)، فدخَّن الرجل سيجارةَ بطَريقته غير التقليدية وعانق مونيكا وغاصا سوياً وأيَّد إسرائيل! (يتجاهل البروتوكوليون أن سكرتارية كلينتون كانت تضم امرأة يهودية حاولت قدر وسعها، ودون جدوى، أن توقف هذه الفتاة اللعوب وتصرفها عن الرجل المنفلت، لتحمي مؤسسة الرئاسة الأمريكية منها ومن نزواته).

وحينما كنت في واشنطن منذ عدة شهور همس في أذني أحد البروتوكوليين العرب أن عشيق كوندوليسا رايس مستشارة الأمن القومي شاب يهودي، وكأن

ذلك سيؤثِّر على القرار الأمريكي الخاص بضرب العراق والانسحاب من المعاهدات الدولية، وكأن كوندوليسا رايس تتخذ القرارات الخاصة بالأمن القومي الأمريكي وهي في الفراش مع عشيقها اليهودي، وكأنها لا تمتلك غالبية أسهم إحدى الشركات الكبرى في تكساس، وكأنها ليست من مجموعة بوش وتشيني الرأسمالية.

إن حَمَلة الفكر البروتوكولي التآمري لا يدرسون الظواهر بطريقة مركّبة ليعرفوا أسبابها وأبعادها وكيفية التعامل معها، وهم لهذا السبب يختزلون أى ظاهرة في سبب واحد أو عنصر واحد، وهو يد اليهود الخفية التي يُنسب إليها كافة التغيرات والأحداث والتطورات.

والفكر البروتوكولي التآمري يتسم بالتعميم الكاسح، فهو يضع اليهود، كل اليهود، في سلة واحدة، ومن ثَمَّ فهو يذهب إلى أن كل الظواهر اليهودية والصهيونية والإسرائيلية شيء واحد. ويتم اختزال الإسرائيلي في الصهيوني والصهيوني في اليهودي. لأن الجميع «يهود والسلام» فلا يوجد أي اختلافات أو تناقضات بينهم، فالآخر واحد متجانس شيطاني أينما وُجد. وكما أسلفنا يتم اختزال اليهود (بل الواقع بأسره) في قوالب جاهزة وأنماط سابقة ويردون إلى بُعد واحد.

ويظهر التعميم البروتوكولي التآمري الكاسح في تصور هذا الفكر أن اليهود دبَّروا كل الثورات وأنهم يتحكمون في كل الأموال وأنهم اخترعوا كل العلوم ووظفوها لصالحهم وأنهم سيطروا على كل الحكومات. حتى تلك الحكومات التي تعارضهم فإنها تعارضهم ظاهرياً فقط، لأنها في واقع الأمر تعمل داخل المخطط اليهودي الكبير الخطير! والفكر البروتوكولي التآمري بتركيزه على عنصر واحد (اليهود-الكفار-الآخر) يجعلنا عاجزين عن رؤية الظواهر في تواترها وتركيبيتها ويفقدنا أية مقدرة على تفسيرها. فالظاهرة لا يمكن فهمها إلا في علاقتها بالظواهر المماثلة الأخرى، وإلا لما أصبحت ظاهرة، وأصبحت واقعة أو حادثة، لا معنى لها أو سبب، أو يمكن فرض أي معنى عليها وأن ينسب لها أي سبب.

والفكر البروتوكولي التآمري بعموميته يفقدنا كثيراً من مقدرتنا التفسيرية، فهو يُفسِّر كل شيء بنفس التفسير، وما يُفسِّر كل شيء بالعودة لنفس العنصر (المؤامرة اليهودية) لايُفسِّر شيئاً. فهل نحن في حالة حرب مع يهود أمريكا اللاتينية مثلاً، أو حتى يهود الولايات المتحدة غير الصهاينة أو غير المكترثين بالصهيونية؟ وإن كنا نحارب إسرائيل لأننا نكره اليهود، فما هو موقفنا من الولايات المتحدة؟ أليست هي المموِّل الأساسي للجيب الصهيوني؟

جاء في صحيفة **الأهرام** (١١ ديسمبر ٢٠٠٢) أن مجموع ما أنفقته الولايات المتحدة على إسرائيل في ٣٠ عاماً (أي منذ عام ١٩٧٣) يصل إلى ١٦٠٠ مليار دولار. وإذا ما قورنت قيمة هذه المساعدات بميزانيات الدول العربية فإنها تعادل ميزانيات ٢٠ دولة عربية (باستثناء السعودية ومصر) لعام ٢٠٠٠ لنحو عشرين سنة. وهناك بلايين أخرى صبت في الجيب الصهيوني من ألمانيا على هيئة تعويضات لضحايا الإبادة النازية ليهود الغرب. وقد تم ذلك بضغط من الولايات المتحدة. أليست الولايات المتحدة هي القوة العظمى التي تستخدم حق الڤيتو في مجلس الأمن لحماية الجيب الصهيوني، وهي التي تزوده بأحدث الأسلحة وأشدها فتكاً، وهي التي تشجعه على الاستمرار في خرق قرارات هيئة الأمم، وهي التي تدعمه سياسياً وعسكرياً ومعنوياً، وبذلك تضمن بقاءه واستمراره؟ هل يمكن تخيل الكيان الصهيوني قادراً على البقاء استناداً لمقوماته الداخلية وحدها؟ إن كان الأمر كذلك، ألا يؤدي تأسيس الصراع على أساس كُره اليهود إلى التعمية عن حقيقة هذا الصراع والقوى التي نجابهها؟

وحسب المنظور البروتوكولي التآمري فإن الأحداث ليست نتيجة تفاعل بين مركب من الظروف والمصالح والتطلعات والعناصر المعروفة والمجهولة من جهة وإرادة إنسانية من جهة أخرى، وإنما هي نتاج عقل واحد وضع مخططاً جباراً وصاغ الواقع حسب هواه، مما يعني أن بقية البشر إن هم إلا أدوات، أو قطع شطرنج يحركها هذا العقل الواحد الجبار المتآمر بكل بساطة لإنجاز مخططه التخريبي التدميري، أي أنه بدلاً من أن يجتهد البروتوكولي في تفسير الظواهر، فإنه يكد

ويتعب بحثاً عن المفتاح السحري للمعرفة: الوثيقة السرية التي تحتوي على المخطط السري. ولنلاحظ أن هذا العقل الجبار الذي يدير العالم ويحيك المؤامرات السرية للهيمنة عليه يحل محل الإله في المنظومات الدينية، فهو المحرك الأول والأخير (باللاتينية: بريموم موبيلي Primum mobile) فكأنها حالة من حالات الشرك، لأن اليهود ـ حسب هذا التصور ـ قادرون على كل شيء، قوتهم خارقة لا تضاهيها قوة، ونفوذهم ساحق ليس له مثيل.

وفكر المؤامرة البروتوكولي فكر إثنيني ازدواجي استقطابي يرى العالم مكوّناً من الخير الخالص والشر الخالص، ومن قطبين متصارعين فلا يرى الواقع في تدرجاته وتموجاته المختلفة، فهو يسقط في المباراة الصفرية النهائية إذ لا مجال لحلول وسط. وفكر المؤامرة البروتوكولي يضللنا لأنه يجعلنا نفترض أن الصهاينة لا يسلكون إلا في إطار نصٍّ أو نصَّين أو وثيقة سرية أو وثيقتين، وأن هذه النصوص والوثائق هي المحدِّد الرئيسي. وبسبب عموميته وازدواجيته لايعترف فكر المؤامرة بالتطورات التاريخية، وبالتالي فهو يخفق في رصد عناصر التدهور في العدو، فالعدو ثابت ضخم شرير مهيمن.

وبدلاً من رفض ادعاءات أعدائنا عن أنفسهم، وبدلاً من اختبار مقولاته عن نفسه وعن غيره، نجد أن فكر المؤامرة يروِّج لهذه الادعاءات. فحين تدَّعي **البروتوكولات** أن اليهود منظمون تماماً في شبكة أخطبوطية عالمية، وحين يدَّعي الصهاينة أن اليهود شعب وأنهم متماسكون لا يندمجون قط، من الواجب علينا أن نتوقف لندرس هذه الادعاءات وسنكتشف أن اليهود لا يتسمون بالتجانس، وأنهم ليسوا شعباً واحداً، وإنما جماعات يهودية غير متجانسة، وإلا لماذا يُثار سؤال من هو اليهودي في إسرائيل؟ ولماذا عادت إلى الحياة السياسية في إسرائيل ما أسميه «السياسة الإثنية»، أي الأحزاب الصهيونية التي تأسست على أساس إثني عرْقي، فالروس يتركزون في حزب، والمغاربة في حزب آخر، والإشكناز في أحَزاب النخبة؟ وإذا كان اليهود لا يندمجون كما هو الادعاء الصهيوني والعنصري، فلمَ يتحدثون الآن في الولايات المتحدة عن أن أعضاء الجماعة اليهودية ستتناقص أعدادهم، وأنهم قد يتحولون إلى أقلية لا يتجاوز عدد أفرادها مليوناً أو مليوني

نسمة؟ لا يكلف الفكر البروتوكولي التآمري نفسه بدراسة واقع العدو وبدلاً من ذلك يستسلم تماماً لادعاءات هذا العدو عن نفسه.

ويعتمد فكر المؤامرة البروتوكولي على وثائق مشكوك فيها تتضمن عبارات عامة، فتصرفنا عن إدراك الطبيعة المحددة للإرهاب ورؤية البطش الصهيوني في الواقع، في كل وحشيته ودمويته، وعن دراسته وكيفية التصدي له لنحمي شعبنا وأهلنا.

والخطاب البروتوكولي التآمري - كما أسلفت - يعمينا عن رؤية واقع الآخر ولكنه يعمينا أيضاً عن رؤية واقعنا، وبالتالي فإنه يجعلنا لا ندرك أسباب إخفاقنا ولا نواجه عيوبنا ومشاكلنا، ونفسر نقاط قصورنا من خلال عنصر واحد فقط وهو مؤامرة الآخر الخارجي علينا، دون أن نرى عناصر الضعف التي تعتمل داخلنا ودون أن ندرك الأسباب المركَّبة وراء الظواهر.

المستوى العملي الإجرائي

إن انتقلنا من الناحية المعرفية التفسيرية إلى الناحية العملية الإجرائية فإننا سنجد أن **البروتوكولات** لا تقل سوءاً في أثرها. فالخطاب البروتوكولي التآمري يُضفي قوة عجائبية على اليهود ويشيطنهم. ولو كان اليهود شياطين بالفعل فكيف يتأتى لنا التصدي لهم وهزيمتهم؟ ألا يجدر بنا أن نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ونفر، أي أنْ نسقط في العجز الكامل لأنه إذا كانت القوة التي نواجهها متخفية إلى هذا الحد، أخطبوطية إلى هذا الحد، باطشة ضارية إلى هذا الحد، فهل لنا قِبَل بها، هل يمكننا أن نفعل أي شيء إزاءها؟ أم أنه من الأجدى أن نتلو الآية: ﴿**إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ**﴾ (النساء ١٠٤). فنعرف أنهم بشرٌ مثلنا يمكننا أن نفاوضهم كما يمكننا أن نسيل دماءهم. ثم نتذكر بقية الآية: ﴿**وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ**﴾ (النساء ١٠٤)، فنعرف أن النصر من عند الله وأنه نصير المستضعفين والمظلومين إن اجتهدوا وجاهدوا، لا إن ناموا وتقاعسوا وارتعدت فرائصهم.

والذين يترجمون **البروتوكولات** ويشيعونها ويؤكدون صحتها ويرددون أن

اليهود قوة عالمية مخيفة وأن ما ورد فيها آخذ في التحقُّق يبثون الرعب في النفوس. انظر على سبيل المثال ما جاء في البروتوكول السابع: "ستظهر هيمنتنا على كل الحكومات غير اليهودية بأن نبيِّن قوتنا لواحدة منها [والمقصود هنا هو إسقاط الحكومة القيصرية] متوسلين بجرائم العنف وذلك هو ما يقال له حكم الإرهاب". ولكن ماذا يحدث إذا اتفقت كل الحكومات غير اليهودية على اليهود؟ حكيم حكماء صهيون يعرف الإجابة: "سنمحيهم بالمدافع الأمريكية أو الصينية أو اليابانية" (٧/ ١٨٦). والسؤال دائماً: وكيف يكون ذلك؟ ما هي الآلية؟

وانظر أيضاً ما يقوله الأستاذ التونسي في مقدمة ترجمته: "نفوذ الدولة اليهودية قائم في كل مكان عن طريق جمعياتهم الدينية والسياسية والماسونية سرية وعلنية ونسائهم وخداعهم وبذر بذور الفتنة بين الهيئات المختلفة في كل قطر وفي العالم معاً، وبإشرافهم على الصحافة ودور النشر ووكالات الأنباء ومذاهب العلم والفلسفة والفن والمسرح والسينما والمدرسة ونظم التعليم والبنوك والشركات والمصافق (البورصات). وأهم منابع الثروة في معظم البلاد، واحتكار الذهب، ونظمهم السرية التي لا يعرف أهدافها إلا أكابر حكمائهم، وإن نفَّذ كبارهم وصغارهم خططها تنفيذاً دقيقاً" (ص٨٦).

والسؤال الآن: هل الذين يروِّجون لمثل هذه الترهات سمعوا عن الحرب النفسية، وأن العدو يود أن يبث الخوف والرعب في نفوسنا حتى نفقد الحرب قبل دخول المعركة؟ وأن **البروتوكولات** هي جزء من هذه الحرب النفسية؟

هل يعرفون أن ثمة رأياً يذهب إلى أن الصهاينة يقومون بالترويج لهذه **البروتوكولات** (أو على الأقل كُره اليهود على وجه العموم) لأنها تخدم المشروع الصهيوني الذي يهدف إلى ضرب العزلة على اليهود وتحويلهم إلى مادة خام صالحة للتهجير والتوطين في فلسطين المحتلة؟ كما أن كثيراً من الافتراضات الكامنة في **البروتوكولات** مثل «الشعب اليهودي» و«الشخصية اليهودية» و«المصالح اليهودية»، هي كلها افتراضات صهيونية أساسية، والتشهير باليهود باعتبارهم كتلة متجانسة ذات طبائع ثابتة على مر العصور هو في الواقع قبول ضمني بجوهر الرؤية الصهيونية.

وحتى لو لم يكن ذلك صحيحاً فترويج الفكر البروتوكولي التآمري يخدم المصالح الصهيونية من الناحية الفعلية، والكمُّ الهائل من الكتابات (مثل **أحجار على رقعة الشطرنج** وغيرها) التي يتم تداولها في العالم العربي كل هدفها إشاعة الخوف من اليهود والصهيونية بتبني رؤية بروتوكولية تنسب إلى اليهود قوى عجائبية.

ولعل هذا هو ما دعا المعلِّق السياسي الإسرائيلي يوئيل ماركوس في جريدة **هآرتس** (٣١ ديسمبر ١٩٩٣) إلى القول إن كثيراً من الدول تغازل إسرائيل وتحاول أن تخطب ودها نظراً لأن حكام هذه الدول يؤمنون بأن **البروتوكولات** وثيقة صحيحة، وأن ما جاء فيها هو المخطط الذي يتحقق في العالم، وأن اليهود يتحكمون بالفعل في رأس المال وفي حكومة الولايات المتحدة. وهم يستنتجون من ذلك أن الطريق إلى المعونة الأمريكية يمر من خلال اللوبي الصهيوني والدولة الصهيونية. ويضيف ماركوس معلقاً على هذه المفارقة: "إن **البروتوكولات** بسبب أثرها الذي يولِّد الرهبة في النفوس ويدفع الناس لمغازلة إسرائيل واليهود تبدو كأن الذي كتبها لم يكن شخصاً معادياً لليهود، وإنما يهودي [صهيوني] ذكي يتسم ببُعد النظر".

إن **البروتوكولات** وثيقة تافهة، ولذا يجب ألا نبدِّد الطاقة في دراستها، والفكر البروتوكولي التآمري فكر سطحي مضلِّل، وبدلاً من كُره اليهود بشكل متعصب أعمى، فلنحدِّد مَنْ هو عدونا ومَنْ يسانده وندرس ما عند الصهاينة من قوة ذاتية ثم ندرس كيف أبدع المنتفضون في فلسطين ومجاهدي حزب الله فيَ لبنان وجنود مصر وسوريا عام ١٩٧٣، وكيف تقهقر العدو أمامهم. فلندرس انكسارتنا ونعرف أسبابها، فنتحاشى الأخطاء، ولندرس انتصاراتنا ونعرف أسبابها فنزداد ثقة بأنفسنا وشجاعة وإقداماً، ثم نقرر بعد ذلك متى نكر ومتى نفر، كما يفعل المنتفضون. ولنتخيل أحد صُناع القرار العرب من المؤمنين **بالبروتوكولات** وبقوة اليهود غير المحدودة، ألن يؤثِّر هذا في قراره، ألن يجعله هذا يفضِّل أن يكون "واقعياً" ويستسلم لشروط إسرائيل؟ يُقال إن أحد الرؤساء العرب كان يتناول طعام العشاء

مع الرئيس السابق نيكسون وأراد أن يعطيه نسخة من **البروتوكولات** لينيره بخصوص مخططات اليهود والصهاينة، فمد يده تحت المائدة وأعطاه إياها، في حركة استراتيجية بارعة. ولنتخيل فخامة الرئيس وهو يفكر في إسرائيل والصهيونية العالمية. هل سيستطيع التفكير بطريقة علمية منطقية أم ستسيطر عليه سحابات الخوف والهلع؟ ولنتخيل أيضاً أحد المتنفضين وهو في طريقه إلى إحدى المستوطنات الاستعمارية الصهيونية وبدلاً من أن يتوكل على الله ويتقدم، يتذكر ما جاء في **البروتوكولات** فتُشل إرادته وتُبدَّد طاقته. إن الفكر البروتوكولي التآمري بتركيزه على قوة اليهود العجائبية دعوة مقنعة للفرار من قوة عالمية خفية شريرة شيطانية حلزونية لولبية. حينما كنا أطفالاً كنا نهتف: "مصر والسودان لنا، وإنجلترا إن أمكنا"، ولا أعتقد أن إنجلترا قد ارتعدت فرائصها من هتافنا البروتوكولي، ولكن حين بدأت العمليات الفدائية ضد القوات الإنجليزية في منطقة القناة في الخمسينيات أصبح الموقف جد مختلف.

والفكر البروتوكولي التآمري - كما أسلفنا - يقدِّم صورة عامة للغاية لا تفيد كثيراً في التعامل مع الواقع. فماذا يفيد أن أعرف أن اليهود أشرار يريدون السيطرة على العالم منذ بداية التاريخ؟ هل يمكن أن يفيدنا هذا في دراسة توجهات الجيب الصهيوني، ومناوراته، ومشاريعه الاستيطانية، وتحالفاته الدولية، ونقاط قوته وضعفه؟ هل يمكن أن يفسر هذا الحياة الحزبية في إسرائيل وسلوك الجنود الإسرائيليين؟ وهل سيساعدنا هذا على التفريق بين سلوك المستوطنين في فلسطين الصامدة منذ عام ١٩٤٨ وفلسطين التي احتُلت بعد عام ١٩٦٧؟ وحينما هزمهم حزب الله في جنوب لبنان هل درس المجاهدون المؤامرة اليهودية الكبرى وجلسوا يتأملون فيها، أم درسوا العدو في حركاته وسكناته وقاموا بدراسات إمبريقية دقيقة يمكن اختبارها؟ إن من يتحرك في أرض المعركة، إن حرباً أو تفاوضاً، يحتاج لخرائط تفصيلية تساعده في اتخاذ قراره، وهذا ما لا يقدمه الفكر البروتوكولي.

ويدافع البعض عن **البروتوكولات** بقولهم إنه حتى لو كان الفكر البروتوكولي التآمري ككل ليس له أي سند في الواقع، حتى لو لم تكن له أية مقدرة تفسيرية،

فإن له مقدرة تعبوية عالية، أي أن الفكر البروتوكولي التآمري مفيد من الناحية العملية. والرد على هذا بسيط، وهو أن الجماهير معبئة بما فيه الكفاية، بل هي أحياناً معبئة بشكل متطرف، والمطلوب في الوقت الحاضر توجيه هذه التعبئة التوجيه الصحيح وراء أهداف قريبة المدى وبعيدة المدى، بحيث يمكن أن نتخذ خطوات محددة مثل مقاطعة العدو وأصدقائه ومثل القيام بعمليات فدائية ضده. والتعبئة الصحيحة لابد أن ترتكز على فهم عميق هو بدوره ثمرة جهد تفكيكي وتركيبي لا يكتفي بالمقولات العامة العائمة الغائمة. إن التعبئة الصحيحة تتطلب أن نعرف طبيعة العدو - خصوصيته - كيفية التصدي له - نقاط قوته وضعفه - تاريخه - آليات عمله - قوتنا الذاتية. والفكر البروتوكولي التآمري لا يؤدي إلى تعبئة بل إلى تهييج يولِّد الكراهية العمياء التي ليس لها مركز أو بؤرة أو هدف. وهذا قد يترجم نفسه إلى أفعال بطولية فردية، ولكنه لا يصلح أن يكون أساساً لحركة مقاومة. وهذا الشكل من التعبئة قد يدعو إلى عدم الاستسلام، ولكنه في الوقت نفسه دعوة لعدم الجهاد إذ إنه يصيب الإنسان بالشلل.

والتعبئة التي تتم على أساس الكُره والحب هي شكل من أشكال التعصُّب التي قد يرتد إلى نحرنا، فالتعصب ليس مجرد زر يمكن أن نضغط عليه أحياناً ونتجاهله أحياناً أخرى، وإنما هو رؤية شاملة للكون. فإن عادينا اليهود لأننا نكرههم لا لأنهم ظالمون، أي إن عاديناهم بسبب هوى ذاتي، وجعلنا أنفسنا مرجعية ذاتنا، فإننا في الغد سنعادي كل من لا يكون على هوانا، مسيحياً كان أم مسلماً، ومع كل من يختلف معنا. كما أن التعبئة على أساس الكُره تجعل أساس الصراع مع العدو الصهيوني مسألة ذاتية، ليست لها أسباب موضوعية توجد خارج الذات. وهذا يفتح الباب على مصراعيه لأقوال متهافتة من قبيل أن سبب الصراع هو «الحاجز النفسي» بيننا وبين الصهاينة (وكأن البطش الصهيوني الروتيني اليومي وكأن الدماء الفلسطينية النازفة والأرض المغتصبة لا تشكل حواجز موضوعية صلبة) وأنه يمكن تجاوز الصراع من خلال نشر "ثقافة السلام والود والتفاهم"، وكأن القضية هي نتيجة سوء الفهم، ولا مؤاخذة!

وكُره اليهود أمر يشجعه الصهاينة، فاليهودي الذي يكرهه أعضاء الأغلبية في مجتمع ما ويحاولون طرده منه هو اليهودي الذي يتحول من مواطن يعمل في بلده إلى مستوطن يقاتل ضدنا في بلدنا، ويتحول من يهودي لا يكترث بالصهيونية وربما يعاديها، إلى يهودي يرى أن الصهيونية ستنقذه مما هو فيه من بلاء وفقر واضطهاد. وهذا ما فعله كلٌّ من هتلر وبلفور فكلاهما كان يكره اليهود، وكان يود تخليص بلده منهم، كلٌّ على طريقته الخاصة. فألقى بهم هتلر في أفران الغاز، وألقى بهم بلفور في فلسطين. وقد قال أحدهم إذا كان هرتزل هو ماركس الصهيونية (أي مُنظِّرها)، فهتلر هو لينينها (أي الزعيم الذي حوَّلها من نظرية إلى واقع). وهو محق في ذلك، فوصول النازيين إلى الحكم هو الذي دفع بآلاف المهاجرين الألمان اليهود (بخبراتهم ورؤوس أموالهم) إلى المستوطن الصهيوني الذي كان في حالة تراجع وضمور، فانتعش وازدهر. مَنْ يكره اليهود ويطالب بطردهم من أوطانهم إنما يمد يد المساعدة إلى الصهاينة، وكما قال آي. إف. ستون، المفكر اليهودي المعادي للصهيونية، إن الصهيونية تعيش على الكوارث، إذ إنه لو اختفى كُره اليهود والتعصب ضدهم لاختفت معهما الصهيونية.

وقد رفض غاندي الفكرة الصهيونية، أي فكرة الشعب اليهودي، التي تنطلق من كُره اليهود، فقام بالتمييز بين حقوق الأفراد من جهة، واستقلال الأقليات من جهة أخرى، فأصر على ضرورة "أن يلقى اليهود معاملة عادلة، أياً كان المكان الذيِ يُولدون أو ينشئون فيه. فاليهود الذين يُولدون في فرنسا فرنسيون، تماماً كما أن المسيحي الذي يُولد في فرنسا فرنسي". ثم بيَّن غاندي الخطر الكامن في المنطق الصهيوني، عندما تساءل: "إذا لم يكن لليهود وطن غير فلسطين، فهل ستسعدهم فكرة أن يكونوا مُجبرين على مغادرة أجزاء العالم الأخرى التي يحيون فيها؟ أم أنهم يريدون أن يكونوا لهم وطنان يحيون في أيٍّ منهما كما يتراءى لهم؟". وأخيراً، بيَّن غاندي النتيجة المنطقية والحتمية للرؤية الصهيونية: "إن الدعوة للوطن القومي (اليهودي) تقدِّم تسويغاً لطرد ألمانيا لليهود"، أي أن الدعوة الصهيونية تستند إلى كُره عميق لليهود ورفض لهم وتتسبب في طردهم من أوطانهم.

ولم تكن كلمات غاندي تصويراً مُبالغاً فيه للموقف، فقد استفاد النازيون

فعلاً، وإلى أقصى حد ـ كما أسلفنا ـ من مزاعم الصهيونية وافتراضاتها. ففي المناطق التي سيطر عليها النازيون في أوربا، كان شعارهم هو: "ليخرج اليهود إلى فلسطين". وكان النازيون يقبلون فكرة وحدة اليهود التي تتجاوز الحدود السياسية، مثل الصهاينة تماماً، ولذا أرادوا أن يصبح اليهود مجرد كيان قومي منعزل، "أجانب موضوعون تحت الحماية" يمكن السماح لهم بالعمل أطباء أو معلمين مؤقتاً طالما أنهم في طريقهم إلى وطنهم القومي. وقد تنبأ هرتزل بكثير من المعاني المعادية الكامنة في فكرة أن "اليهود يكوِّنون شعباً واحداً" (آين فولك)، وكان مدركاً أن مثل هذه الفكرة قد تعوق استيعاب اليهود، وقد تعرض وضعهم القانوني للخَطر، حتى بعد اندماجهم في مجتمعاتهم، بل قد تكون "بمثابة مساعدة للمعادين للسامية". لكنه كان يعلم، تمام العلم، أن هذه الفكرة هي جوهر الصهيونية.

أما من الناحية الإعلامية وتعبئة الرأي العام العالمي فالاستشهاد **بالبروتوكولات** يضر بقضيتنا ولا يفيدها. فهي كما بيَّنا وثيقة مشكوك فيها، تنقع عنصرية، ولذا ليس لها أية مصداقية في العالم. ولماذا بالله نلجأ إلى **البروتوكولات** في حين أن المذابح التي دبرها ويدبرها الصهاينة ضد أبناء شعبنا (ابتداءً من دير ياسين وكفر قاسم مروراً بصابرا وشاتيلا وقانا وانتهاءً بجنين) تفوق بكثير ما تنسبه **البروتوكولات** لليهود من شرور؟ والصحف اليومية حافلة بأخبار المذابح، فقد جاء في **الأهرام** (الاثنين ٩ ديسمبر ٢٠٠٢)، على سبيل المثال لا الحصر، أن عدد الأطفال الفلسطينيين الذين استشهدوا منذ انطلاق انتفاضة الأقصى في سبتمبر عام ٢٠٠٠ وحتى الآن يبلغ نحو ٥٠٠ طفل، أي ما يعادل ٢٥٪ من إجمالي عدد الشهداء. وذكر تقرير وزارة الصحة الفلسطينية الذي وردت فيه هذه المعلومة أن ظروف استشهاد الطفل محمد الدُّرة هي ظروف استشهاد جميع الأطفال، أي أنها عملية قتل مع سبق الإصرار، وبذا وُضعت المعلومة في نمط متكرر. وأشار التقرير أيضاً إلى أن عدد الأطفال الجرحى تجاوز ٤٠٠٠ طفل في قطاع غزة فقط (ويمكن أن نفترض أن هناك عدداً مماثلاً في الضفة). وقد تنوعت الإصابات حيث شكَّلت الإصابات في الأجزاء العلوية للجسم (أي الرأس والرقبة والصدر) حوالي ٤٥٪ من مجموع الإصابات. وقد اعتقلت قوات الاحتلال ٣٢٩ طفلاً، منهم أطفال لم

تتجاوز أعمارهم ١١ عاماً، وهم يتعرضون للتعذيب والإهانة والابتزاز (حسبما جاء في التقرير الذي أعده "مركز الإعلام الإسرائيلي لحقوق الإنسان في الأراضي المحتلة" «بتسليم»). ولنضع هذا الخبر المهول بجوار الفرية العنصرية التافهة التي تقول إن اليهود يذبحون طفلاً مسيحياً في عيد الفطر ويخبزون فطيرهم بدمه. إن الفرية تتحدث عن طفل واحد (أو عدة أطفال لا يتجاوز عددهم عدد الجماعات اليهودية في العالم) وعن قصة يصعب تصديقها وتوثيقها، أما ما نُشر في **الأهرام** عن الأطفال الفلسطينيين فيمكن اختباره وتصديقه وتوثيقه بالصوت والصورة. إن الإشارة إلى الأطفال من ضحايا البطش الإسرائيلي اليومي، له قيمة تعبوية إعلامية كبيرة، على عكس الإشارات الغامضة إلى المؤامرة اليهودية العالمية الأخطبوطية الهُلامية اللولبية الدولية وعلى عكس الإشارة لفرية الدم. وبالمناسبة لا يوجد أي ذكر لذبح الأطفال في **البروتوكولات**، فكيف فاتت هذه الفعلة الشنعاء على حكيم حكماء صهيون؟

المستوى الأخلاقي الديني

ونموذج المؤامرة شائع في الخطاب ذي الديباجات الإسلامية المناهضة لإسرائيل، وأسميه الخطاب «شبه الإسلامي» لأنه يستخدم ديباجات إسلامية دون الالتزام بالقيم الإسلامية. فالإسلام يؤكد أن الإنسان يولَد على الفطرة الإنسانية، بكل ما فيها من خير وشر، وأن أبويه يهودانه أو ينصرانه، ومن ثَمَّ فمفهوم الهوية كنتاج للاستمرارية الوراثية (الچينية، نسبةً إلى الچينات الوراثية)، أمر غير معروف في الإسلام، حيث المبدأ هو ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الإسراء: ١٥)، أي لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يجني جان إلا على نفسه (**تجريد البيان لتفسير القرآن من صفوة التفاسير** لعبد الله علي إبراهيمّ الأنصاري). وحينما يتبنى التآمريون مفهوم الهوية كنتاج للاستمرارية الوراثية فإنهم يتبعون مفهوماً علمانياً مادياً غير إسلامي يرى أن العقيدة مسألة بيولوچية وليست مسألة إيمانية. فالرؤية العلمانية المادية ترى اليهودي يهودياً بالوراثة، ولذا فيهود هذه الأيام هم ورثة يهود الماضي، وكلهم يتوارثون نفس الهوية الشريرة ونفس الچينات. أما من منظور إسلامي، فلا يمكن

أن يؤخذ يهود هذه الأيام بجريرة يهود الماضي، فهذا لا يجوز، لأن الخطيئة مثل الاستقامة لا تورَّث.

ولا يمكن للمسلم الملتزم بتعاليم دينه أن يوجِّه الاتهام إلى أي إنسان جُزافاً ودون قرائن، كما لا يمكن لرؤية دينية حقة أن تحكم على الفرد باعتباره تجسُّداً لفكرة، إذ يظل كل إنسان مسئولاً عن أفعاله. وقد عرَّف الإسلام حقوق أعضاء الأقليات، خصوصاً أهل الكتاب، فحدَّد أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا، وهي حقوق مطلقة لا يمكن التهاون فيها. وفي الواقع، فإن استخدام **البروتوكولات** لاتهام اليهود فيه سقوط في العنصرية والعرْقية التي تصنِّف الناس لا على أساس أفعالهم وإنما على أساس مادي لاديني (علماني) مسبق وحتمي. ولذا، فهي لا تميِّز بين ما هو خيِّر وما هو شرير، وهذا ما يحرص عليه الخطاب القرآني الذي لا يتحدث عن أهل الكتاب (بما في ذلك اليهود) في عموميتهم وإنما دائماً يخصِّص. انظر على سبيل المثال لا الحصر الآيات التالية:

* ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) ﴾ (آل عمران ١١٣/ ١١٤).

* ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩) ﴾ (آل عمران ١٩٩).

* ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) ﴾ (العنكبوت ٤٦).

* ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ﴾ (البقرة ٦٢).

* ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾ (آل عمران ٧٥).

ومن المعروف أن التاريخ الإسلامي قد عامل أعضاء الجماعات اليهودية من خلال مفهوم أهل الذمة وهو مفهوم قانوني لا علاقة له بالحب أو الكُره، وأن تاريخ المسلمين لم يشهد عمليات هجوم أو إبادة أو طرد لليهود، وأن هناك أعداداً كبيرة من اليهود دخلت الإسلام وحسن إسلامها وانصهرت في صفوف المسلمين (وإلا فبم نفسِّر أن اليهودية كانت بالأساس ظاهرة شرقية إسلامية، توجد داخل العالم الإسلامي، ثم تحوَّلت بالتدريج إلى ظاهرة غربية مسيحية؟). بل إن عمليات الطرد التي تمت في بداية الحكم الإسلامي كانت نتيجة لخرق المواثيق مع المسلمين، وكانت تهدف إلى تأمين قلب الأمة الإسلامية. كما أن عقاب الطرد لجماعة بدوية كان عقابًا مقبولاً لدى الجميع، وكان يعني إعادة التوطين في منطقة أخرى. ألا يقف هذا دليلاً على أن التفكير البروتوكولي الذي يضع اليهود، كل اليهود، في سلة واحدة ويفترض استمراريتهم الوراثية عبر الزمان والمكان مناقض للقيم والممارسات الإسلامية؟

وقد سقط دعاة الخطاب شبه الإسلامي، بافتراضهم الاستمرارية الوراثية، في مقولات صهيونية، فهم يأخذون الآية الرابعة من سورة الإسراء ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) ﴾ (الإسراء ٤) ويفسرون النبوءة على أنها نبوءة خاصة بإعلان الدولة الصهيونية، مما يعني حتميتها وأنها قَدَر إلهي مع أنه جاء في **تجريد البيان أن** معنى الآية هو "ليحصلن منكم الفساد في أرض فلسطين وما حولها مرتين". وأضاف المفسِّر قائلاً: "إن قضاء الله على بني إسرائيل بالإفساد مرتين ليس قضاء قهر وإلزام، وإنما هو إخبار من الله تعالى بما سيكون منهم حسبما وقع في علمه الإلهي الأزلي" أي أن المفسِّر ينفي صفة الحتمية عن الإفساد. "أما بخصوص المرتين فقد قال ابن عباس: أول الفساد قتل زكريا والثاني قتل يحيى - عليهما السلام" -!

ونفس الشيء ينطبق على الآيات من ٥ : ٨ من سورة الإسراء :

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ۝٨ ﴾ .

جاء في **تجريد البيان** ما يلي تفسيراً للآيات السابقة :

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا ﴾ أي أولى المرتين من الإفساد ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا ﴾ (الإسراء ٥)، أي سلّطنا عليكم من عبيدنا أناساً جبارين للانتقام منكم ﴿ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ أي أصحاب قوة وبطش في الحرب شديد، قال المفسرون : إن بني إسرائيل لما استحلّوا المحارم وسفكوا الدماء سلّط الله عليهم بختنصّر ملك بابل فقتل منهم سبعين ألفاً حتى كاد يفنيهم هو وجنوده، وذلك أوّل الفاسدين ﴿ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ ﴾ أي طافوا وسط البيوت يروحون ويغدون للتفتيش عنكم واستئصالكم بالقتل والسلب والنهب لا يخافون من أحد ﴿ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ﴾ أي كان ذلك التسليط والانتقام قضاءً جزماً حتماً لا يقبل النقض والتبديل ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي ثُمَّ لما تُبتم وأنبتم أهلكنا أعداءكم ورددنا لكم الدولة والغلبة عليهم بعد ذلك البلاء الشديد ﴿ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ﴾ أي أعطيناكم الأموال الكثيرة والذُّرية الوفيرة، بعد أن نُهبت أموالكم وسُبيت أولادكم ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ أي جعلناكم أكثر عدداً ورجالاً من عدوكم لتستعيدوا قوتكم وتبنوا دولتكم ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ ﴾ أي إن أحسنتم يا بني إسرائيل فإحسانكم لأنفسكم ونفعه عائد عليكم لا ينتفع الله منها بشيء ﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ أي وإن أسأتم فعليها لا يتضرر الله بشيء منها، فهو الغني عن العباد، لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ﴾ أي إذا جاء وعدُ المرة الأخيرة من إفسادكم بقتل يحيى وانتهاك محارم الله بعثنا عليكم أعداءكم مرةً ثانية ﴿لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أي بعثناهم ليهينوكم ويجعلوا آثار المساءة والكآبة باديةً على وجوهكم بالإذلال والقهر ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي وليدخلوا بيت المقدس فيخربوه كما خربوه أول مرة ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً﴾ أي وليدمِّروا ويهلكوا ما غلبوا عليه تدميراً، فقد سلط الله عليهم مجوس الفرس فشردوهم في الأرض وقتلوهم ودمَّروا مملكتهم تدميراً ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ أي لعل الله يرحمكم ويعفو عنكم إن تُبتم وأنبتم، وهذا وعدٌ منه تعالى بكشف العذاب عنهم إن رجعوا إلى الله و﴿عَسَى﴾ من الله واجبه ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ أي وإن عدتم إلى الإفساد والإجرام عدنا إلى العقوبة والانتقام ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾ أي وجعلنا جهنم محبساً وسجناً للكافرين، لا يقدرون على الخروج منها أبد الآبدين. ولم يذكر **تجريد البيان** أي شيء عن الدولة الصهيونية.

وأحياناً تستخدم إسرائيل نفسها بعض التفسيرات الحرفية لتأتي بسند قرآني للدعاوى الصهيونية الخاصة بالاستمرارية الوراثية. ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢)﴾ (البقرة: ١٢٢). وجاء في سورة الجاثية ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦)﴾ (الجاثية آية ١٦). وما يفعله المفسرون الصهاينة أنهم ينزعون هذه الآيات من سياقها القرآني المركَّب المتكامل ثم يفرضون عليها معنىً صهيونياً، بحيث يصبح الشعب المختار، شعبا مختارا من خلال الوراثة الجنينية المادية، مع أن النص القرآني في كليته يقول عكس ذلك تماماً. فقد جاء في سورة البقرة ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠)﴾ (البقرة آية ٤٠). فالاختيار مشروط بالإيمان والوفاء بالعهد، وليس مسألة وراثية، كامنة في الجينات. ولذا جاء في سورة المائدة ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي

إسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (المائدة آية ٧٠). كما جاء في سورة الأعراف ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ (الأعراف آية ١٣٨). فالمسألة ليست غير مشروطة ولا مُطلقة، بل هي مشروطة ومقيَّدة، تماماً كما هو الأمر مع المسلمين "فنحن ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١٠) طالما نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونؤمن بالله، وإن لم نوفِ هذه الشروط فلا خير فينا ولا نفع، وما نحن بأمةِ المسلمين.

إن حَمَلة الخطاب شبه الإسلامي يفترضون وجود استمرارية وراثية (چينية) بين يهود الماضي والحاضر والمستقبل، وهذا هو أيضاً جوهر الصهيونية. وانطلاقاً من هذه الاستمرارية ذهب أحد حَمَلة هذا الخطاب شبه الديني إلى الإشارة إلى أن "اليهود هم قَتَلة الأنبياء"، وهو بذلك لم ينظر إلى الواقع لأن المستوطنين الصهاينة "لا يقتلون الأنبياء" لسبب بسيط وهو أنه لا يوجد أنبياء هذه الأيام. كما أنهم يقومون بقتل كل من يتصدى لهم، دون تمييز بين مسلم ومسيحي.

وحَمَلة الخطاب شبه الديني عادةً ما يتحدثون عن يهود المدينة وخيبر "وتآمرهم"... إلخ. وكيف أن نفس التآمر اليهودي مستمر، وكأنه جرثومة تنتقل من يهودي لآخر. وهنا يمكن أن نطرح الأسئلة التالية: هل كان هؤلاء اليهود يعرفون التلمود؟ وما هي كُتب المدراشيم التي كانوا يتداولونها جنباً إلى جنب مع التوراة؟ وبأي لغة كانوا يتعبدون؟ ومامعنى أن بني قريظة وبني النضير من الكوهانيم (أي الكهَنة من نسل هارون)، مع أن نظام الكهنوت اختفى في اليهودية بعد سقوط الهيكل في ٧٠ ميلادية؟ هل صيغة اليهودية التي كانوا يؤمنون بها مختلفة عن اليهودية الحاخامية؟ ثم ما موقف يهود العالم آنذاك من يهود الجزيرة العربية؟ هل كانوا على صلة بهم أو لا؟ وهل كانوا يعترفون بهم يهوداً؟ والإجابة على بعض هذه الأسئلة معروف: فيهود الجزيرة العربية كانوا قد انفصلوا عن يهود العالم وعن المراكز الدينية الأساسية لليهودية الحاخامية. ويبدو أن انفصالهم هذا تم

قبل اختفاء مؤسسة الكهانة. ولهذا، كان يهود العالم لا يعتبرونهم يهوداً، أي أن افتراض استمرارية اليهود لا يفترضها القرآن ولا تسندها الوقائع التاريخية.

وهذا يثير قضية أساسية: هل مصطلح «يهودي» في القرآن يشير إلى يهود المدينة، أو إلى يهود العالم المعاصرين للبعثة المحمدية أو ليهود العالم في الماضي والحاضر والمستقبل، أم أنه لا يشير إلى يهود العصر الحديث، فهؤلاء ليسوا أهل كتاب، فغالبيتهم الساحقة - كما أسلفنا - إما ملحدين أو يؤمنون بصيغ من العقيدة اليهودية تُسقط مفاهيم أساسية مثل الإيمان بالبعث واليوم الآخر.

ثم يمكن أن نتساءل هل المسلم ملزم بالتعريف الإسلامي لليهودي (من أهل الكتاب، يؤمن بكتاب مقدس ومن ثَمَّ بالله وباليوم الآخر) أو بالتعريف اليهودي (من يؤمن باليهودية ومَنْ وُلد لأم يهودية)؟ والسؤال طبعًا خطابي، فالمسلم ملزم بالتعريف الإسلامي وحده، ومن ثَمَّ فالغالبية الساحقة ليهود العالم لا ينطبق عليها التعريف الإسلامي لليهود!

ويقول بعضهم إننا إن استبعدنا مفهوم الاستمرارية وإن ابتعدنا عن كُره اليهود وإن نظرنا لإسرائيل باعتبارها دولة استعمارية استيطانية إحلالية، نكون قد استبعدنا البُعد الديني من الصراع، والبُعد الديني هو الذي يحرِّك الجماهير. وأنا أتفق تماماً على أن البُعد الديني شيء جوهري في الإنسان، فهو من صميم إنسانية الإنسان، وهو ما يفصله عن الحيوان الأعجم وعالم المادة، ولذا فالبُعد الديني له أبعاده المعرفية والعملية الإجرائية والأخلاقية الدينية، وهو الذي يدفع الإنسان لتجاوز واقعه المادي المتردي ويجاهد. ولكن يجب أن نذكِّر أنفسنا - كمسلمين وكعرب - أننا لا نحارب إسرائيل لأننا نكره اليهود، بل نحارب الصهيونية وإسرائيل لأننا نكره الظلم ونود إقامة العدل في الأرض، وهذا ما تعلمناه من الإسلام ومن حضارتنا العربية. فالإسلام ليس هوية عِرْقية تنادي بأن "المسلمين فوق الجميع" وإنما هو منظومة قيمية نؤمن بها ونحتكم إليها، كما يمكن للآخرين الاحتكام إليها ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾ (آل عمران ٦٤)، ووجه الخطاب بقوله

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ﴾، هذه هي رسالة المسلمين والعرب، وهذا هو الخطاب الجهادي الإسلامي الذي يعبئ جماهيرنا تعبئة صحيحة ويحدد لها الأولويات. تقول الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ (المائدة ٨). وجاء في تفسيرات **تجريد البيان** أن معنى الآية "كونوا مبالغين في الاستقامة بشهادتكم لله، تشهدون بالعدل ولا يحملنكم شدة بغضكم للأعداء على ترك العدل فيهم والاعتداء عليهم"، فالبُغض ليس هو الأساس وإنما هو العدل.

إن العدل هو القيمة الإسلامية الأساسية وليس كُره اليهود. ولذا حينما هاجم الفرنجة (الذين استخدموا ديباجات مسيحية لشن الغارات علينا ورفعوا الحراب باسم نبي السلام)، أقول حينما هاجموا أرض فلسطين واغتصبوها وأسسوا ممالكهم فيها، حاربناهم وصددناهم عن ديارنا لا لأننا نكرههم وإنما لأننا ضد الظلم. وحتى لو غزا فلسطين فريق من المسلمين، فسنقف ضدهم لنصدهم عن الظلم الذي ارتكبوه. وقد جاء في الذكر الحكيم: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ (الحجرات ٩). وجعل نهاية القتال هو الانتهاء عن الظلم ﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾ (البقرة ١٩٢). ﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ (البقرة ١٩٣).

ومن الشائع الآن أن هؤلاء الذين يريدون أن يؤسسوا الجهاد على أساس الكُره يقتبسون الآية ٨٢ من سورة المائدة: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ ويتركون عشرات السور الأخرى التي أوردناها من قبل. وهم يقتبسون هذه الآية وينزعونها من سياقها ويجتزئونها، فهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، فهي عملية انتقائية تطوِّع النص المقدَّس بدلاً من طاعة ما جاء فيه، ومحاولة تنفيذه. وهم يتجاهلون أن السورة لا تدعو إلى بُغض اليهود وإنما تنبِّه إلى أن بعض اليهود يبغضوننا، فهي ليست دعوة وإنما وصف لحالة، وهي حالة لا

يتقبلها الإسلام ولا يحبذها . وهم إلى فضل ذلك يتجاهلون أسباب النزول، فقد نزلت السورة في النجاشي وأصحابه، ومن ثَمّ فالسياق مقيَّد ومن العسف إطلاقه . وحينما نشبت الحروب مع بيزنطة ثم مع ممالك الفرنجة، هل ظل اليهود هم أشد الناس عداوة أم أن الأمر قد تغيَّر؟ فكثير من اليهود حاربوا في صفوف المسلمين ضد بيزنطة وممالك الفرنجة . وقد حدث نفس الشيء في شبه جزيرة أيبريا، حتى أن كثيراً من أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب اتُهموا إبّان تلك الفترة بالتجسُّس لحساب المسلمين . ولم يكن هذا الاتهام بلا أساس، إذ قام بعض اليهود بالفعل بإرسال معلومات عن حملات الفرنجة قبل وصولها إلى بلادنا . وكان اليهود يعتبرون حلفاء للمسلمين حتى أن بعض الرسوم المسيحية في العصور الوسطى تصوِّر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يجلد المسيح مع اليهود .

وفي تعليقه على آية ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ (المائدة ٨٢)، قال الشيخ القرضاوي إن هذا لا ينطبق إلا على الوضع الذي كان أيام الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ "فبعد ذلك دخل اليهود في ذمة المسلمين وعاشوا بينهم آمنين ولم يجدوا داراً تؤويهم إلا دار المسلمين، وكانوا يعيشون بين المسلمين على أفضل مايكون أصحاب ثروة ونفوذ، لم يكن بيننا وبينهم صراع إلا صراعاً ثقافياً أحياناً، إنما أنا أقول من الناحية الدينية اليهودي مثل النصراني من أهل الكتاب، حتى في هذا العصر مع اعتداءاته، لا أغيِّر الحقائق من أجل العدوان . لابد أن نعطي كل ذي حق حقه" . ثم أضاف الشيخ القرضاوي : "إن الصراع بيننا وبين اليهود صراع على الأرض لا من أجل يهوديتهم، لأنهم أهل كتاب يجوز مآكلتهم ومصاهرتهم" .

ويقول فضيلة الشيخ الدكتور علي جمعة، أستاذ أصول الفقه بكلية الدراسات العربية والإسلامية بجامعة الأزهر : إن المقصود باليهود هنا تلك الصفات الذميمة التي ذكرها الله بإزاء هذه الفئة في القرآن، فإذا تخلى أهل الديانة الموسوية عن تلك الصفات الذميمة لم يكونوا أشد عداوة، وكذلك يُقال في النصارى فإن صفات معرفة الحق ورقةَ القلب وفيضان العين بالدمع هي التي تجعلهم أقرب مودة، فإذا

اتبعوا الحرب والقتال وسفك الدماء لم يكونوا ممن وصف الله سبحانه وتعالى في الآية.

إن التفكير البروتوكولي التآمري يخفق على جميع المستويات المعرفية والعملية الإجرائية والأخلاقية الدينية. أما التفكير الديني الصحيح فلا يدعونا إلى السلوك تجاه الآخرين انطلاقاً من الحب أو الكُره. فنقطة الانطلاق الإسلامية الحقة هي إقامة العدل في الأرض وصد الظالمين، مهما كانت ملتهم وعقيدتهم. والإسلام يؤكد لنا أن هؤلاء الظالمين ليسوا شياطين وإنما هم بشرٌ مثلنا، وهو لذلك يدعونا للجهاد ضدهم كما فعل المتنفضون، الذين آمنوا بالله وتوكلوا عليه واستبشروا خيراً وانطلقوا وأبدعوا كما سنبيِّن في الفصل التالي.

الفصل الثامن

من البروتوكولات إلى الانتفاضة

خطاب **البروتوكولات** والمؤامرة هو خطاب الهزيمة والأحزان ولطم الخدود، هو شكل من أشكال ذم الدهر والبُكاء الحديث على الأطلال. في الماضي كان يقف الشاعر ليتذكر الأحبة الذين رحلوا، فيذرف الدمع تأكيداً لتضامنه الإنساني في مواجهة طبيعة قاسية تضطر الإنسان للرحيل من مكان إلى مكان، أما البكاء الحديث على الأطلال فإنه يحجب الرؤية ويمنعنا من فهم واقعنا ويضخِّم عدونا فنُصاب بالشلل ونتوقف عن الحركة والإبداع. ولذا من مصلحة عدونا أن يبث في قلوبنا الخوف والرعب من قوته وبطشه، تماماً كما تفعل **البرتوكولات**.

بعد نكسة عام ١٩٦٧ ضخَّم العدو من قوته بطريقة بروتوكولية، وتحدَّث عن خط بارليف باعتباره أكبر وأضخم وأقوى حاجز أو مانع عسكري في التاريخ، بُني من طبقات وطبقات من الأسمنت والحديد تحت الأرض، ثم غُطي بالتراب بحيث إنه حتى لو سقطت عليه قذيفة زنة كذا طن فإنها تغوص في التراب دون أن تترك أي أثر. ثم تطوع العدو بإخبارنا بأن خط بارليف المنيع مزوَّد بخراطيم ترش النابالم التي يمكن أن تحرق كل من تسول له نفسه أن يعبر الحاجز المائي، أي قناة السويس. وجلس جنود العدو داخل خط بارليف المنيع الحصين وأعلنوا نهاية التاريخ، فقد وصلوا للحدود الجغرافية الآمنة! وكأن ما جاء في **البرتوكولات** حقيقة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

ثم دحرجنا عن أنفسنا عار الهزيمة ونفضنا عن أنفسنا غبار الخوف وأبدعنا فدخلنا حرب الاستنزاف، ونزفنا العدو الذي اضطر لأول مرة في تاريخه أن يزيِّف

الحقائق ويكذب على شعبه (كما اتضح من وثائق الحكومة الإسرائيلية التي رُفع الحظر عن نشرها).

ثم وصل الإبداع إلى إحدى قممه في حرب عام ١٩٧٣ وسقط خط بارليف مما اضطر الجنرال بارليف نفسه إلى التبرؤ من خطه وأعلن العدو أن هذا الخط الحصين المنيع ليس منيعاً أو حصيناً إلى هذه الدرجة وأنه في واقع الأمر يشبه قطعة الجبن! المليئة بالثقوب، وسبحان مغيِّر الأحوال. وانتفض اللبنانيون وفر العدو من لبنان إلى الحزام الأمني، أي جنوب لبنان ثم فر منه بعد قليل في جنح الظلام، تاركاً وراءه عملاءه وزبانيته.

وكان الفلسطينيون يرزحون تحت مستعمر باطش لم يعرف له البشر مثيلاً، يمتلك واحداً من أقوى جيوش العالم، ولكنهم نفضوا عن أنفسهم غبار الهزيمة والخوف وانتفضوا انتفاضتهم الأولى ثم انتفاضة الأقصى وأبدعوا قصصاً أسطورية ونسجوا أناشيد البذل والتضحية، وهي قصص وأناشيد رصد معظمها الصحف الغربية والإسرائيلية، ورصد بعضها الصحف العربية.

وقد تعرفت على صديق فلسطيني في إحدى العواصم العربية، ولاحظت تدفق الشعر منه، مع أنه ليس شاعراً، فهو موظف يجلس أمام مكتبه يصور ويكتب وينسخ، ولكنه تماماً مثل اللاجئ الفلسطيني يستمر في حياته ويزرع الزهور. وأذكر أني سألته ذات يوم عن معنوياته فقال لي: "أعلى من إيريال التليفزيون" فاندهشت من هذه الصورة المجازية، وحينما عُدت إلى منزلي، وبدأت أحلِّلها، اكتشفت جوهر الانتفاضة: هذه الحركة التي رفضت أن تركع أمام التفوق التكنولوجي، الذي ركعنا جميعنا أمامه، والذي نركض كلنا نحوه للحاق به (وبأوربا). وبدلاً من ذلك عاد المنتفضون إلى الذات، وإلى السر والشعر والألوان داخلها، ثم خرجت العنقاء قوية تحمل حجراً فازددنا عزة - والله أكبر. إن أحاسيس هذا الصديق هي عكس أحاسيس من يقرأ **البرتوكولات**، فبدلاً من أن يشعر بالخوف، شعر بالعزة والكرامة والثقة بالنفس فازداد إبداعه. وحينما أبدع تقدَّم، وحين تقدَّم تراجَع العدو ثم فرَّ وبدأ يتحدث عن النهاية.

ولنبدأ بالحديث عن الإبداع في الانتفاضة المباركة الأولى. ويلاحظ أن كل الأسلحة، وأشكال النضال التي سنتناولها تنتمي إلى النموذج الذي يقال له Con-servationist أي أنه يحتفظ بالطاقة ويقوم بعملية recycling، أو التدوير أي استخدام نفس المواد في عدة دورات، على عكس النموذج الغربي المبني على تبديد الطاقة وعلى استهلاك المادة والإنسان.

ابتداءً يمكن القول إن اختيار الحجر سلاحاً كان قمة حقيقية في الإبداع، بل إنني أذهب إلى أن النموذج الانتفاضي وصل إلى قمة تبلوره في إلقاء الحجارة، وكل شيء آخر في هذه الانتفاضة هو مجرد تنويع على إلقاء الحجارة. ولكن كيف يمكن أن نقول إن عملية إلقاء الحجارة تبلور رؤيةً ونموذجاً؟ أليس إلقاء الحجارة حقيقة مادية؟ وهذا الشيء المستدير المستقر على الأرض الذي يسمَّى «الحجر» أليس شيئا مادياً مصمتاً، منغلقاً على نفسه؟ وواقعة أن إنساناً ما يلتقط هذا الحجر ويُلقي به على رأس آخر هي أيضاً أليست مجرد واقعة مادية؟ الإجابة عن هذه الأسئلة ستكون بالإيجاب إن تم النظر إلى الشيء وإلى الواقعة من الخارج بشكل مادي. ولكنهما يكتسبان دلالة عميقة ومعنى رمزياً يتجاوزان الحركة الخارجية إن تم رصدهما من الداخل وعرفنا أن الحجر حجر فلسطيني التقطه من الأرض الفلسطينية شاب فلسطيني غاضب، يحمل في داخله الشرارة الإلهية والتطلعات البشرية وألقى به على عدو غاصب يحمل آلة الدمار! هنا يتحول الشيء إلى معنى له دلالة تتجاوز الواقعة المادية، "فيتجلَّى السر وينطق الحجر"!

بهذا المعنى نقول: إن إلقاء الحجارة سلاح لدحر العدو، وفي الوقته نفسه رمز متبلور لهذا الشيء الأساسي والجوهري الكامن خلف السطح الذي يعلن الفلسطينيون عن وجوده، وأنهم لا يخافون العدو وأنهم سيبدعون في نضالهم ضد عدوهم. ونحن إذا نظرنا إلى الحجر وجدنا أنه يتسم بالصفات التالية:

* الحجر متوفر في كل مكان ولا يستورد من الخارج.

* الحجر يمكن استخدامه عدة مرات، وربما إلى ما لا نهاية، أي أنه يمكن تدويره.

* الحجر سلاح لا يمكن نزعه أو مصادرته.

* لا يتطلب استخدام الحجر دورات تدريبية أو حلقات توعية.

* بوسع الإنسان أن يلقي بالحجر ويفر فيضمن لنفسه البقاء.

* يسبب الحجر الألم والأذى، ولكنه ليس مدمراً، ولذا فإن أمسك العدو برامي الحجر (خاصةً في وجود وسائل الإعلام) فلن يمكنه استخدام آلته العسكرية ضده إلا بحذر شديد.

* لا يتطلب النضال بالحجارة عملية تنظيم مركزية أو قيادة قوية.

* يمكن لكل الناس من كل الأعمار استخدام الحجر وارتجال طريقة إلقائه بالطريقة التي تريحهم وتضمن في ذات الوقت إصابة الهدف.

وتشير **الجيروساليم بوست** (١٩ فبراير ١٩٨٨) إلى أحد منشورات الانتفاضة في غزة التي تنادي على «جنرالات الحجارة المقدسة أن يستمروا في إذلال جنرالات آلة القمع الهمجية». فلن نخاف العدو الذي كان يحاول بث الهزيمة في نفوسنا، ولن ترهبنا ادعاءاته عن نفسه.

وتزايد الإبداع وتحسنت كفاءة المنتفضين وبدءوا في استخدام الوزنة الحديدية بدلاً من الحجر. والوزنة بالنسبة للحجر كالمدفعية الثقيلة بالنسبة للبندقية، فاستخدامها شكل من أشكال التصعيد ولا شك، ولكن مع هذا تظل الوزنة تنويعاً على الحجر. ويبدو أن إخفاء الوزنة أمر أسهل بكثير من إخفاء كمية من الحجارة، كما أنها لا تترك أثراً في يد صاحبها بعد أن يلقي بها.

ويبدو أن جنود العدو كانوا قد بدءوا يتعرفون على راشقي الحجارة عن طريق التراب الذي يظل عالقاً بأيديهم. فالوزنة حلت هذه المشكلة كما أن المنتفضين جنَّدوا الأطفال والصغار ليحملوا فوطة مبللة يغسل راشق الحجارة بها يده بعد فراغه من فعله البطولي. ولنتخيل هذا الطفل الذي يحمل الفوطة المبللة وإحساسه

بالكرامة، ولنتخيل كيف سيعود إلى منزله ليحكي لأمه ولأبيه ما فعل فتزداد درجة الثقة بالنفس والإحساس بالعِزة والكرامة.

ومن أكثر أشكال التعبير عن الهوية إبداعاً، ومن أكثرها حرصاً واستفزازاً في ذات الوقت حيلة البطيخة التي تنتمي إلى نموذج التدوير. فمن المعروف أن القانون الإسرائيلي قبل إعلان السلطة الفلسطينية كان يمنع رفع العلم الفلسطيني ويقدم المتهمين للمحاكمة. وقد قالت رئيس اتحاد المرأة الفلسطينية: إنه يوجد في مكتبها أعلام فلسطينية، وتحدثت عن أهمية الألوان التي تشكل رمزاً مهماً للغاية في أعمال الاحتجاج. ولو كانت المسألة عامة تراكمية لأخذ الفلسطينيون الأعلام وخرجوا في مظاهرة "كما هو الحال في كل زمان ومكان". ولكن إبداع المتنفضين يصل إلى ذروته هنا فيلجئون لحيلة البطيخة التي كتبت عنها الصحافة الأجنبية ولكن لم تكتب عنها الصحافة العربية - ربما لأن البطيخ فاكهة شعبية «غير محترمة» ليست مثل التفاح مثلاً أو حتى المشمش. فعند مرور القوات الإسرائيلية يقوم الفلسطينيون بقطع بطيخة إلى نصفين ثم يرفعون أحد النصفين «والحدق يفهم». فألوان البطيخة المقطوعة حمراء وقشرتها خضراء وبيضاء وبذورَها سوداء - وهي ألوان العلم الفلسطيني (**الشرق الأوسط**، ترجمة لمقال في الأوبزرفر ٢١ ديسمبر ١٩٨٧). ولعل عملية قطع البطيخة في حد ذاتها تذكِّر المستعمر الإسرائيلي بأشياء كريهة أخرى يقال لها إرهابية - أي أن قطع البطيخة أكثر عمقَاً من مدلوله من مجرد رفع العلم. وهو سلاح مبتكر تماماً مثل إلقاء الحجارة والأغاني. وهو أيضاً سلاح رخيص ومُتاح يوجد عند الفكهاني في أي وقت، ولا يمكن لعدو مصادرته وإن فعل يصبح أضحوكة أمام العالم. وهو سلاح اقتصادي للغاية يمكنك أن تأكله بعد أن تناضل به. وحسب علمي هو السلاح النضالي الوحيد في العالم الذي يؤكل (تماماً مثل عروسة المولد التي يلعب بها الأطفال ثم يأكلونها هنيئاً مريئاً). ويمكن للجميع استخدام سلاح البطيخة من سن السابعة وإلى سن السبعين. وهو أيضاً يستفز العدو دون إعطائه الفرصة للبطش. والبطيخ سلاح فلسطيني شعبي مائة في المائة، شأنه شأن الأسلحة الأخرى، ولا أعتقد أن من يأكل كثيراً من الهامبورجر ويسمع كثيراً

من الديسكو ويقود سيارة قادر على أن يستخدم البطيخة كعلم فلسطين والأغنية كنظرية ثورية والحجارة كسلاح .

ويبدو أن أحد الأطفال الفلسطينيين لم تتوفر لديه بطيخة فرسم علم فلسطين على «ورقة لحمة» وجلس إلى جواره، كما قال مراسل **الجيروساليم بوست**. وعلى مقربة منه صنع آخر مدفع كلاتشنيكوف من بعض الأسلاك ومواسير الري التي أحضرها أبوه من إحدى المزارع الجماعية (الموشاف) الإسرائيلية. وقد لاحظ المراقبون أن أطفال غزة ابتكروا وسائل لمواجهة قنابل الغاز المسيلة للدموع بأن قاموا بنقع ورق التواليت بالكولونيا وحولّوه إلى أفضل سلاح مضاد لهذه الغازات (**الوطن** ١٦ يناير ١٩٨٨).

وقد كنت قد كتبت منذ عدة سنوات عن كيف حوّل اليابانيون واحدة من أسوأ تقاليدهم (وهي الانتحار) إلى شكل من أشكال النضال التي كان يُطلق عليها «الكاميكازي» وهي أن يقوم قائد الطائرة بطلعة انتحارية فيقوم بتحطيم نفسه وتحطيم أعدائه. وقد ولّد هؤلاء المنتحرون الرعب في قلوب أعدائهم بتحويلهم الانتحار (الذي كان يمكن أن يوصف بأنه تعبير عن تخلُّف الشخصية الشرقية) إلى شكل من أشكال النضال. وقد فعل الفلسطينيون شيئاً مماثلاً، إذ وظّفوا الموت والموتى وجنّدوهم في صفوف الانتفاضة وقاموا بتدوير جثامينهم. فقد قال أحد القواد: "إن الخوف ممنوع"، ثم أضاف: "تعتقد سلطات الاحتلال أنه إذا ما مات أحدنا وأخذوا جثته لدفنها ليلاً تتراجع المظاهرات. ولذا فأسلوبنا الجديد هو خطف الجثمان من المستشفيات ودفنها في مظاهرات عفوية. [مظاهرات عفوية تم تنظيمها من قبل!]. لذلك حرّمنا على الأطباء تسليم الجثمان إلى الجيش. أكثر من ذلك، لا يسيطر الأطباء على الوضع، لذلك لا توجد مشاكل لدينا في استعادة الجثمان ودفنه. لقد استعدنا في الأيام الأخيرة أربع جثامين وقمنا بالجنازات ليلاً محولين كل تشييع إلى مظاهرة صاخبة يخرج الجميع للمشاركة في الجنازة. كما حدث في خان يونس حيث لم يبق أحد في بيته إلا وسار خلف النعش (٣٥ ألف مواطن). وقد

تمكننا في هذه الجنازة من جرح سبعة جنود (**اليوم السابع ٤ يناير ١٩٨٨** «الثلاثاء الدامي في الأرض المحتلة») .

إن الشكل الانتفاضي هنا يؤكد استمرارية النضال أكثر من تصعيده، كما أنه أخذ أحد الأشكال المحلية وهو أن حمل الجثمان إلى مثواه فيه خير وبركة ويجازى عليه المسلم.

وقد طُبِّق نموذج التدوير على السجون التي تحوَّلت بفضل التماسك إلى أكاديميات لتخريج المنتفضين. وكيف يدخل الأبرياء الذين يشتركون في مظاهرة مثلهم مثل الألوف الأخرى، ويتخرجون من الأكاديمية وقد ازداد وعيهم وأصبحوا كوادر انتفاضية! . وكيف تخطط الإضرابات داخل السجون لزيادة التراحم بينهم في مقابل العدو. وكيف حينما يخرج المسجون فإنه يعود بطلاً في الحي، نموذجاً انتفاضياً جديداً، ينظر إليه الأطفال والشباب والكهول. وهكذا يتحول غيابه السابق في السجن إلى حضور ثري ينير العقول والقلوب (يقال إن معظم العناصر القيادية من خريجي هذه الأكاديميات). والمساجين لايختلفون هنا عن الشهداء.

التصعيد كشكل من أشكال الإبداع

وحتى لا يشعر العدو بأية راحة يرسل له المنتفضون من آونة لأخرى رسائل تؤكد له أن إبداعهم لن يهدأ، وأن مقاومتهم ستأخذ أشكالاً مختلفة لا تنتهي - أي أن ثمة تصعيداً دائماً. ولكن ما هو مستمر إن اتبع نفس النمط أصبح من الممكن التنبؤ به ومن ثَمَّ حصاره، ولذا إلى جوار الاستمرار هناك تغيير الأساليب النضالية "كجزء من استراتيجية عامة في مواجهة الممارسات والتكتيكات الإسرائيلية لقمع الانتفاضة" . وبالفعل نجد أن الانتفاضة انتقلت من المظاهرات الحاشدة وإلقاء الحجارة على جنود الاحتلال في المراحل المبكرة إلى المقاطعة لكل ما هو إسرائيلي ورفض التعاون مع سلطات الاحتلال، وأخيراً إلى إلقاء القنابل الحارقة وإشعال الحرائق في الغابات والمزارع الإسرائيلية (**واشنطن بوست في الشرق الأوسط ٣٠ يونيو ١٩٨٨**).

وقبل أن نتناول بالتحليل حرب النار التي تُعدُّ من أهم أشكال التصعيد والإبداع قد يكون من المفيد أن نذكر بعض الحقائق للقارئ عن المعنى الداخلي للغابات. كانت زراعة الغابات تعبِّر عن «العمل العبري»، والعمل العبري هو خلاص للأرض من العربي وللذات اليهودية من أدران المنفى. ولذا بينما كان يتم زراعة غابة هرتزل في بداية هذا القرن حدث وأن غرس بعض العمال العرب بعض الأشجار فقام الصهاينة العماليون باجتثاثها من الأرض ثم زراعتها مرةً ثانية حتى لا يُدنِّس العمل العربي الزراعة والغابات الصهيونية. وزراعة الغابات تسلية كبيرة ليهود العالم وللصهاينة التوطينيين، أي الذين لا يستوطنون ويكتفون بمساعدة الآخرين على الاستيطان. وقد أطلقت الدولة الصهيونية أسماء أساطين الاستعمار وزعماء العالم الغربي وقيادة الحركة الصهيونية على هذه الغابات: فهذه غابة بلفور وتلك غابة تشرشل وهذه غابة كنيدي.

ولكن ها هي النيران تشتعل خارج الأساطير الصهيونية، فاشتعل ما يقرب من ٤٠٠ من الحرائق أجهزت على ما يزيد على أكثر من مائة ألف دونم من الأراضي المزروعة أو المشجَّرة وبما يقرب في قيمته من مائة مليون مارك ألماني (٥٠ مليون دولار أمريكي) أي مايزيد على الخسائر التي مُنيت بها الدولة الصهيونية نتيجة الحرائق في السنوات العشر الأخيرة (د. أسعد عبد الرحمن، «حرب النار إبداع جديد للانتفاضة» **القبس** ٩ يوليو ١٩٨٨).

واندلعت النيران في "غابات الكرمل في حيفا، ومنطقة أدولام في الجنوب، وقطاع غزة، والتلال الكثيرة في الجليل. وتقول التقارير: إن أكثر من نصف مساحة الغابات والأحراش في منطقة الجولان قد تحولت إلى رماد على أرض عارية. وفي منطقة ملاصقة لمنزل رئيس وزراء إسرائيل الأسبق، مناحم بيجن، في القدس شبت النيران في غابتين صغيرتين، الأسبوع الماضي".

كما تم نقل حرب النيران إلى تل أبيب "فمن على سطح مركز ديزنجوف التجاري الضخم، أُلقيت في الأسبوع الماضي ثلاث قنابل حارقة على السيارات والمارة، في واحد من أكثر شوارع المدينة اليهودية ازدحاماً. ورغم أنه لم تقع

ضحايا، ولم تحدث أضرار مادية تُذكر، إلا أن الرعب كان شديداً. وتقول صحيفة **حداشوت** الإسرائيلية: "لم تعد الاضطرابات في الباحة الخلفية، بل في غرفة جلوسنا" (**دير شبيجل**).

وقد أخبرني أحد الأصدقاء أن المنتفضين يقومون بأخذ حَمَام في المزارع الإسرائيلية ثم يزودونه بفيلينة تشعل الحرائق ويطلقونه ليعود كما تُملي عليه غريزته - إلى منطقة سكناه، وفي الطريق يشعل الحرائق. وهذا الأسلوب النضالي يشبه من بعض الوجوه حيلة البطيخ والراية.

وتدل استجابة الإسرائيليين المتأخرة على أنهم لم يكونوا معدين لهذه الهجمة. فقد صرح موشيه بن أهارون، وزير الغابات الإسرائيلي بأن: "إشعال الحرائق من أساليب الثائرين في الانتفاضة، ومع أن هذا من الأمور المتوقعة في حروب الثائرين إلا أننا لم نواجه مثل هذه الكارثة من قبل".

ومن أساطير الفلكلور السياسي العربي البروتوكولي عن الصهاينة أنهم يعرفون كل شيء عن كل شيء وأن ملفاتهم دائماً كاملة، وأن المخطط الصهيوني قد أُعد بعد تخطيط دقيق وأنه يجري تنفيذه بحذافيره وكأننا دمى خشبية يمسك بها الصهاينة. ولعل الانتفاضة أثبتت أن الصهاينة لا يمسكون بأي خيوط وأننا لسنا بالضرورة عرائس خشبية، وإنما يمكن أن نعدو نحو النجوم والسحاب والسماء ونأكل الخبز والزعتر والزيتون ونلقي بالحجر ونشعل النيران ونحوِّل الحقيقة إلى عدل.

وقد كتب المعلِّق العسكري الإسرائيلي، زئيف شيف يقول: "سوف نكسب المواجهة في قطاع غزة، ولكن يجب ألا نخدع أنفسنا. هناك حمم تغلي تحت السطح في القطاع، وهي السبب الرئيسي للانتفاضة. وهذه الحمم سوف تنفجر مرةً أخرى في مكان آخر. وكل ما نستطيع أن نعمله، بواسطة القوات الإسرائيلية المسلحة وأجهزة الأمن الأخرى، هو تحديد مكان النار.. وليس إخمادها" (**الانديبندانت** زئيف شيف «استعمال القوة يحدد النار ولا يخمدها»).

تحدثنا عن إبداع المنتفضين في أسلحتهم ولنتحدث الآن عن إبداعهم في حركتهم. كان المنتفضون يقسمون أنفسهم إلى جماعات توظف كل واحدة منها لتحقيق هدف محدد تم تعريفه بطريقة رخوة، أي بطريقة تسمح بالكر والفر وبالإبداع التلقائي حيثما تقتضيه مستجدات الموقف. يبدأ الاشتباك باستخدام الأطفال الذين لا يتجاوزون الخمس أو الست سنوات، فيرسلون بهم ليتحرشوا بالقوات الإسرائيلية. فمثلاً تذكر **الجيروساليم بوست**، كيف أرسل الشباب طفلاً في الخامسة من عمره، يحمل قوساً وسهماً وجههما إلى جنود الاحتلال، بحيث ضحك الفلسطينيون واغتاظ الجنود للغاية. وقال أحدهم: "زفت، حتى الأطفال لا يخافون منا الآن" (٧ فبراير ١٩٨٨). (ويسمى هذا في التكتيك العسكري رفع روح المعنويةَ. ومن المعروف أن الانتصار العربي الإسلامي على التتار بدأ حينما رفض السلطان المملوكي قُطز رسالة سلطان المغول التي هدده فيها وتوعده بفظائع الأمور. ثم قام بقتل حملة الرسالة وعلق رءوسهم على بوابات القاهرة حتى يعبر العرب والمسلمون حاجز الخوف)، أي أنه رفض بروتوكولات حكماء المغول!

ذكرت **التايمز** وصفاً لإحدى العمليات الانتفاضية (**الشرق الأوسط** ١٦ فبراير ١٩٨٨). ظهر المنتفضون وكأنهم مجموعة من الشباب لا تسير وفق مخطط مدروس. ولكن ما أنْ وصل جنود الاحتلال حتى بدأت رقصة الحرب التي شرحها قائد المجموعة: "إننا نتبع أسلوب المجموعات والفرَق الصغيرة، فهناك فرَق هجومية، كما أن هناك فرَقاً دفاعية والأكثر جرأة وسَرعة من الشباب هم الَذين يشكلون الفرَق الهجومَية إذ يتولون مهمة الجري إلى الأمام وقذف الجنود الإسرائيليينَ بالحجارة".

وبعد قليل وصلت إشارة من المجموعة الاستكشافية التابعة لمجاهدي الحجارة بأن دورية إسرائيلية تحاول الالتفاف عليهم من الخلف. وكان الجميع يعرف ماذا عليه أن يفعل إذ اختفى الشباب في البيوت وأسطح المنازل (يقول ماوتسي تونج إن عضو المقاومة الشعبية مثل السمكة التي تسبح في المياه، فهو يتمتع بثقة الجماهير،

على عكس جنود الاحتلال والقهر الذي يتحركون في بيئة ترفضهم ومحيط إنساني يود أن يفتك بهم). وهذه هي إحدى قوانين الحرب الشعبية الأساسية التي أدركها المنتفضون دون دورات تدريبية!

ووصفت **الجيروساليم بوست** معركة أخرى بأنها «معركة تشبه الرقصة المُحكمة» (بقلم جول وجيرنبرج): "بدأ الأولاد بالجري وراء الدخان وألقوا بالحجارة، ثم ظهر صبي عمره ١٤ عاماً لعب دور القائد فتلثم بالكوفية وبدأ بالكر والفر أمام المجموعة ملقياً بالحجارة، ثم يتقهقر وينزع كوفيته ويملأ كفيه بالحجارة ويعود. ثم خرج صبيان يرتديان سُترة سوداء إلى المتاريس المحترقة. وأشاروا بعلامة النصر وقالوا بالعبرية «بوهَنا» أي «هنا هنا» (بالعبرية والعربية) لإغاظة الجنود. وبالطبع لم يأت الجنود مما ولّد إحساساً بالانتصار في الجيرة كلها. وقالت امرأة: "اليهود خائفون من الحضور" (فهم ليسوا القوة المرعبة التي تتحدَّث عنها **البروتوكولات**). وقد كان الصبية هم الطليعة في هذه المعركة الراقصة، فهم الذين يعبرون إلى الأمام وهم الذين كانوا يشعلون الإطارات. "وكانت النسوة يقمن بتزويدهم بالعون المطلوب من الخلف، ويقمن برصد الجنود من الشرفات وتزويد المقاتلين بالمعلومات المطلوبة عن الجنود". وقد أنهى الكاتب مقاله بجملة دالة رائعة تلخص الموقف: «لقد تم تجنيد الحجارة والناس».

ويظهر إبداع المنتفضين في حركتهم في المثال التالي: عندما بدأت الانتفاضة كان يلجأ بعض راشقي الحجارة إلى مدارس البنات للهرب من المطاردين الإسرائيليين، فكانت البنات تصرخ بسبب فجائية الموقف، ولكن تعلَّم الجميع كيف يعزف لحن الانتفاضة المستمر. ولذا حينما يدخل أحد المتنفضين مدرسة بنات فإن الجميع يتحرك بتلقائية متعمدة ويختفي المتنفض. وقد يظهر المتنفض فجأة أمام مكتب إحدى الموظفات وبالتلقائية المتعمدة نفسها تعطيه شهادة حُسن سير وسلوك لأخته التي حضر من أجلها، وليغوص العدو في هذا البحر الإنساني، إذ لا توجد آلة واحدة قادرة على مساعدته في اجتيازه.

كما يتضح الإبداع في الحركة في نجاح أهل الضفة والقطاع في تدريب أنفسهم

تماماً حتى أصبح بوسعهم أن ينجزوا في ساعتين أو ثلاث ما لا يستطيع غيرهم إنجازه إلا في يومين أو ثلاثة، وهذا يتطلب تدريب كل أفراد الجماعة على الحركة المنسقة وعلى توزيع الأدوار والوظائف توزيعاً دقيقاً. وقد أدى هذا إلى زيادة مقدرة الفلسطينيين على القيام بهذا العدد الهائل من الإضرابات والاحتجاجات دون أن يحترقوا. وقيادة الانتفاضة بقبولها فكرة السماح بفتح المحلات وغيرها من الخدمات لعدة ساعات تبيِّن أنها مدركة تماماً لضرورة تحريك كل أجزاء الجماعة الإنسانية وبشكل مستمر. ومن ثَمَّ لابدّ أن تلبي حاجاتهم الإنسانية كبشر، لابد أن يأكلوا ويشربوا ويفرحوا ويحزنوا. ولكنهم كبشر أيضاً يحققون إنسانيتهم من خلال انتفاضتهم فلا يسقطون في رتابة الزمان اليومية، إذ إنهم بعد عودتهم من عند البقال يضعون ما اشتروه في زاوية الدار ثم يعانقون النجوم ويرشقون عدوهم بالحجارة. لقد ابتدع الفلسطينيون زماناً فلسطينياً للمكان الفلسطيني. هذا إذن هو الإنسان في زمن الانتفاضة، هذا هو الإنسان الذي أفلت من قبضة الزمن الرديء ومن رعب البروتوكولات.

التخلص من التبعية الاقتصادية

ترجم الإبداع الانتفاضي نفسه إلى بنىً اقتصادية واجتماعية وسياسية محددة، فالمنتفضون بدءوا يدركون أن نضالهم طويل ولابد من ضمان استمراره، ولذا بدءوا يحولون بعض المدن إلى مناطق محررة اقتصادياً ويفصلون قطاعات كاملة من حياتهم عن إسرائيل. وتهدف هذه العملية إلى "تحطيم السيطرة الإسرائيلية، وتنمية الاعتماد على النفس" (**النيويورك تايمز** ٣ أبريل ١٩٨٨)، وإلى "إنهاء أكبر قدر ممكن من العلاقات بين إسرائيل والأراضي المحتلة اقتصادياً وسياسياً". وهم ينجزون ذلك عن طريق إنشاء بنية تحتية مستقلة.

ولإنجاز الاستقلال الاقتصادي يتم التحرك على مستويين: مستوى الذات والنفس الإنسانية، ومستوى الموضوع والحقائق الاقتصادية. وقد ثبت من التجارب التنموية في العالم الثالث أن «الحقائق الاقتصادية» وحدها لا تؤدي إلى شيء وأن

حجم الاستثمارات ومعدلاتها إن لم يواكبها مفهوم محدد للإنسان لا تؤدي إلى شيء. فالتقدم الاقتصادي تقوِّض نتائجه أولاً بأول «تصاعد ثورة التوقعات» التي تخبرنا كُتب علم الاجتماع بأنها أساسية لعملية التحديث والتصنيع.

فثورة التوقعات تزيد من الشهوات التي تفتح بدورها الشهية التي لا يمكن أن يسدها شيء سوى مزيد من السلع: ومن هنا الڤيديو والتكييف والأفلام الملونة، وهذا الركام الهائل من مظاهر «التقدم» الأخرى، ومن هنا ما نرى من حولنا من أطلال حديثة. وتذكر **النيوستيتسمان**: أن الحياة في الضفة والقطاع تتسم بمزيج فريد من الاستهلاك والتخلف بحيث ظلت الحكومة الإسرائيلية تقف عائقاً أمام الصناعة والخدمات في الوقت الذي استغلت فيه السكان كسوق مستهلك ومصدر للعمالة الرخيصة (المنتجة خارج الاقتصاد الوطني). («الانتفاضة تجعل...» **القبس** ٢٨ يونيو ١٩٨٨)، أي أن الحياة في فلسطين المحتلة كانت مثل الحياة في كل بلاد العرب. وقد أدرك المتنفضون ذلك وعرفوا أن التبعية الاقتصادية مرتبطة بالتبعية الداخلية وبأنماط الاستهلاك الشرهة التي بدأت تؤدي بالعالم كله إلى حافة الخراب.

وقد وصف أحد الفلسطينيين الوضع في الأرض المحتلة بأنه كان سيئاً للغاية "فقد كنا نشتري الحمص الإسرائيلي الجاهز مع أنه أحد أكلاتنا القومية" (**نيوسيتسمان** «الانتفاضة تجعل...» **القبس** ٢٨ يونيو ١٩٨٨). ومعظم السلع الكمالية مثل الشيكولاتة والآيس كريم والملابس والأثاث كانت إسرائيلية الصنع، والماركات المكتوبة بالعبرية والإنجليزية كان لها جاذبية خاصة. وكانت محلات البقالين تبيع مربى سويسري وسلعاً أمريكية وإسرائيلية. وقد حدَّد هشام عورتاني وهو خبير اقتصادي فلسطيني في الأرض المتنفضة، خطة المتنفضين على النحو التالي: "إن الأمر يتطلب منا خفض مستويات معيشتنا بما يتناسب مع قاعدتنا الاقتصادية" (**جيرالدين بروكس**، "خسائر إسرائيل من الانتفاضة بلغت حتى الآن ٧٠٠ مليون دولار" **وول ستريت جورنال**، **القبس** ٢٣ يونيو ١٩٨٨) فلانستهلك إلا بقدر ما ننتج فنسترد الأرض والكرامة!

وبالفعل بدأ المتقفضون يعدلون من أنماطهم الاستهلاكية. "وعندما أمرُّ من أمام محل جزارة هذه الأيام أشيح بوجهي عنه". كما قال عزمي الخايل الذي تعيش أسرته على العدس والأرز وتطبخ طعامها على موقد من الحطب لتوفير الكهرباء. "ونحن على استعداد لتناول أوراق الشجر، وأن نتحمل المعاناة حتى يتم التوصل إلى حل".

وقد أصبح التقشف وما يصاحبه من رفض السلع الأجنبية عنصر ضغط اجتماعي إذ يخجل الناس من حمل البضائع الإسرائيلية الآن. ولكن ماذا عن هؤلاء الذين عاشوا في أمريكا (وكم منا يعيش في أمريكا دون أن يراها؟) ويريدون كتش آب ومايونيز، فلابد أنهم يشعرون بالأزمة لاختفائها. فقال زيتون البقال: "إذا كان السبب في بقائهم هو الكتش آب فما حاجتنا لهم" **(وول ستريت چورنال)** فالكتش آب - كما نعرف - لا يصلح كأساس يستند إليه الالتزام الوطني - فهو غير الدم الذي يجري في العروق ثم يسيل على الأرض يرويها.

وقد تعلَّم المتقفضون أن يستغنوا عن سلع العدو حتى أن مدخن السجائر الذي تعود على تدخينها عشرين سنة مضت لا يجرؤ أن يظهر سيجارته الصهيونية أمام الناس وإن كانوا أقرب أصدقائه أو حتى إخوته. ومزارع البطيخ الإسرائيلية لا تجد من يجنيها، حيث لا يجرؤ أحد من الفلسطينيين أن يأخذ لأهله بطيخة إسرائيلية إلا إذا كانت مُهربة كما تُهرَّب أشد الممنوعات. ويقف الأطفال ما بين سن ١٠ - ١٥ في الشوارع الرئيسية يفتشون السيارات المارة عن أي بضاعة محتلة ويسألون المدخنين عن أنواع السجائر التي يدخنونها، فإذا كانت محتلة فُتِّتت أمام الجميع وكأن هذا المدخن أتى شيئاً نُكرا..

إن التقشف هو شكل من أشكال الانضباط الذاتي الذي يوسِّع رقعة الحرية والكرامة على الفور، إذ يستغني الإنسان من خلاله عن كمٍّ كبير من السلع قد أسرته ووضعت القيود في يديه.

وموقف المتقفضين من الموضة مختلف عن موقفنا نحن عرب الخارج. فالموضة - كما نعرف - اختراع غربي شيطاني الهدف منه أن نغيِّر ملابسنا وأذواقنا (وهويتنا)

مرتين كل عام، وأن نبدد طاقتنا الجسدية والروحية والمالية دائماً. . ولكن في زمان الانتفاضة، في مكانها، تتغيَّر الأمور وتصبح الموضة ليست السعي للحصول على آخر ما اقترحه القرد الأعظم في باريس، وإنما أن تلبس جزءاً من صنع المصانع الفلسطينية، وبالتالي تضرب العدو وتساند الصناعة المحلية، فيزداد المنتفضون عزة واعتداداً بالنفس. كما أن اتباع الموضة الانتفاضية يعني أن الجميع سيرتدي الزي نفسه تقريباً فيصعب على العدو أن يميِّز بين الفلسطينيين، ومن ثَمَّ تصبح عملية المطاردة شبه مستحيلة (هذا الوضع يشبه وضعاً مماثلاً في الثورة الجزائرية حين أصبح كل الذكور يسَمُّون محمداً وكل الإناث فاطمة، ومرة أخرى البحر الإنساني الذي يغرق فيه العدو). بل إن كل متجر ملابس أصبح مكاناً لتغيير الزي، ولذا إذا دلف أحد المنتفضين إلى مثل هذا المتجر فإن صاحبه يتصرف بالتلقائية المتعمدة نفسها، ويساعد المطارد على تغيير ملابسه، ويخرج لينضم للبحر الإنساني، والعدو الأبله يقف ممسكاً برشاشه الرهيب لا يعرف ماذا يفعل (هل يمكننا ياإخوتي أن ننسى **البروتوكولات** والخوف من العدو وأن ننتفض ولو لدقائق، ولو للحظات؟ هل يمكننا الاستغناء عن كريستيان ديور وايف سان لوران، أم أننا تحولنا إلى سطح كامل دون أعماق-دون هوية أو روح؟).

ومن أشكال الإبداع الأخرى ما سماه أحد الفلسطينيين «عودة القهقري». فالتقدم على الطريقة الغربية يعني تصاعد الاستهلاك التافه وتآكُل مجتمعاتنا. والعودة هنا ليست عودة لا اتجاه لها وإنما عودة لشيء محدد جدير بالعودة إليه، وهو عودة تحرر الإنسان من قواعد التحديث والتكالب على الجديد، وآخر صيحة وموضة. العودة الآن ستحرر الإنسان من كل ذلك، وتجعله يكتشف أنماطاً أخرى للبقاء والحياة والتقدم والتوازن مع نفسه ومع الطبيعة.

انظر على سبيل المثال استخدام الفلسطينيين «للطابون» وللآبار والحمير كوسائل للمواصلات، كلها أشكال تدل على الإبداع والرغبة في التحرر والاستمرار. فالفلسطينيون بانسلاخهم عن بعض أشكال العالم الحديث الذي صُنِع في الغرب أمكنهم أن يتحركوا بكفاءة شديدة، وأن يبطلوا مفعول الآلة التكنولوجية

الشيطانية. فحينما "قطعت إسرائيل إمدادات البنزين عن الضفة الغربية ظهرت مئات الحمير في شوارع نابلس، وأثناء الحصار الذي كان يضربه الجيش حول القرى التي يضع أبناؤها الحواجز في الطرقات أو تعلن أنها أصبحت مناطق «محررة»، كان الجيران في القرى المجاورة يرسلون حميراً محملة بالمواد الغذائية، عبر التلال الوعرة وصولاً إلى القرى المحاصرة.

ومن المفارقات "أن إهمال الحكومة الإسرائيلية لقطاع الخدمات في الضفة الغربية قد انقلب لصالح الفلسطينيين، حيث تحصل معظم القرى على الماء من آبار محلية، كما لم يتم ربطها بشبكة الكهرباء الإسرائيلية. وكما تبيَّن من خلال الحصار الذي كانت تضربه القوات الإسرائيلية حول القرى المحررة، فإن بعض القرى تستطيع أن تتحمل فترات طويلة من العزلة تقريباً" (**نيوستيتسمان** «الانتفاضة تجعل. . . » **القبس** ٢٨ نوفمبر ١٩٨٨).

ومن أنبل الأمثلة على «التحرر» رغم القهر، ما تفعله قرية قباطيا التي قرر الجيش الإسرائيلي أن يضرب حولها حصاراً يوم ٢٤ فبراير ١٩٨٨ لقيام أهلها بإعدام أحد المتعاونين الإسرائيليين، فأثبتوا أنه يمكن قطع أذرع العدو البروتوكولية الأخطبوطية، فأذرع الإله فشنو اليهودي لا تخيف من لا يريد أن يخافها. وقد قامت القوات الإسرائيلية بقطع الكهرباء والاتصال التليفوني والمياه عن القرية. كما منعت السكان من الوصول إلى المتاجر التي يعملون فيها، وتم القبض على ٤٠٠ شخص، بل وتطير طائرة استطلاعية فوق القرية من آونة لأخرى لإرهابها. ولكن القرية، كما تقول **الجيروساليم بوست** (٩ أبريل ١٩٨٨) ليست نادمة على قتل عميل الصهاينة، وقد حلت مشكلتها «بالعودة للطبيعة». فيقطع السكان أغصان الأشجار لتسخين المياه التي يحصلون عليها من الآبار، وللطهو كذلك. كما أنهم بدءوا يتعلمون أن يعيشوا على الثمار التي يجنونها من الأشجار. وقد تعلموا كذلك تهريب الطماطم من المدن المجاورة. وكما تقول الجريدة تأقلم سكان قباطيا على وضعهم الجديد، كما يقولون هم: "هكذا كنا نعيش منذ عشرة أعوام". وهكذا يمكن توظيف انخفاض المستوى المعيشي في الحرب ضد القهر. ويمكن توظيف

كفاءات «المتخلفين» في الوقوف ضد آلة القمع التكنولوچية. وقد قالت امرأة لمندوب الصحيفة: "بدلاً من اللبن نعطي أطفالنا الآن الخبز والشاي. وسنصمد". وقال آخر: "نحن نثق في الله، هل يمكن أن نفعل شيئاً آخر؟" ولنلاحظ كيف يتحول التوكل على الله إلى دعامة أساسية من دعائم الصمود والمقاومة. وقال مهندس يحمل تحت إبطه صحيفة قديمة مهربة من مدينة مجاورة: "إن الموقف قد ألَّف بين الناس، وقوَّى من تضامنهم وحتى أولئك الذين لا يوجد عندهم ما يكفي من الطعام يقدمون يد المساعدة، ويعتقد الناس هنا أن مسألة أنهم يأكلون الزيتون بدلاً من الخضار مسألة ثانوية. فثمة قضية أكثر أهمية بالنسبة لهم... ويمكننا أن نصمد لعدة شهور، بل وسنوات".

وقد لاحظ مراسل الجريدة وهو خارج من القرية المحاصرة أن بضعة صبية كانوا يتدربون النبال فوق التلال المجاورة، وكانت الحجارة تندفع من نبالهم مصفرة في الهواء نحو الوادي! إن قباطيا المحاصرة حرة تماماً من الداخل وهي لذلك قادرة على أن تقف بكبرياء واعتزاز بالنفس أمام آلة القمع المتفوقة. وهي تستمر في حياتها اليومية بتعديل نمط حياتها قليلاً وبتغيير معدلات استهلاكها وتوقعاتها من الدنيا ـ وهي تضحيات ليست بكبيرة على مَنْ يود العيش في كرامة ولو بدون مايونيز أو حتى مرسيدس! وهي ليست بمستحيلة على من لا يخاف اليهود **والبروتوكولات** ولا يخاف إلا الله!

وقد أجاد المنتفضون في الضفة والقطاع استخدام فن التعبئة والإعلام من خلال شبكة اتصال غير تقليدية بالمرة. فقد قال دان أركين: إن «الصفافير» هي "أداة المحرضين الاستخبارية. فعندما تظهر قوة عسكرية... ترتفع أصوات الصفير حتى قبل أن يظهر الأشخاص الذين يصفرون، وهكذا يقومون بإبلاغ بعضهم بعضاً حول دخول القوة العسكرية" (**معاريف** ٢٥ فبراير ١٩٨٨). كما يلجأ المنتفضون إلى شبكة اتصالات شفهية بحيث يمكن إذاعة أي شيء بسرعة البرق، وقد سمى العدو ذلك «فن استخدام الشائعات».

كما ظهر سلاح المنشورات الذي عن طريقه تحدد القيادات الأهداف النهائية

والوسائل التي يمكن اتخاذها. وقد أوردت جريدة **عل همشمار** (٢٩ يناير ١٩٨٨) أمثلة من هذه المنشورات وورد في إحداها رفض لفكرة اليأس كمحرك للانتفاضة: "إن السلطات تعتقد أن شعبنا غرق في اليأس وقلة الحيلة وأنه يسعى إلى طلب الرحمة من الأقزام". ولنلاحظ كيف يدرك الفلسطيني نفسه على أنه عملاق أمام القزم الصهيوني (هذا يقف على طرف النقيض من الأكاذيب البروتوكولية التي تضخِّم العدو وتقزم الذات).

انتفاضة الأقصى

مثلما قدَّمت الانتفاضة الأولى (١٩٨٧ - ١٩٩٣) عدداً من الإبداعات النضالية المتميزة، شهدت انتفاضة الأقصى والتحرير بروز أساليب نضالية جديدة تمثل تطوراً نوعياً في مسار المواجهة مع المحتل الصهيوني بوجه عام. ويأتي في مقدمة هذه الأساليب ابتكار الصاروخ «قسام ٢»، الذي أضاف إلى المتنفضين قدرات قتالية متقدمة نسبياً. ولا يخلو من مغزى استلهام اسم القائد الفلسطيني الشهيد عز الدين القسام وإطلاقه على هذا الصاروخ. فلم يعد القسام مجرد رمز تاريخي معنوي بل تحول إلى سلاح مادي يومي في أيدي الفلسطينيين، يربط يومهم بأمسهم ويؤكد استمرار حضورهم في الزمان والمكان، واستمرار الصراع مع عدوهم وإن تغيَّرت أشكاله وأدواته. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الصاروخ «قسام ٢»، كما قال المعلِّق الإسرائيلي جدعون سامت (**هاَرتس** ٣٠/ ١/ ٢٠٠٢)، "ليس نجاحاً للانتفاضة الثانية وحسب، بل هو أيضاً إخفاق محتم وصارخ لجهود الردع الإسرائيلية". أين هذا من الحديث البروتوكولي عن أذرع الإله فشنو الأخطبوطية؟

وجاء نجاح المتنفضين في تدمير الدبابة الإسرائيلية «مركبا» ليلقي مزيداً من الضوء على إنجازات الانتفاضة الفلسطينية وعجز آلة الحرب الإسرائيلية عن فرض «الأمر الواقع» بالقوة. فهذه الدبابة، التي تُعدُّ من أكثر الدبابات تحصيناً في العالم، كانت حتى وقت قريب رمزاً للقوة العسكرية الإسرائيلية التي لا تُقهر، وهو ما كان يمنح الجنود الإسرائيليين قدراً من الإحساس بالأمن والطمأنينة. إلا أن تدمير أكثر

من دبابة من هذا الطراز في عمليات فدائية فلسطينية أظهر بجلاء أن أعتى التحصينات العسكرية لا تستطيع أن تصمد أمام الأسلحة البدائية البسيطة التي يستخدمها المنتفضون، كما أسقط وهم «الأمن الكامل» الذي يمكن أن ينعم به جنود الاحتلال في ظل الترسانة العسكرية الإسرائيلية.

ويرتبط بهذا الأمر تصاعد وتيرة العمليات الاستشهادية الفلسطينية، وتنوُّعها وتعدُّد القوى التي تتبنى هذا الأسلوب، وطابع المفاجأة الذي تتسم به، ونجاحها في الوصول إلى أهداف في العمق الإسرائيلي، وإخفاق كل الوسائل التي تتبعها القوات الإسرائيلية (من حصار القرى والبلدان وإغلاقها، إلى الطرق الالتفافية، إلى وضع الحواجز والمتاريس، إلى حظر التجوال) في منع الاستشهاديين من تنفيذ عملياتهم.

فعلى سبيل المثال، نُفِّذت إحدى العمليات على بُعد مائة متر من مقر إقامة رئيس الوزراء الإسرائيلي، ونجحت عملية فدائية مؤخراً في تدمير زورق إسرائيلي (٢٣ نوفمبر ٢٠٠٢)، فيما يُعدُّ أول ضربة تُوجَّه إلى السلاح البحري الإسرائيلي، واستهدفت عمليات أخرى المستعمرات الإسرائيلية المُقامة في الضفة الغربية وغزة، والتي تحظى بحراسة مشدَّدة، وهو الأمر الذي يُعدُّ بمثابة رسالة واضحة للمستوطنين ولسلطات الاحتلال على حدٍّ سواء، مؤداها أن اغتصاب مزيد من الأراضي وإقامة مستوطنات عليها سيكون أمراً باهظ التكلفة بشرياً واقتصادياً وعسكرياً.

أثر الانتفاضة على التجمع الصهيوني

تُقدَّر خسائر الاقتصاد الإسرائيلي من جراء الانتفاضة بما يتراوح بين ٦ بالمائة إلى ٨ بالمائة من إجمالي الناتج القومي (**يديعوت أحرونوت** ٢٥ يونيو ٢٠٠٢)، وكان قطاع السياحة هو الأكثر تضرراً نظراً لعزوف السياح عن التوجه إلى الدولة الصهيونية بسبب المخاوف الأمنية (**واشنطن بوست** ١٩ مايو ٢٠٠٢). فعلى سبيل المثال، تشير دراسة حديثة أجرتها «بيزنس داتا إسرائيل» إلى أن العامين الماضيين شهدا إغلاق ألف مطعم ومقهى، وأن من المتوقع أن يطرأ خلال عام ٢٠٠٢

انخفاض حاد في حجم مبيعات المطاعم بنسبة ٣٠٪ مقارنةً بعام ٢٠٠١. وتأتي في مقدمة الأسباب التي تسوقها الدراسة لهذه التطورات "الوضع الأمني الذي ترك أثراً سلبياً على فرع السياحة، وتزايد العمليات في المطاعم والمقاهي مما أدى إلى تعكير صفو المزاج العام للمواطنين، وتعاظم عدد الحُراس مما أدى إلى ارتفاع تكاليف تشغيل المطاعم والمقاهي في إسرائيل" (**يديعوت أحرونوت** ٢٥ نوفمبر ٢٠٠٢).

وجاء في صحيفتي **هآرتس** و **يديعوت أحرونوت**: "أن الأوضاع المتدهورة أدت إلى ضرب صناعة السياحة والترفيه الإسرائيلية في مقتل، فالعديد من الفنادق والمطاعم والمقاهي أصبحت شبه خالية من الرواد، وكشفت دراسة إسرائيلية أنه تم خلال العامين الماضيين إغلاق ألف مطعم ومقهى مشيرةً إلى أنه كان يتم كل أسبوع إغلاق خمسة مطاعم في مدينة تل أبيب خلال العام الأخير بسبب العمليات الفدائية. ومنذ عدة أشهر قام أصحاب المقاهي والمطاعم والملاهي الإسرائيلية بتنظيم مظاهرة أمام منزل رئيس الوزراء آرييل شارون في القدس تطالبه بالأمن. وتؤكد صحيفة **يديعوت أحرونوت** أن المطاعم والمقاهي تواجه فترة عصيبة بسبب الأوضاع الأمنية غير المستقرة، فسلسلة مقاهي "أروما" قررت إغلاق فروعها في القدس وتخفيض ساعات العمل وانتقلت حالة الركود إلى الملاهي الليلية والأندية وقاعات الأفراح وصالات الرقص خاصةً في مدينة تل أبيب. تقول دفنا جوردون، مديرة ملهى هاينيكان، إن الأمر يزداد سوءاً يوماً بعد يوم وخسائرنا في تزايد مستمر نتيجة خوف وإحجام عدد كبير من الزبائن عن التردد علينا" (**الأهرام** ١٥ ديسمبر ٢٠٠٢).

ووصلت نسبة العاطلين عن العمل خلال عام ٢٠٠١ إلى أكثر من ٢٧٦ ألف شخص، أي ما يزيد على ١٠ بالمائة من قوة العمل (**هآرتس** ١٣ يونيو ٢٠٠٢). ويتزايد بصفة مستمرة عدد المستوطنين الصهاينة الذين يتقدمون للحصول على الجنسية الألمانية، حيث بلغ عددهم ١٧٥١ في عام ٢٠٠١ (**يديعوت أحرونوت** ١٧ يونيو ٢٠٠٢). وقد نشرت إحدى الصحف أن عدد النازحين سنوياً يتراوح بين

١٥ و٢٠ ألفاً (هذا الرقم لا يتضمن بطبيعة الحال النازحين الذين يدّعون أنهم تركوا إسرائيل لفترة مؤقتة). كما أن ٢٢ بالمائة من الشباب في المرحلة العمرية من ١٨ إلى ٣٥ عاماً يودون النزوح عن الدولة الصهيونية. أما أرقام الهجرة إلى إسرائيل فهي تبعث على السخرية، فعدد الذين هاجروا إلى إسرائيل في الأسبوع الثاني من يونيو ٢٠٠٢ لم يزد على ٦١٦ منهم ٤٤٠ مهاجرين من روسيا وأوكرانيا ولم يحضر سوى ٨ من المملكة المتحدة و١٣ من الولايات المتحدة. وقد علّق أحدهم على ذلك بقوله: "هذه ليست أعداد مهاجرين، إنها أعداد سياح عابرين". ويلاحظ أن أكثرية المهاجرين من روسيا وأوكرانيا، أي أنهم من غير اليهود، وقد تنبأ عالم السكان الإسرائيلي سرجيو ديلا برجولا أنه في خلال ثمانية أعوام ستكون الغالبيَة الساحقة من المهاجرين إلى إسرائيل (٩٤ بالمائة) من غير اليهود (**جيروساليم بوست** ١٢ يونيو ٢٠٠٢).

ولكن رغم أهمية الجانب الاقتصادي وأهمية أرقام النزوح، فكل هذا في حد ذاته لا يعني الكثير، فهو يكتسب أهميته من تأثيره على وجدان الإسرائيليين وعلى رؤيتهم، ومن ثَمَّ على سلوكهم. وكي نفهم هذا الجانب من أثر الانتفاضة على التجمُّع الصهيوني علينا أن نتجاوز تصريحات شارون البروتوكولية والغارات الجهنمية التي تشنها الطائرات الصهيونية والمذابح الدموية التي تُدبرها آلة القمع الصهيونية ضد الفلسطينيين، والحملات الإرهابية التي تقوم بها القوات المسلحة الصهيونية، والأكاذيب المصقولة التي تروج لها آلة الإعلام الصهيونية، فلنتجاوز كل هذا وصولاً إلى استجابة المستوطن الصهيوني لما يحدث من حوله. فكل المستوطنين يقرءون الصحف الإسرائيلية التي تستخدم كثيراً من الصور المجازية والعبارات الموجزة الدالة التي تنقل لهم الحقيقة كاملة. فالانتفاضة ليست مجرد هبَّة بل هي "حرب استنزاف" أغرقت إسرائيل في "لجة من الدماء" (**هآرتس** ١/ ٢/ ٢٠٠٢) وأدخلتها في "دائرة دموية" (**يديعوت أحرونوت** ٢٩/ ١/ ٢٠٠٢)، هي "رقصة الموت" ومباراة "بينج بونج مرعبة" (**يديعوت أحرونوت** ٢٩/ ١/ ٢٠٠٢)، تسبَّبت في فيضان "أنهار الدم" (إعلان رافضي

الخدمة العسكرية، **هآرتس** ٨/ ٢/ ٢٠٠٢). كما أدَّت إلى الغوص في مياه راكدة، والغرق في "المستنقع الذي غرقت فيه قواتنا بدءاً من الثمانينيات" (في إشارة واضحة للمستنقع اللبناني). وتشير الصحف الإسرائيلية إلى العام الأول للانتفاضة بأنه عام "مضرج بالدماء" (**معاريف** ١٠/ ٢/ ٢٠٠٢). وأنه "الأسوأ في تاريخ إسرائيل في كل ما يتعلق بمواجهة الإرهاب" (**معاريف** ١١/ ٢/ ٢٠٠٢). وقد وصف أحد الكُتَّاب الموقف بهذه العبارة الدالة: "صغيرة هي المسافة بين الخوف والذعر، والجمهور الإسرائيلي يعيش بين هذا وذاك" (**معاريف** ١٠/ ٢/ ٢٠٠٢).

ولنتخيَّل المستوطِن الصهيوني وهو يقرأ كل هذه العبارات ثم يقرأ هذه الرسالة المفتوحة التي كتبها جَندي احتياط إسرائيلي (ونشرت على موقع صحيفة **يديعوت أحرونوت** ٢٩ أغسطس ٢٠٠١ ونقلتها عنها الصحف الإسرائيلية الأخرى). والتي قال فيها بكل صراحة:

"أخاف من الموت، بلا سبب كالأبله على الرمال النتنة المسماة قطاع غزة... لا أعرف أن أطير عندما يطلقون عليَّ النار... عدت من الانتفاضة الأولى، ومن حرب لبنان، ومن الانتفاضة الثانية. عدت بحالة جيدة، بمحض المصادفة... لا أؤمن بالمعجزات وبالحظوظ، ولاأعتقد أن لكل طلقة عنواناً، لكن أنا أيضاً ليس لي عنوان... إذا ما مت فسأموت كالأبله. أبله لم ينتبه له أحد. أبله إحصاءات. أبله عائلة ثكلى... أشعر بأن أولئك الجالسين في أبراجهم العاجية أيضاً لا يتابعون إطلاقاً ما يحدث لي ولكتيبتي، وربما لنا جميعاً. أشعر بأنهم لا يعيروننا انتباهاً... وأسأل نفسي ما إذا كنتما، أنتما الجالسان في برجيكما العاجين، رئيس حكومتي ورئيس أركاني، تعرفان فعلاً ما الذي يجب عمله كي أتمكن من العودة إلى البيت. وقبل هذا وذاك، أرجو أن تبيِّنا لي أنكما معنيان... بخوفي من الموت كالأبله؛ ذلك بأنه لم يعد من الممكن أن تقنعاني بأنه جيد أن نموت من أجل بلدنا... في غزة".

والصورة العامة في التجمُّع الصهيوني قاتمة لأقصى حد. ففي مقال ليغئال موسكو (**يديعوت أحرونوت** ١١/ ٣/ ٢٠٠٣) تحدث عن الصمت الذي يلف المدينة

" لا توجد سيارات، وحتى المشاه القلائل يخفضون أصواتهم. كل المدينة كوادي الأشباح". وحاول الكاتب أن ينقل لنا حديث أهل المدينة:

"باستثناء العمل أنا لا أخرج من البيت منذ أربعة أشهر. لا إلى المجمع التجاري ولا إلى المقهى". "كان المجمع التجاري خاوياً يا أخي وخصيتي كانت في حلقي". "أنا لا أسافر لوحدي في الليل". "لأنهم أطلقوا النار عدة مرات على الشارع وأنا لا أسمح لابني أبداً أن يخرج من الحي". "قولوا لي أية حياة أعيشها". "حين أعرف أن ابني يركب سيارة عابرة عائداً إلى البيت. الآن كنت أنا نفسي أزور الأصدقاء ليلتين على الأقل في الأسبوع، إلى أن أطلقوا النار على جاري الذي كان يسافر بالضبط أمامي على الشارع".

ثم يعلّق كاتب المقال على هذا بقوله:

"ليس هناك ملاذ في هذه البلاد. الأعصاب متوترة، ووصلت لدى البعض إلى حد الانفجار، ورغم ذلك سيطرت سلبية غريبة على الجميع. الناس ينظرون إلى حجم الدم اليومي كقضاء وقدر. تماماً مثلما ينظر البائسون في بنجلادش إلى الفيضانات. يدخلون في سياراتهم بعد العمل، يصغون إلى الراديو الذي تحول إلى بيان لإعلانات الجنازات. يصلون البيت ويغلقون الباب. يحتفظون بالأولاد قريباً جداً منهم".

وقد ظهر في إسرائيل ما يسمّى «حضارة البقاء في المنزل»، وهي أن الناس يفضلون البقاء في المنزل ولا يذهبون إلى المطاعم إلا نادراً، ولذلك فمعظم المطاعم فتحت خدمة تيك أواي. وحتى حينما يذهبون إلى مطعم لا يجلسون في الموائد التي توجد في وسط المطعم، بل يفضلون الجلوس وراء العمود. وتبدأ علامات الراحة تظهر عليهم، كما لو كانوا يحاولون كبت أية مخاوف بداخلهم. ولكن "بانج" تنفجر إحدى البالونات فينتفض كل من في المطعم هلعاً ليتذكر الجميع أنهم ليسوا في مطعم عادي ولا في بلد عادي. وهكذا في لحظة دالة حطمت الضوضاء واجهة الهدوء (مارتن آسر أو لاين .B.B.C ٢٦/ ٣/ ٢٠٠٢).

وقد أكد يوئيل ماركوس في **هآرتس** (١٣ نوفمبر ٢٠٠١) "الحقيقة المرة أننا لم ننجح في تصفية الإرهاب ودحره بالقوة" بل إن الفلسطينيين نجحوا "في زرع الرعب في صفوفنا . . . وفشلنا في إخافتهم" وأكبر دليل على ذلك: "أن الوزير داني نفيه وأبناء عائلته أخلوا بيتهم . . . خوفاً على أمنهم، وذلك بناء على نصيحة جهاز الشاباك (جهاز الأمن الداخلي) . . . وقال رعنان كوهين، عضو المعارضة، أن الوضع خطير جداً "أنا أنظر بخطور بالغة إلى الوضع الذي لا يستطيع فيه الوزراء أن يتجولوا بحرية داخل الخط الأخضر، وإن لم نشعر نحن الوزراء بالطمأنينة، فكيف سيشعر الجمهور" . واستمر كاتب المقال في القول:

"إنجاز الفلسطينيين لا يكمن في إخافة وزير في إسرائيل. إنجازهم الحقيقي يكمن في أنهم وضعوا علامة على كل المستوطنين والإسرائيليين كأهداف وألحقوا الأذى باقتصاد إسرائيل وبالسياحة الوافدة إليها، وزرعوا من خلال أعمالهم الإرهابية أجواء من الخوف والجزع في الوقت الذي لم تنجح فيه إسرائيل في زرع خوف مشابه في أوساطهم" .

لكل هذا ليس من الغريب أن إحدى استطلاعات الرأي في صحيفة **معاريف** وصفت الوضع السائد في إسرائيل بأنه يسوده "ارتباك شديد، وحيرة تزداد تعاظماً. فالجمهور يتراكض بذعر من هنا إلى هناك، وهو على استعداد للإمساك بكل قشة تقع في طريقه من أجل محاولة التخلص من هذا الوضع، حتى لو كان ذلك بقول الشيء ونقيضه. فهو يريد هذا وذاك: الفصل من طرف واحد، والتوصل إلى اتفاق. الحوار مع القيادة الفلسطينية وكذلك تدميرها، والتحاور مع العرب في المناطق المحتلة، وأيضاً بنسبة تأييد ملحوظة طردهم إلى الدول العربية المجاورة" .

ويكتب حيمي شاليف في **معاريف**: إن أخطر ما في الأمر، "هو ذلك الإحساس العام بأنه لا أحد في البيت، وأن السفينة تهتز في بحر عاصف، وأنه لم تعد لدى قبطان السفينة أية أفكار أخرى. لا في الميدان السياسي، ولا في الميدان الاقتصادي الاجتماعي. وثمة تقدير سائد بأن القيادة الوطنية فَقَدت سيطرتها على

الأحـداث. وهذا وضع مـتطرف، يمكن أن يقـود أيضـاً إلى البـحث عن حلول متطرفة".

وثمة إحساس عـميق بفقـدان الاتجاه "فشـارون ليس لديه تكتيك فقط. المبدأ البسيط: أن نصمد؛ ألا تطرف لنا عين؛ أن نقلل الأضرار؛ أن نتماسك عندما تقع كـارثة؛ أن نمضي قـدمـاً. إلى أين؟" (**معـاريف** ٢١ سبـتـمبر ٢٠٠١). وقد أكـد سيـماكـرمـون نفس المعنى في **يديعـوت أحـرونوت** (٢/ ٤/ ٢٠٠٢) حين قـال: إن القيادة الإسـرائيلية لا تعرف ماذا يجب فعله "فوراء الصمت لا توجد خطة... ونحن لا نعرف إلى أين نسير فهم أيضاً ببساطة لايعرفون".

إن جـمهـور المستوطنين (٦٣٪) يعتقـد أن الدولة الصـهيونية قد دخلت طريقـاً مسدوداً، فهي لا يمكنهـا القضـاء على الانتفاضة بالقوة، مما يعني أن الانتفاضة لن تنتـهي". وفي الوقت ذاته لا يمكن التـوصل إلى اتفـاقـات سـلام مع الفلسطينيين. فكل محاولات وقف إطلاق النار باءت بالفشل (**الجيروساليم بوست** ٣٠ سبتمبر ٢٠٠١). أو كما يقول أمنون دنكنر في مقال نشرته جريدة **معاريف**: "أسوأ الأمور هو أن من الواضح أنه لم يعد ثمة حلول سحرية يمكن التوصل إليها بضربة واحدة. ولـم يعد السلام الشـامل والنهائي مُغرياً، وحتى ليس ثمـة حلول عسكرية تتكلل بأناشيد المنتصرين. ومن الجهـة الأخرى، لا يوجد أي إمكان للاستـمرار في ظل الوضع الحالي من دون عمل شيء".

إن قوة الجيش، كـما جاء في **معاريف** (١١ فبراير ٢٠٠٢)، تتآكل بمنهجية بعد أن غـرقت في مـستنقع الانتـفـاضـة. وقـد وصل الأمـر إلى درجـة أن المطلوب هو "جندي في كل دكـان، في كل موقف سيارات، في كل محطة أتوبيسات، وسبعة منهم في كل مفترق". وبالفعل نشرت جريدة **معاريف** (٢/ ٤/ ٢٠٠٢) أن اللجنة القطرية لأولياء أمور الطلبة في إسرائيل اتخذت قراراً بعـدم استئناف الدراسة في المدارس بعد عطلة عيد الفصح إذا لم يوضع حراس مع أسلحة حول كل المؤسسات التعليمية.

لكل هذا أعلن أليكس فيشمـان في مقـال له في **يديعوت أحرونوت** على أن

سياسة الأمن الإسرائيلية تحتضر، وأشار إلى أن الوضع الأمني الذي تعيشه إسرائيل يعتبر إفلاساً أمنياً يُلزم المطبخ الأمني باتخاذ قرارات تكسر دوامة عملية رد العملي التي تسحب الطرفين في عناق الموت نحو الهاوية.

لقد وصل العقل الإسرائيلي مرةً أخرى إلى حالة «إين بريرا». وهي عبارة تعني «لاخيار»، وكانت تعني في الماضي أن المستوطن الصهيوني محكوم عليه بالدخول في حروب مستمرة، الواحدة تلو الأخرى لمدة طويلة، ولكن الاعتقاد الصهيوني الراسخ كان أن ثمة مخرج في نهاية النفق المظلم من خلال ما يسميه الفكر الأمني الإسرائيلي «الحائط الحديدي»، أي أن يبني المستوطنون حائطاً حديدياً حول أنفسهم لا يمكن للعرب اختراقه، مما يضطرهم للرضوخ للأمر الواقع والاقتناع بأنه لا يمكن هزيمة هؤلاء الوافدين من الغرب.

ولكن بدلاً من الحائط الحديدي ظهرت عبارة «العجز الأمني» فهي حالة من «إين بريرا» دون أمل. أو كما قال أحد الكُتّاب في **معاريف** (٣٠/ ١/ ٢٠٠٢): "إن المجتمع الإسرائيلي يشعر باليأس مثل قطيع بلا راعٍ، محاط بذئاب مجنونة". ولذا فإن **هآرتس** (٢٣/ ١١/ ٢٠٠١) تطرح شعاراً جديداً للصهاينة: "دعونا نأكل ونشرب فسوف نموت غداً". ولو نجح شارون في تنفيذ مخططه لضرب الانتفاضة لكرَّس نمط الحائط الحديدي، ولبعث فيه الحياة، وفشله يعني في واقع الأمر سقوط هذا الوهم، مما يعني سقوط الحلم الصهيوني (وهل يمكن للجيوب الاستيطانية أن تعيش دون حلم أو وهم أو أساطير؟). لكل هذا تدهورت ثقة الإسرائيليين في دولتهم ومؤسساتها، حتى فيما يخص جيش الاحتلال.

ويمكننا الآن أن نطرح سؤلاً: ما هو الأثر النفسي لهذا الإحساس بعدم الأمن؟ كفانا الباحثون الإسرائيليون مئونة البحث فقد جاء في جريدة **هآرتس** (٦ أكتوبر ٢٠٠١) أن عدد المرتادين على عيادات الأطباء قد زاد بشكل كبير في الآونة الأخيرة رغم أنهم ليسوا مرضى من الناحية العضوية، وإنما يعانون من ضغوط وتوتر على خلفية الأحداث الأخيرة [أي الانتفاضة]. وقد نشرت جريدة **معاريف** (٢/ ٤/ ٢٠٠٢) أن وزارة الصحة الإسرائيلية فتحت مراكز استعلامات هاتفية

يستطيع المواطنون عبرها تلقي مساعدات نفسية. كما بيَّنت **يديعوت أحرونوت** (١٤/ ٢/ ٢٠٠٢) أن شركات الأدوية أفادت بأن هناك ارتفاعاً بنسبة ٥٠٪ في استهلاك المهدئات والمسكنات.

وقد نشرت كل من **هآرتس** و**بنثيم** (عدد ١٧ صيف ٢٠٠١) عن ظاهرة يسميها علماء النفس ظاهرة «العجز المكتسب». ولشرح هذه الظاهرة تقول الصحف إنه أجريت تجربة عُرِّض أثناءها كلبان لصدمات كهربائية وأعطي واحد منهما الفرصة للفرار، أما الآخر فقد حُرم منها، فاكتسب الأول حساً سريعاً بتجنب الصدمات الكهربائية من خلال القفز إلى الجهة الآمنة، أما الثاني فقد تكيف تماماً وتقبل الموقف بخنوع، حتى أنه حينما أتيحت له فرصة الهرب في تجربة أخرى، لم يغتنمها. فالعجز المكتسب هو سلوك سلبي ينشأ من الإدراك أن لا وسيلة لتجنب آثار مؤلمة، ومن عدم اليقين بخصوص أي شيء، فهي حالة «إين بريرا» بامتياز.

وقد توصَّل العلماء إلى أن ظاهرة العجز المكتسب في المجتمع الإسرائيلي تنطوي على أخطار كثيرة مثل الشلل من جهة، والتطلع إلى حلول سحرية من جهة أخرى قد تحل كل المشاكل بضربة واحدة. وهذا الاتجاه الأخير أرض خصبة لتطور توق قوي إلى ظهور مسيح دجال، والاستعداد لقبول من يقدم نفسه "كقائد قوي" يمكنه حل المشكلات كافة. (وهذا يفسر ظهور شارون الذي وعدهم بإعادة الأمور إلى نصابها).

ومن أطرف المؤشرات على حالة الذعر التي انتابت التجمُّع الصهيوني أنه مع تصاعد الانتفاضة بدأت حالة الذعر تنتاب الكلاب والقطط في المنازل الإسرائيلية، ولذا اقتضى الأمر تقديم المهدئات لها (الفاليم). وقال أطباء بيطريون إن الكلاب تبدأ في النباح وتصبح أكثر عدوانية وترتجف لا إرادياً أو تفقد التحكم في مثانتها عندما تصل أصداء دوي إطلاق النار في الضفة الغربية إلى مباني القدس.

وقال بيني سابير، وهو طبيب بيطري في القدس: اليوم فقط عالجت كلباً من نوع السيشن كان قد امتنع عن الطعام ويرفض مغادرة منزله. وقال طبيب بيطري

آخر إنه لم ير مثل هذا العدد من الكلاب المضطربة منذ أمطر العراق تل أبيب بصواريخ سكود خلال حرب الخليج عام ١٩٩١ .

وقال طبيب آخر إن كلبه هو شخصياً يرفض الخروج من المنزل . إن الناس مصابة بالتوتر ولا يدرون ماذا يفعلون وعلى مَنْ يلقون باللوم ، الناس متوترة وكذلك حيواناتها (الـ B.B.C. **ويديعوت أحرونوت** ٦/ ٣/ ٢٠٠٢) .

وقد أصبحت المخدرات خاصةً أقراص الإكستاسي - أقراص الهذيان - هي الملاذ والتي يستخدمها عدد كبير من رواد الأندية والملاهي الإسرائيلية في محاولة للهروب من الواقع ومواجهة الضغوط التي تفرضها الأوضاع الأمنية المتدهورة هناك . والإكستاسي أصبح المخدر الشعبي الأكثر انتشاراً في إسرائيل خاصةً بين الشباب ، ويقال إنه لا يوجد شاب أو فتاة في إسرائيل لم يبتلع ولو لمرة واحدة على سبيل التجربة أقراص الإكستاسي الملونة رغم أن لها أضراراً قاتلة ، فمن يتناولها يقدم على ارتكاب جرائم القتل أو محاولات الانتحار . واستخدام أقراص الهذيان هذه كما يقول البروفيسور زميشلاني ، أستاذ الطب النفسي ، تحول إلى ظاهرة في إسرائيل خاصةً بعد اندلاع انتفاضة الأقصى وبعد أن كان عدد الأقراص التي يتم ضبطها من هذا المخدر في بداية التسعينيات [محدود للغاية] أصبح عدد الأقراص التي تضبطها الشرطة سنوياً منذ عام ٢٠٠٠ يزيد على ٤٠٠ ألف قرص . وفي مايو من العام الماضي نشرت مجلة **نيوزويك** الأمريكية تقريراً عن الانتشار الوبائي لأقراص الإكستاسي في الأندية والملاهي الليلية الإسرائيلية ، وقالت المجلة إن هذه الأقراص تمنح متعاطيها سعادة وهمية تنتهي به إلى تدمير خلايا المخ واستندت المجلة إلى أقوال جندي إسرائيلي يُدعى آلون أكد أن تل أبيب هي أكثر المدن استهلاكاً للإكستاسي .

وفي الفترة الأخيرة بدأ ينتشر في إسرائيل نوعُ جديد من الإدمان هو إدمان غاز الضحك ، فلا تكاد تخلو حفلة أو مناسبة دون استخدام هذا الغاز المعروف علمياً باسم «النيتروس» . ويؤدي استخدامه بشكل مُركّز إلى الوفاة الفورية أما استخدامه بشكل مخفّف فيؤدي إلى تدمير الجهاز العصبي . ويُقبل الإسرائيليون على هذا الغاز

لأنه يصل بهم إلى حالة من الضحك الهستيري. ويوضح الدكتور حاييم سرنات، عميد كلية طب الأسنان بجامعة تل أبيب، أن غاز الضحك يستخدم في المجال الطبي فقط ويحذر شديد فاستخدامه بشكل دائم وبكميات كبيرة يدمِّر خلايا الجهاز العصبي ويصيب مراكز الحركة في الجسم بالشلل.

وجنود الجيش الإسرائيلي ليسوا أفضل حالاً من المدنيين، فهناك إقبال كبير من جانب هؤلاء الجنود على تعاطي المخدرات بمختلف أنواعها هرباً من الواقع الذي يعيشونه، واستخدام الماريجوانا أصبح أمراً مألوفاً بين صفوف الجنود الإسرائيليين. ويؤكد أحد الضباط المسئولين أن هناك إقبالاً كبيراً من الجنود على أنواع عديدة من المخدرات مثل الكوكايين والهيروين وأقراص الإكستاسي أيضاً.

هناك نسبة كبيرة من تلاميذ المدارس وطلبة الجامعات يتعاطون المخدرات، ونتيجةً لحالة الخوف والإحباط التي يعيشها المجتمع الإسرائيلي فقد تضاعف في الآونة الأخيرة عدد مدمني الكحوليات طبقاً لما أكده التقرير الصادر عن وزارة الصحة هناك، ويعتبر الشباب أكثر الفئات إقبالاً على تناول الخمور في إسرائيل. وقد تزايد إقبال المجتمع الإسرائيلي على تناول الخمور للتغلب على حالة الخوف التي يشعر بها خاصةً بعد اندلاع الانتفاضة الفلسطينية أيضاً، كما زاد عدد الإسرائيليين المترددين على العيادات النفسية خلال العامين الأخيرين، وتبين أن عدد المتوجهين لطلب المساعدة يزداد بعد كل عملية فدائية (**الأهرام** ١٥ ديسمبر ٢٠٠٢).

ويتحدث الأديب الإسرائيلي عاموس ألون (**نيويورك ريفيو أوف بوكس** ٢٣ مايو٢٠٠٢) عن الإحساس بالخوف الذي اجتاح المجتمع الإسرائيلي، وكيف أن المحلات أُغلقت، وانتشر الجنود في كل مكان. وحين ذهب إلى مكتبة الجامعة العبرية (وهذا قبل العملية الاستشهادية في كافتيريا الجامعة) لم يجد سوى ثلاثة أشخاص في مكان كان يقدم الخدمات لعشرين ألف طالب. وعندما ذهب إلى عيادة أحد الأطباء سمع الممرضة تقول إنها وكل الممرضات سيتوقفن عن العمل في غضون ساعة إن لم يُعيَّن جندي للحراسة.

وقد نشرت صحيفة **يديعوت أحرونوت** (١٢ أبريل ٢٠٠٢) مقالاً ساخراً للكاتب الفكاهي الإسرائيلي ب. مايكل بعنوان "أغيثونا". يبدأ المقال بالكلمات التالية: "المطلوب من القراء الذين يعيشون بالقرب من البحر أن يقطعوا هذه المذكرة، وأن يترجموها إلى الإنجليزية ويطووها بعناية ثم يضعوها في زجاجة مغلقة، ويلقوا بها في البحر، ولهم في النهاية أن يتمنوا خيراً". أما المذكرة فجاء فيها ما يلي:

إلى كل الناس الطيبين الذين سيعثرون على هذه المذكرة، هذه الرسالة التي وصلتكم هي من رجال ونساء وأطفال حُوصروا في مكانٍ منعزل في الشرق الأوسط.

نحن أناس طيبون، ولكن نتيجة حادثة تصويت حادة [أي انتخاب شارون] وجدنا أنفسنا تحت رحمة مجموعة من القيادات الفريدة في غبائها: معظمهم جنرالات ولواءات ورجال دين وغير ذلك من رجال العصابات.

هؤلاء الأشرار يُصرُّون على أن الإله نفسه هو الذي طلب منهم أن يحاربون بلا نهاية من أجل قطعة من الأرض لا فائدة تُرجى منها [إشارة إلى المستوطنات في الضفة الغربية] يقولون إنها مقدسة بالنسبة لهم، وهم يفرضون علينا أن نموِّل حروبهم بل وأن نشترك فيها بشكل مباشر أحياناً.

إن وجدتم هذه المذكرة، نرجو أن تأخذوها إلى قياداتكم. فهذه آخر وسيلة للاتصال. فالتليفزيون والإذاعة تتحكَّم فيها حكومتنا وعملاؤها.. لا يزال عندنا بعض الطعام والماء، ولكن لم يبق سوى قطرات بسيطة في مخزوننا من العقل والحكمة.

التوقيع

(الجبهة الشعبية لتحرير الناس العاديين)

ونصادف نفس الإجابة الكوميدية السوداء في البرنامج التليفزيون "في إسرائيل فقط" الذي يقدمه إبريز طلل وأورنا باناي. ويتكون البرنامج من مشاهد تمثيلية قصيرة تبين أثر الانتفاضة على المجتمع الإسرائيلي. وتبدأ إحدى التمثيليات برجل وحبيبته يذهبان إلى أحد المطاعم ويجلسان على مائدة يحرسهما حارس مدجج بالسلاح ويطلبان عشاء، ولكن حينما يفتح النادل زجاجة الشامبانيا فيحدث فرقعة، يلقي الرجل وحبيبته بنفسهما على الأرض ثم تصرخ المرأة في النادل: "هل أنت مجنون" ما الذي يجعلك تفتح الزجاجة بهذه الطريقة؟". وكأن هناك طريقة أخرى لفتح الزجاجة، ثم يعود الرجل وحبيبته إلى المائدة، ولكي يتخلصا بعض الشيء من خوفهما يغنيان أغنيةً عن الليل الجميل، ولكن الرجل يُسقط كوباً من الماء عن طريق الخطأ فيتحطم، فيلقي الحبيبان بنفسهما مرةً أخرى على الأرض، ثم يعودان إلى المائدة مرةً ثالثة. ويحاولان تهدئة الخوف فيغنيان أحد أناشيد حركة السلام الإسرائيلية ويطلقان بالوناً، ولكن البالون ينفجر فيلقيان بنفسهما مرةً ثالثة على الأرض وتصرخ المرأة "لا تتركني وحدي. أنا لا أستطيع أن أتحرك"، ولكنها تكتشف أن الرجل قد لاذ بالفرار.

وعندما صرح وزير الدفاع الإسرائيلي، بنيامين بن أليعازر، أن الإسرائيليين لا يشعرون بأي توتر أو قلق بسبب انتفاضة الأقصى بل إنهم مبتسمون دائماً، أذاع برنامج "في إسرائيل فقط" تصريح الويزر وقد صاحبته أغنية فرحة، ولكن على الشاشة ظهرت صور إحدى الهجمات الفدائية وقد تناثرت الأشلاء وسالت الدماء وهُرعت سيارات الإسعاف. ويشاهد البرنامج حوالي نصف مليون مشاهد، وهو رقم كبير للغاية، خاصةً إذا عرفنا أنه يُذاع يوم الجمعة مساءً (بعد ابتداء طقوس السبت) حين يمتنع اليهود الأرثوذكس البالغ عددهم حوالي مليون نسمة عن مشاهدة التليفزيون.

ولعل أثر انتفاضة الأقصى يظهر بصورة أوضح في رواية أورلي كاستيل بلوم المعنونة "أشلاء بشرية". والرواية تعكس التنوع (أو ربما عدم التجانس) العرقي الذي يسم المجتمع الإسرائيلي في الوقت الحاضر. فهناك سمسار إشكنازي وفراش

كردي وعارضة أزياء إثيوبية. وتحتك هذه الشخصيات ببعضها البعض في عالم تصفه الروائية بأنه "لم تسقط فيه قبة السماء على الأرض وحسب، بل مادت الأرض ذاتها. وهذا يعود إلى أن الإرهابيين (أي الفدائيين الفلسطينيين) موجودون في كل مكان". ولذا حينما تتأخر صديقة السمسار الإشكنازي فإنه يفترض على الفور أنها سقطت ضحية إحدى الهجمات الاستشهادية. لقد أصبح الرعب من الهجمة التالية معلماً أساسياً في التجمُّع الصهيوني إلى درجة أن الروائية تقول: "إنك حين تضع ابنتك في حافلة، فإنك كمن يلعب الروليت الروسية" (وهي لعبة انتحارية، كان يلعبها الجنود الأمريكيون في ڤيتنام).

إن من أهم إنجازات الانتفاضتين أنهما أثبتا أن عدونا ليس عملاقاً لا يُهزم (كما تزعم **البروتوكولات**) وقوته ليست بلا حدود (كما تؤكد **البروتوكولات**)، وإنما هو بشر مثلنا، يألم مثلما نألم، ولكنه لا يرجو من الله مثلما نرجو منه، وأنه قد يهاجمنا كالصقر الجارح حينما تسنح له الفرصة ويمتلك من القوة ما يؤهله لأن يفعل ذلك، ولكنه يفر كالدجاج حينما يدرك مدى قوة المقاومة وإصرارها. والخوف الذي تبثه **البروتوكولات** في قلوبنا يحرمنا من ثمرة انتصاراتنا، ويبعث الشك في نفوسنا بخصوص إنجازاتنا فنتحول إلى «واقعيين» نهرول نحوه حتى لا يبطش بنا، بدلاً من أن نتصدى له فيرحل عن أرضنا. إنه نوع من أنواع التنكر لإنجازات الانتفاضة.

نهاية إسرائيل

أدت ظواهر مثل تزايد النزوح من المستوطن الصهيوني وتزايد الهجرة منه والمطالبة بفك المستوطنات والتفكير في تغليف (أي تقسيم) القدس. وتدهور الحالة الاقتصادية والإحساس بالعجز الأمني وإدراك الانتفاضة باعتبارها حرب تحرير، إلى طرح موضوع بقاء الجيب الاستيطاني الصهيوني على بساط البحث، وهو موضوع لا يحب أحد في إسرائيل مناقشته، ولكنه يُطل برأسه في الأزمات. ففي أثناء انتفاضة ١٩٨٧، حين بدأ الإجماع الصهيوني بخصوص الاستيطان يتساقط،

حذر إسرائيل هاريل المتحدث باسم المستوطنين من أنه إذا حدث تقهقر ما من جانب إسرائيل (أي شكل من أشكال الانسحاب والتنازل)، فهو لن يتوقف عند الخط الأخضر (حدود ١٩٤٨) إذ سيكون هناك انسحاب روحي يمكن أن يتهدَّد وجود الدولة ذاتها (**الجيروساليم بوست** ٣٠/ ١/ ١٩٨٨). وهو تحذير قد يكون فيه قدر من المبالغة، ولكنه يحتوي أيضاً على قدر كبير من الحقيقة، ففي الحروب القومية (كما يقول إسرائيل هاريل نفسه)، تلعب الروح المعنوية (أو الجهادية) الدور الأساسي، وروح الإسرائيليين المعنوية في حالة تراجع، فهل ستصدق نبوءة هذا المتحدث الصهيوني؟

ولا يهم إن كانت ستتحقق النبوءة في المستقبل البعيد أو القريب، ما يهمنا في محاولة دراسة أثر الانتفاضة على التجمُّع الصهيوني وعلى المستوطنين الصهاينة، أن نبيِّن أن موضوع نهاية إسرائيل مطروح الآن على الأجندة الفكرية والوجدانية الصهيونية. انظر على سبيل المثال إلى **يديعوت أحرونوت** (بتاريخ ٢٧/ ١/ ٢٠٠٢) التي ظهر فيها مقالاً بعنوان "يشترون شققاً في الخارج تحسباً لليوم الأسود"، واليوم الأسود هو اليوم الذي لا يحب الإسرائيليون أن يفكروا فيه. ونفس الموضوع يظهر في مقال ياعيل باز ميلماد (**معاريف** ٢٧/ ١٢/ ٢٠٠١) الذي يبدأ بالعبارة التالية: "أحاول دائماً أن أبعد عني هذه الفكرة المزعجة، ولكنها تطل في كل مرة وتظهر من جديد: هل يمكن أن تكون نهاية الدولة كنهاية الحركة الكيبوتسية؟ من نقطة الزمن الحالية لا تزال هذه الفكرة مدحوضة، ولكن ثمة الكثير جداً من أوجه الشبه بين المجريات التي مرت على الكيبوتسات قبل أن تحتضر أو تموت، وبين ما يجري في الآونة الأخيرة مع الدولة". بل إن المستوطنين أنفسهم أصبحوا يستخدمون نفس العبارة. فرئيس مجلس السامرة الإقليمي أخبر شارون (في مشادة لفظية معه): "نحن سنحارب بكل قوتنا، وسننزل الشوارع. إن هذا الطريق الدبلوماسي هو نهاية المستوطنات، إنه نهاية إسرائيل" (**هآرتس** ١٧/ ١/ ٢٠٠٢). وقد لخص جدعون عيست الموقف في عبارة درامية (**يديعوت أحرونوت** ٢٩/ ١/ ٢٠٠٢) "ثمة ما يمكن البكاء عليه: إسرائيل".

بل إن مجلة **نيوزويك** (٢/ ٤/ ٢٠٠٢) صدرت وقد حمل غلافها صورة نجمة إسرائيل، وفي داخلها السؤال التالي: "مستقبل إسرائيل: كيف سيتسنى لها البقاء؟". وقد زادت المجلة الأمور إيضاحاً حين قالت: "هل ستبقى الدولة اليهودية على قيد الحياة؟ وبأي ثمن؟ وبأية هوية؟" ثم اقتبست المجلة قول الكاتب الإسرائيلي عاموس إيلون: "إنني في حالة يأس لأنني أخشى أن يكون الأمر قد فات. وقد قلت لكم مجرد نصف ما أخشاه". ولا يختلف رأي الأمريكيين (أوثق حلفاء إسرائيل) عن ذلك. فقد أعرب ١٨٪ عن رأيهم أن إسرائيل ستختفي من الوجود، وقال ٢٣٪ أنها لو استمرت في البقاء فلن تكون دولة يهودية، وهذه نسبة عالية للغاية (٤١٪)، وخاصةً أنه لم يكن يجرؤ أحد حتى على طرح السؤال منذ عدة شهور!

وحين يطل موضوع "نهاية إسرائيل" برأسه فإن العدو يذيع عن نفسه ما يسمَّى «العقدة الشمشونية»، وهي أنه إن تم استفزازه ومحاصرته فإنه سيحطم الدنيا على رأسه وعلى رءوس الآخرين، كما فعل شمشون في الهيكل. ومن الأساطير الشمشونية الأخرى أسطورة ماساداه، وهي آخر قلعة يهودية سقطت في أيدي الرومان أثناء التمرد اليهودي الأول ضد الإمبراطورية الرومانية (٦٦ ـ ٧٠ ميلادية). وتذهب الأسطورة الصهيونية إلى أن المحاربين اليهود المحاصرين آثروا الانتحار على الاستسلام للرومان، وأن انتحارهم هذا يقف دليلاً ناصعاً على مدى صلابة اليهود ووحدتهم. ويلاحظ أن في كلتا الأسطورتين حالة حصار نهائية مغلقة، لا يمكن الفكاك منها إلا بتدمير الذات وربما تدمير الآخر، أي أن نهاية إسرائيل سيصاحبها نهاية الآخر. والحركة الصهيونية في إشاعتها لهذه الأساطير الانتحارية، التي لا تستند إلى أية حقائق تاريخية، تحاول توليد الرهبة والخوف في العقل العربي بطريقة بروتوكولية، وبالتالي تكسب الكثير من المعارك النفسية والفعلية دون خوض أي حرب.

ولكن من المعروف أن القوات الإسرائيلية التي حوصرت في خط بارليف، على سبيل المثال، استسلمت بطريقة عملية ورشيدة للغاية على مسمع ومرأى

الصليب الأحمر الدولي والتليفزيون المصري. وفي أحد هذه المواقع، سأل الجنود قادتهم بتهكم إن كان المطلوب هو القتال حتى الموت لإقامة ماساداه ثانية، فأتاهم الرد بالاستسلام على أن يبتسموا أمام عدسات التليفزيون المصري. أما الجنود الإسرائيليون الذين انتحروا في أثناء عملية لبنان، فيبدو أنهم قاموا بفعلتهم هذه يأساً من الحرب وثمنها الفادح، إذ إنهم لم يكونوا داخل موقع محاصر، وبالتالي فإن انتحارهم لم يكن من أجل الدولة والمُثُل الصهيونية وإنما للاحتجاج عليها.

ومع اندلاع انتفاضة ١٩٨٧ لم يتحدث الصهاينة عن النهاية في الإطار الانتحاري للماساداه، فكلٍ من يهوشفاط حركبي وآرييل شارون، حين تحدثا عن نهاية الكيان الصهيوني، لمَ يشيرا من قريب أو بعيد إلى ماساداه وإنما إلى الطائرة المروحية الأمريكية، أي تلك الطائرة التي ستأتي حينما تحين لحظة النهاية وتحط فوق سطح السفارة الأمريكية (كما حدث في سايجون في فيتنام) لتأخذ فلول المستوطنين وعملاء الولايات المتحدة، أي أنه بدلاً من الانتحار البطولي الأسطوري المزعوم سيركض الجميع نحو الطائرة.

ومع اندلاع انتفاضة الأقصى والاستقلال تكرر نفس النمط فلم يتحدث الصهاينة عن الانتحار البطولي أو عن نهاية الآخر، وإنما عن نهاية إسرائيل "ركوب آخر طائرة إذا تكررت قصة سايجون" (**هآرتس** ٢٤/ ١/ ٢٠٠٠). وفي مقال بعنوان "ليلة سعيدة أيها اليأس.. والكآبة تكتنف إسرائيل" كتبه إتيان هابر (**يديعوت أحرونوت** ١١/ ١١/ ٢٠٠١) يشير إلى أن الجيش الأمريكي كان مسلحاً بأحدث المعدات العسكرية، ومع هذا يتذكر الجميع "صورة المروحيات الأمريكية تحوم فوق مقر السفارة في سايجون محاولة إنقاذ الأمريكيين و[عملائهم] المحليين في ظل حالة من الهلع والخوف حتى الموت"، وكل لبيب بالإشارة يفهم. فماساداه لم تطل برأسها، وإنما الطائرة المروحية علامة المقدرة على الاستسلام وعلى المقدرة على الهروب الجبان في الوقت المناسب. ثم يستمر نفس الكاتب في تفصيل الموقف: "إن جيش الحفاة في ڤيتنام الشمالية قد هزم الأمريكيين المسلحين بأحدث الوسائل القتالية... ويكمن السر في أن الروح هي التي دفعت المقاتلين وقادتهم

إلى الانتصار . . الروح تعني المعنويات والتصميم والوعي بعدالة النهج والإحساس بعدم وجود خيارٍ آخر " . . . وهو ما تفتقده إسرائيل التي يكتنفها اليأس .

هذه هي بعض ثمار الانتفاضة، فلماذا يحرمنا البكاء البروتوكولي على الأطلال من تذوقها والعيش في ظلالها حتى تزهر أحلامنا وتظلنا سحابة الكرامة بظلها؟ لماذا نبث الخوف في القلوب بقراءة كتاب أصفر مشبوه؟ لماذا نجني الأحزان وقد فاضت أنهار الفرح من حولنا، أنهار ضمخها الشهداء بدمائهم الطاهرة؟

والله أعلم .

فهرس

رقم الإيداع ٢٠٩٥١/٢٠٠٢
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 09 - 0902 - 0

مطابع الشروق
القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠٤)